شاعر الصعاليك

الشنفرى .. ولامية العرب

دكتور عبد الحليم حفني

المطبعة النموذجية
سكة الشابوري تليفون ٩١٩٣٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يختلف النقاد سواء فى التقديم والحديث على أن لامية العرب درة من أثمن ما يحوى الأدب العربى قاطبة ، ولذلك توفر عليها فى القديم جلة الأدباء والنقاد والعلماء بالشرح والتحليل ومحاولة إبراز ما تحتوى عليه من مزايا .

وأما فى الحديث فقد كان المستشرقون أول من نفض عنها غبار الإهمال وكآبة الانزواء ، وإذا اللامية تملأ عليهم نفوسهم إعجاباً وإكباراً ، وإذا حديثهم عنها مفعم بهذا الإعجاب والإكبار ، وإذا هم يحرصون على أن ينقلوها بلغاتهم إلى مواطنهم ليمتعوا شعوبهم بهذا الأدب الرفيع ، وليضيفوا إلى أدبهم ثروة تساهم فى البناء والنماء الأدبى . وعندئذ أخذ الدارسون العرب فى العصر الحديث يلتفتون إلى هذه الكنوز الأدبية ويولونها شيئاً من اهتمام ، ولكن اللامية بالذات لم تحظ بما ينبغى أن تحظى به ، وأيسر ذلك أن تنقل إلى الشباب وطلاب الثقافة فى صورة ميسرة بالشرح والتوضيح حتى يتاح لهم أن يستمتعوا بما تنطوى عليه من جمال أدبى ، ومن عمق فنى يملأ على المتذوق روحه ووجدانه . بل على العكس من ذلك كانت النتيجة ، فبدل أن يؤدى الاهتمام باللامية إلى تدعيم لكيانها ونفع بمضمونها ، أدى إلى شىء من التشويش عليها وزعزعة كيانها ، حين حاول بعض الدارسين المعاصرين مجاراة رأى متطرف لبعض المستشرقين حاولا التشكيك فى نسبتها إلى قائلها ، والخطورة فى مثل هذه الآراء المتطرفة أو غير المتثبتة أنها حين ينادى بها من يتولون شئون التعليم وخاصة فى الجامعات يدفعون بعض الأجيال التالية لهم من تلاميذهم إلى مجاراة هذه الآراء ، بل الأشد خطورة أن صاحب الرأى قد يدلى برأيه فى صورة المجتهد الذى يحاول تلمس الحقيقة ، وقد يصيبها وقد لا يصيب ، وهو يعلم أنه مجتهد فى رأيه ، وغالباً ما يفهم من حديثه ذلك ، ولكن تلميذه قد يأخذ رأيه هذا وكأنه حقيقة علمية أو قضية مسلمة . وقد اضطرنى سياق البحث العلمى أن

أناقش فى بحث سابق(١) هذا التشكيك الذى أثير حول لامية العرب ، ولكن هذا السياق لم يكن يسمح بشرحها وتيسير معانيها حتى تقرب من أذواق الطالبين الأدب ، والراغبين فى تذوق تراثهم الشعرى الذى يبهر حتى غير العرب ، كما بهرت اللامية المستشرقين .

ولقد حرصت فى هذا الكتاب على محاولة تقريب اللامية من أفهام الدارسين وأذواقهم ، وعلى إبراز أهم الجوانب التى تحتوى عليها من الناحية الأدبية ، والتى تحقق للدارسين هذه الغاية التى ننشدها ، والتى نتمنى أن تحظى بمزيد من اهتمام الدارسين والقائمين على شئون التعليم ، وهى إزالة الفجوة بين الشباب العربى وتراثه الأدبى القديم ، هذا التراث الزاخر بكل ما ينشده الشباب من متعة وجدانية ، ومن مثيرات لمشاعره وعواطفه ، ومن دوافع لحماسه وتدفق حيويته ، بل إن الشباب حين يتاح له أن يتذوق ما فى هذا التراث سيصغر فى عينه وقلبه ومشاعره كثير مما يلهى به فى هذه الأيام من أدب رخيص مبتذل مسف ، يعرض عليه مصبحاً وممسياً ، سواء فى دور اللهو أو وسائل الإعلام ، أقله الجيد ، وأكثره مفسد للذوق والعقل والإحساس ، سواء صيغ فى قصص مطبوعة أو ممثلة فى دور اللهو ، أو صيغ فى مسرحيات ، أو كان فى تمثيليات مذاعة أو مرئية التمثيل ، بل حتى كثيراً مما يعرض على الناس على أنه شعر أو نتاج أدبى ، مع أننا حين نعرض على الشباب والمثقفين هذا التراث الأدبى القديم فنعلمهم كيف يسمو المرء بوجدانه وإحساسه وذوقه ، حين يعلم كيف يكون الأدب الحقيقى فى لفظه وفى معناه ، فى خياله وفى تعبيره ، فى عمقه وفى دقة حسه ، نعلمهم كيف يسمو المرء بعواطفه ، حين يرى مثلا كيف يصور الشعر الحب فى صورته الإنسانية النبيلة التى ابتذلها ما يسمونه اليوم أدباً أو فناً فصورها فيما لا يعدو أن يكون رغبة بهيمية لا يربطها بالروح والعواطف سبب قريب أو بعيد ، وما أحوج الفتيات والمثقفات إلى دراسة الشعر القديم وتذوقه ليرين الخديعة الكبرى التى يضللهن بها ما يسمى اليوم أدباً ، حين يصور لهن أنهن كن بالأمس متاعاً رخيصاً وإماء مستعبدات ، وأن ما يسمى اليوم أدباً هو الذى يدعو إلى حريتهن ، وإلى إعلاء كرامتهن ، وما أشد

---

(١) هو كتاب شعر الصعاليك منهجه وخصائصه .

خيبة آمالهن حين يكتشفن أن ما يسمى اليوم أدباً قد أضلهن ضلالا كبيراً عن الحقيقة، وأن الحقيقة هي العكس، فالأدب القديم يجعل من كل شيء في المرأة موضعاً للجمال، ومجالا للخيال، سواء في كيانها المادي أو المعنوي، فأما في كيانها المادي فكلها مجال للخيال من شعرها إلى قدميها، وفي كيانها المعنوي مجال آخر زاخر فياض بوصف العواطف والخواطر والمشاعر ونحو ذلك، بل إن الشعر القديم لم يكتف بأن يجعل كيان المرأة وحده مجال خياله، وإنما تلمس كل ما يحيط بها أو يتعلق بشأنها، من الديار التي تسكنها أو الراحلة التي تقلها أو الآثار التي حلت بها أو الطريق التي وطئتها، بل أوغل خيال الشعر القديم فيما يتعلق بالمرأة إلى ما هو أبعد من ذلك مما يفيض به الأدب القديم، بينما يجدن ما يسمى اليوم أدباً أو فناً يرخص كل شيء في المرأة، بل يكاد يلغي كل ما فيها إلا شيئاً واحداً هو ما يتعلق بالرغبة الحيوانية، وسيجدن أن الأدب القديم يجعل المرأة قمراً في السماء، بينما يجعلها أدب اليوم مجرد جسد في الأرض، وبينما كانت في الأدب القديم أمنية عزيزة صعبة المنال أصبحت في أدب اليوم مجرد لقمة رخيصة سهلة المنال.

ولو قدر للأدب القديم أن يعرض على الناس حتى يصل إلى مشاعرهم وأذواقهم، فسيرى القائمون على الأمر، والمسئولون عن التربية والتوجيه في وسائل الإعلام كيف أن الأدب القديم يرتفع بحماس الشباب وحيويته واندفاعه فيوجه ذلك كله نحو المثل العليا والأهداف القومية والغايات النبيلة، حين يملأ نفوسهم ما يجدونه في الشعر القديم من معاني الشجاعة والإقدام والبأس الشديد موجهاً نحو غايات نبيلة وأهداف سامية، بينما يجدون ذلك في أدب اليوم يدفع الشباب دفعاً حثيثاً إلى سبل الإجرام، ووسائل الانحراف.

وليس أدل على هذه المفارقة العجيبة في المقارنة بين الأدب القديم وما يسمونه اليوم أدباً من أننا حين ننظر إلى شعر الصعاليك وهم طائفة قطاع الطرق في المجتمع العربي القديم، لا نجد هذا الشعر داعياً ولا حافزاً إلى الإجرام والانحراف كما يفعل أدب اليوم، بل على العكس نجده يدعو دعوة واضحة قوية إلى الخلق والمبادىء، وأن شعرهم ليحفل بما تمثل به الناس في كل العصور ولا يزالون يتمثلون به في الدعوة إلى الفضيلة والخلق.

نريد من كل هذا أن نقول إن تراثنا الأدبى القديم ليس بمعزل عن الحياة ، بل فيه كل متطلبات المجتمع حتى حين يجنح إلى المتعة الوجدانية والترفيه العقلى .

ونريد أن نقول إن إحياء هذا التراث الأدبى المجيد يعلم الناشئين أن يحذوا حذوه حين يحاولون الإنتاج ، حيث تكون نفوسهم قد استقت منه فتأثرت به ، وحيث يعرفون كيف يكون الأدب الرفيع فلا ينحدرون إلى التبذل والإسفاف .

وإذن فليرتفع الصوت بإحياء الأدب القديم وتقريبه إلى نفوس الناشئين وأذواقهم ، وليرتفع الصوت أيضاً بإخماد ما يسمونه اليوم أدباً قبل أن يفسد ما بقى من أذواق الناشئين ومشاعرهم ، وأخلاقهم أيضاً .

وفى محيط هذه الدوافع كانت محاولتى لتقريب لامية العرب من نفوس الناشئين أذواقهم .

وحديثى فى هذا الكتاب ذو شقين ، شق عن لامية العرب ، وهدفى فيه محاولة إبراز أهم خصائص اللامية من جوانبها المختلفة ، وخاصة ما يتعلق بشخصية صاحبها ، أما فى شرحها من حيث الألفاظ والمعانى فقد رأيت الاكتفاء من ذلك بالقدر الذى يزيل غرابة الألفاظ ويكشف غموض المعانى ، ومن الواضح أن الغرابة والغموض ليسا فى ذات اللامية ، وإنما كلاهما أمر نسبى ، بمعنى أنهما قد يوجدان بالنسبة لنا فى الكلام القديم ، ولكن هذا الكلام لم يكن فى المجتمع الذى قيل فيه غريب الألفاظ ولا غامض المعانى ، لأن قائله فرد من المجتمع فى لغته وبيانه ، وهو يقول ليفهم عنه الناس ما يقول ، لا ليعمى عليهم ، فالقصور اللغوى فينا نحن إذن وليس فى الأدب القديم .

وما عدا إزالة الغرابة والغموض فقد تركت بعضه دون إغراق فى توضيحه اعتماداً على يسر فهمه من جهة ، وليحتفظ الطالب بشىء من ذاته وجهده فى الفهم والاستيعاب من جهة أخرى .

والشق الآخر عن صاحب اللامية وهو «الشنفرى» ، وبالإضافة إلى كونه شخصية ذات تأثير فى مجتمعها ، سواء أرضى الناس عنه أم سخطوا عليه ، وهذا يدعو إلى الحديث عنه لذاته وبيان هذا التأثير وعوامله ، أقول بالإضافة إلى ذلك فإن أهم

ما عناني من الحديث عنه جانبان يرتبطان باللامية ، أحدهما بيان عن شخصيته وتكوينه ومسالك معيشته ليكون ذلك ضوءا هادياً فى فهمنا لهذه القصيدة وتصورنا الواقعى لظروف قائلها ، والجانب الآخر عن الطائفة التى ينتمى إليها الشنفرى وهم الصعاليك ، فلا يتسنى لنا تصور شخصية الشنفرى وحياته حتى نعرف مهنته وطائفته وأسلوب حياتها .

فقد روع الصعاليك الجزيرة العربية قبل الإسلام أيما روع . ولكن اثنين منهم قد استطاعا أن يكتسبا مع ذلك من المجتمع نظرة تمتزج فيها الإعجاب والحذر والرضا ، ولكنها على كل حال لا تمثل التهوين والإزراء ، وإنما تمثل التهيب والإعجاب ، حتى أضفيا بما اكتسباه من تقدير المجتمع حينذاك على الصعلكة نفسها شيئاً من هذا التقدير ، وهما عروة بن الورد العبسى بما عرف عنه من جود ومبادىء يقوم عليها هذا الجود ، والآخر الشنفرى بما عرف عنه من مواهب ضربت به فى بعضها الأمثال ، وخاصة قوة الإرادة والتصميم ، وكونه أعدى العدائين ، وأحذق الدهاة والماكرين .

وكل ذلك يرتبط بدراستنا للامية ، وعلى الأخص فى نقدنا الموضوعى لها لنتبين هل تمثل نفسية وحياة صعلوك بهذه الصفات ، أم أن منهجها وروحها يوحيان بأنها لشخص بعيد كل البعد عن الصعلكة وحياتها كما يحاول أن يثيره المشككون ؟

والله أسأل أن تكون هذه الدراسة قد حققت ما ينبغى وما أريد .

القاهرة : أكتوبر ١٩٧٥

د . عبد الحليم حفنى

نسبه وبيئته

قبيلته :

هو الشنفرى بن الأواس(١) ولا يختلف الرواة فى أنه ينتسب إلى قبيلة الأزد ، ولكنهم يختلفون فى تسلسل قبيلة الأزد ، وفى أطوار تنقلها وانتشارها فى الجزيرة العربية وما حولها .

ومن المسلم به أن الموطن الأصلى للأزد اليمن ، وأنهم كانوا يعيشون حياة الخصب والاستقرار فى شعب سبأ باليمن ، هذه الحياة التى هيأها لبنى سبأ ذلك السد العظيم الذى استطاعوا أن يقيموه لينظموا به شئون حياتهم المعيشية والزراعية ، حتى شاء الله أن يتهدم ذلك السد ، فتحولت الجنان التى أوى إليها الناس وتكاثروا حولها إلى صحراء لا تقيم أود هذه الجموع الحاشدة ، فاضطروا إلى التفرق فى الجزيرة العربية وما حولها ، وقد كانت قبيلة الأزد ؛ وهم بنو أزد بن الغوث فرعاً من بنى سبأ ، وتفرقوا فيمن تفرق من سبأ ، ولم يكد يخلو ركن فى الجزيرة العربية من بعض هؤلاء المهاجرين من اليمن ، ولكن معظمهم آثر الاستقرار فى أطراف الجزيرة ، وخاصة فى شمالها وشرقها ، ففى سواحل عُمان ومناطق الإمارات العربية الحالية استقر كثير منهم ، وكان لهم نشاط فى بعض جوانب التجارة العالمية مع الهند وفارس ، وفى شمال الجزيرة ازداد انتشارهم وتوغلهم ، حتى تجاوزوا حدود الجزيرة ، فأوغلوا فى بعض مناطق الشام والعراق ، وبعد الفتوح الإسلامية وجدوا

---

(١) فى بعض الروايات اسمه ثابت بن أوس ويكون الشنفرى لقباً غلب عليه حتى عرف به ، والشنفرى فى اللغة يطلق على غليظ الشفة ، وعلى السيء الخلق ، وعلى ضخام الإبل ، وكلها يصلح لقباً له ، حيث كان من صفاته قبح الوجه ، وكان قاطع طريق ، وكان يضرب به المثل فى سرعة العدو ، ولكن اسم أبيه فى الروايات المعتمدة الأواس وليس أوساً ، وفى كل حال هو مشهور بالشنفرى ، وتحدث الأصفهانى خلال ترجمة تأبط شرا ٢١/١٦٠ باسم الشنفرى بن مالك ويبدو أنه سهو .

فى اتساع الدولة الإسلامية متنفساً أكبر لهم ، فأبعدوا إلى خراسان وبعض الأقاليم الأخرى .

ومن الواضح فى التاريخ العربى القديم أن قبيلة الأزد بفروعها المتشعبة المتعددة كانت بارزة مرموقة ، وكان لها نصيب كبير فى توجيه السياسة والحركات المحلية قبل الإسلام ، ولم يخب ذكرها وشأنها بعد الإسلام .

ويلاحظ المتتبع لتحركات الأزد وفروعهم أنهم يحرصون على محاولة أن تكون لهم السيادة فى الأماكن التى يستقرون فيها ، أو تكون لهم الكلمة المسموعة على الأقل ، ولذلك نلاحظ أنهم لمعوا فى الأماكن التى استوطنوها ، كما كان الأوس والخزرج فى يثرب (المدينة) وهم من الأزد ، وكما كان ملوك الغسانيين بالشام وهم من الأزد أيضاً ، وحتى الذين واصلوا التنقل مع الفتوحات الإسلامية منهم كانوا يحملون هذه النزعة ،كما فعل الذين رحلوا إلى خراسان واستوطنوها ، فقد حرصوا على أن يكون لهم فيها كيان بارز مؤثر ، وقد كانوا قوة أساسية فى جيش أبى مسلم الخراسانى ، حتى إن بعض الباحثين ينسب إلى الأزديين الفضل الأكبر فى قيام الدولة العباسية .

ويمكن لمن يحاول التماس تعليل لهذه النزعة الواضحة فيهم أن يقول إنهم كما تذكر الروايات كانوا ملوكا على بادية كهلان باليمن وكانوا يشاركون حمير المجد والسيادة ، فحين اضطروا إلى التشعب لم يستطيعوا أن ينسوا أنهم كانوا سادة وملوكا ، ولم يقبلوا أن يعيشوا رعاعا فى المواطن التى استهدفوها .

وأما الزمن الذى حدثت فيه هذه الهجرة فلم يحدده التاريخ ، وإن كان يمكن القول من باب التقريب بأنه يناهز بضعة أجيال قبل الإسلام ، وإذا حاول دراس التاريخ أن يخمن مما يوحيه المناخ التاريخى بأن هذه المدة تقع فيما بين ثلاثة قرون وخمسة قرون قبل الإسلام فلا أراه يبعد كثيراً عن الصواب .

ومن هذا الغموض التاريخى تتفلت أمام الدارس بعض ملاحظات لا يستطيع أن يغمض عينيه عنها ، منها أن حديث الروايات التاريخية ينصب على الأزد ويكاد

يتجاهل القبائل الأخرى التي كانت تعيش معهم في اليمن والتي شاركتهم الهجرة من مأرب حين تهدم سدها ، فتتحدث الروايات بإسهاب عن تشعب الأزد متتبعة مواطنهم الجديدة، بينما لا تشير إن أشارت إلى إخوان الأزد من سبأ ، وإلى جيرانهم من حمير إلا بإشارات عابرة موجزة . يكتنفها في أغلب الأحيان عدم الوضوح ، ومن هذه الملاحظات أن الفروع الكثيرة المتشعبة التي ينسبها الرواة والمؤرخون إلى قبيلة الأزد يصعب أن نتصورها جميعاً متشعبة عن قبيلة واحدة مهما كثر عددها، فما لا يتفق مع الوقع أن تصبح قبيلة واحدة قبائل عديدة في بضعة أجيال ، فيصبح منها قبائل أزد الحيرة ، وأزد عمان ، وأزد تنوخ ، فضلا عن قبائل أخرى كثيرة منها خزاعة ودوس رهط أبي هريرة وبارق وغامد ، بالإضافة إلى من أشرنا إليهم من الأوس والخزرج والغساسنة ، وقبائل أخرى ، والأعجب من هذا أنهم حين ينسبون أحد أفراد هذه القبائل إلى الجد الأعلى وهو أزد لا يكادون يتجاوزن بضعة آباء بين هذا الفرد وأبيه الأعلى أزد .

وإذا تجاوزنا الاعتذار بالغموض التاريخي وهو حقيقة ، يمكن القول بأن أغلب الظن أن الأزد قبيلة قديمة في اليمن ، وكانت لهم السيادة في بيئتهم تلك ، كما تشير إلى ذلك روايات التاريخ،ثم حاولوا أن يحافظوا على نوع من السيادة أو قوة الكيان الاجتماعي في مواطنهم الجديدة ، بالإضافة إلى لمعان بعض الأسر والأفراد منهم حتى في الجاهلية كملوك الحيرة وآل غسان ، ثم جاء الإسلام فكانوا من أسبق الناس إليه ، كما كان الأوس والخزرج ، وكما كانت خزاعة التي انضمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحالفته متحدية بذلك قريشاً ألد أعداء الإسلام حينئذ وأقواهم، وكان هذا الحلف وغدر قريش به من أهم الأسباب المباشرة لفتح مكة كما هو معروف، ونعود إلى القول بأن أغلب الظن أن هذه الأسباب ونحوها جعلت الرواة والمؤرخين يركزون حديثهم على الأزد فيما يشبه الجهل أو التجاهل لمن صحبهم أو شاركهم ظروفهم من القبائل الأخرى ، ولكن هذا الاحتمال يثير أمراً أهم وأبعد من ذلك ، وهو الشك في نسبة كل هذه الفروع التي تشعبت في الجزيرة العربية وغيرها إلى الأزد .

نسب الشنفرى :

لم يختلف الرواة كما سبق فى نسبة الشنفرى إلى الأزد . ولذلك تتحدث عنه أغلب الروايات بأنه الشنفرى الأزدى ، وإن كان لفظ الشنفرى لذاته أصبح من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى زيادة تعريف أو توضيح ، فهو علم فرد فى التاريخ العربى قديمه وحديثه ، لم يشارك فيه صاحبه أو لم يزاحمه فى الشهرة على الأقل شخص آخر .

وأما التسلسل القريب لآبائه ، فأغلب الروايات تذكر أنه الشَّنْفَرَى بن الأواس (بكسر الهمزة أو ضمها) بن الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) بن الهنىء (بوزن كليب) بن الأزد .

وأما فرعه من قبيلة الأزد ، فهو أزد شَنُوءة التى استوطنت منطقة السراة فيما بين مكة والمدينة(١) ، وتختلف الروايات فى سبب وصفهم بشنوءة ، فبعضها يجعلها من الشنآن وهو العداوة ، ويسوق لذلك أحداثاً من الخصومة والعداء فى أحداث تتعلق بخزاعة ، سموا من أجلها أزد شنوءة ، وبعض الروايات يذكر أن شنوءة مخلاف باليمن ومعنى ذلك أن نسبتهم هذه لبيان موطنهم من اليمن ، بينما تذكر رواية أخرى أن موطنهم باليمن ليس شنوءة ، وإنما أبيدة . ومهما يكن من شىء فالشنفرى أزدى ، وفرعه من الأزد استوطن السراة ، ولذلك يسمون أحياناً أزد السراة ، وكان ذلك قبل الإسلام بزمن غير قصير .

مجمل تاريخى :

قبل أن ندخل فى شىء من التحليل والتعقيب على الشنفرى وحياته ينبغى أن نلم بنبذة تاريخية مجملة ، خالية من التعليق والتعقيب ، حتى نستطيع بعد ذلك أن نجد فى أذهاننا صورة ولو مجملة عن الشخص الذى نتحدث عنه وعن حياته التى يتعرض لها الحديث .

يذكر كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى أن جبال السراة فى نجد

وهناك نقاط تتفق عليها الروايات أو تكون فى حكم المتفق عليها من حياة الشنفرى وهناك نقاط تختلف حولها الروايات ، فما تتفق عليه الروايات أنه أزدى من حيث النسب ، وأن فرعه هو أزد شنوءة الذين عاشوا فى منطقة السراة فيما بين مكة والمدينة ، ومن المتفق عليه أيضاً أنه نشأ فى غير قومه ، حيث انتقل أو نقل وهو غلام صغير إلى قوم آخرين ، وهم بنو شبابة بن فهم ، ثم انتقل أو نقل منهم إلى بنى سلامان ابن مفرج وهم من الأزد أيضاً وأن حياته فى هـــذا التنقل لم تكن حياة العزة التى يحظى بها أبناء المكان ، وإنما حياة الدخلاء على القوم . ومن المتفق عليه أن عداوته تركزت على بنى سلامان حتى آلى على نفسه أن يقتل مائة رجل منهم ، وأنه ظل مصمماً ومستميتاً فى تنفيذ وعيده هذا حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا قبل أن يدركه الموت ومن المتفق عليه أيضاً أنه مات قتيلا ، وأن بنى سلامان فى إحدى محاولاتهم التربص به والترصد له هم الذين قتلوه ، ومن المتفق عليه أنه من أشهر صعاليك العرب وقطاع الطرق فيهم ، ومن أشهر شعرائهم وأجودهم شعراً أيضاً ، ومن المتفق عليه أنه من العدائين الذين لم يلحقهم شىء ولا أحد قط ، وأنه بلغ من امتيازه عن غيره من العدائين أن ضرب به المثل فى العدو(١) ، ومن طريف ما تتفق عليه الروايات جميعاً بالنسبة للشنفرى خبران غريبان ، وغرابتهما هى مصدر الطرافة ، أحدهما أنه حين مات لم يكن قتل إلا تسعة وتسعين من المائة الذين أقسم أن يقتلهم من بنى سلامان . وبعد موته بزمن لم تحدده الروايات مر رجل من بنى سلامان فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى فعقرت ، فمات فاكتملت به المائة . والخبر الثانى أن الوصية الوحيدة التى أفضى بها عند موته حين هم أعداؤه بقتله هى ألا يدفنوه ، بل يتركوا جيفته فى العراء غنيمة للضبع المشهورة بالبحث عن الجيف باعتبارها الطعام الشهى المفضل لديها ، وقد صاغ الشنفرى وصيته هذه فى شعر من أشهر ما تحرص الكتب القديمة على اثباته وتداوله ، حيث يقول فى هذا الشعر :

فلا تقبرونى إن قبرى محرم ... عليكم ولكن أبشرى أم عامر

---

(١) فى بعض الروايات أن السليك ضرب به المثل أيضاً فى العدو دون إجماع على ذلك .

وأم عامر كنية الضبع عند العرب .

وفى حكم المتفق عليه بين الروايات ضمناً أنه جاهلى ، ولم يخالف فى ذلك إلا صاحب القاموس المحيط ، حيث عده من أغربة العرب الإسلاميين ، وهم سود الألوان تشبيها بالغراب المشهور بالسواد ، ومن الواضح أنه مجرد لبس من صاحب القاموس ، حيث يركز همه كله على التحقيق اللغوى وليس التاريخ ، وهو نفسه لم يسق هذا على أنه رأى أو مخالفة لغيره أو نحو ذلك ، وإنما هو من باب تداعى المعلومات التى لا يعمد فيها صاحبها إلى تحقيق أو تدقيق علمى ، فذكر تأبط شراً والشنفرى ضمن الإسلاميين(١) .

وهذه الروايات على إيجازها من جهة ، وعلى عدم اهتمامها بالتفاصيل من جهة أخرى إلا أنها ترسم الهيكل العام للشنفرى وحياته بصورة فيها من الوضوح القدر الذى تستلزمه دراسة حياته وشعره .

وأما النقاط التى كانت موضع اختلاف بين الروايات فمنها سبب انتقاله بين قومه إلى آخرين ، فبعض الروايات يذكر أن بنى شبابة بن فهم أسروه فى بعض غاراتهم على أهله من بنى الأواس بن الحجر ، ثم أسر بنو سلامان بن مفرج وهم من الأزد رجلا من بنى فهم الذين أسروا الشنفرى ، فافتدى بنو فهم رجلهم بالشنفرى ، وبناء على ذلك انتقل الشنفرى إلى بنى سلامان مكان الفهمى ، وعاش فى بنى سلامان كأنه واحد منهم حتى حدث من الأحداث ما جعله ينقم على بنى سلامان ويعود إلى بنى فهم . وبعض الروايات يذكر أنه لم يؤسر ، وإنما عمد بنو سلامان إلى قتل

---

(١) من القرائن التاريخية التى تقرب تحديد زمن الشنفرى أن صديقه تأبط شرا كانت له أخت تسمى آمنة تزوجت من نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى الذى أسلم ابنه عدى سنة ٨ هـ كما نقل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ١٠٤/١ ومعنى ذلك أن تأبط شرا كان فى الجيل السابق للإسلام ، والشنفرى صديقه رغم أنه أكبر سناً ومات قبل تأبط شرا ورثاه تأبط شرا بشعر ، فيكون الشنفرى أيضاً من الجيل السابق للإسلام .

والد الشنفرى فلم تجد أم الشنفرى من بنى الحجر من يطالب بدمه فنقمت عليهم وانتقلت بالشنفرى وهو صغير إلى بنى فهم ، فلما شب الشنفرى أخذ يغير على بنى سلامان مستعيناً فى بعض غاراته ببعض بنى فهم كصديقه تأبط شراً .

وليست هذه التفاصيل ذات قيمة كبيرة فى مجال الدراسة الأدبية ، وإنما يعنى هذه الدراسة ما تتفق عليه الروايات ، وهو أنه نشأ فى غير قومه ، ليحيا حياة غير عادية من حيث عدم تمتعه بالكرامة التى يحظى بها ابن القبيلة أو العشيرة ، وهو يسجل هذه الحقيقة فى شعره حيث يقول :

وهنىء بى قوم وما إن هنأتهم وأصبحت فى قوم وليسوا بمنبتى

وقد تحدث كثيراً فى شعره عن نفوره من الهوان ومن الناس حينما يحس منهم ذلك ، وهذا يشير إلى وضوح هذا الإحساس فى نفسه .

ومما اختلفت حوله الروايات سبب تركه بنى سلامان ، فأغلب الروايات تثبت أن بنى سلامان أخذوه فدية من بنى شبابة بن فهم مكان رجل منهم ، وأنه عاش فى بنى سلامان كأنه أحدهم ، ثم تختلف الروايات فى سبب نقمته عليهم وتركهم ، فبعضها يذكر أن الرجل السلامى الذى كان الشنفرى يعيش عنده ويرعى إبله كانت له فتاة تسمى قعسوس ، والواقع أن هذا القدر موضع اتفاق بين الروايات ، ولكن الاختلاف يبدأ بينها بعد ذلك ، فبعضها يذكر أن الشنفرى بعد أن تبناه السلامى حسبها أخته ، بينما هى تعرف أنه أسيرهم ، فطلب منها ذات يوم أن تعينه فى غسل رأسه ، فأنفت أن يستخدمها فلطمته ، فذهب يستوضح أباها فعلم منه أنه أسير وليس ابنه ، فكان ذلك سبب نقمته عليهم ، وبعض الروايات يذكر أنه أحبها ، وتمنى أن يتزوجها ، وحاول أن يقبلها فأنفت ولطمته ، وبعضها يذكر أن الشنفرى تزوجها فعلا ، وأن بنى سلامان استقبحوا أن يصهر إليهم دخيل كالشنفرى ، وأن أبا قعسوس كان يشعر بذلك ويتخوف أن يقتله أهله إن أصهر إلى الشنفرى ، فأقسم له الشنفرى إن قتلوه ليقتلن به مائة منهم ، وأنه بعد أن تزوجها قتلوا أباها فعلا ، فأخذ الشنفرى يعد نفسه فى خفية لتنفيذ قسمه ويصنع

النبال لذلك ، وأنه حينما طال ذلك استنجزته قعسوس وعده ، فقال لها فيما قال :

كأن قد — فلا يغررك منى تمكثى —

سلكت طريقاً بين يربغ فالسَّردِ

ومن الواضح أنه اختلاف غير خطر إلا من زاوية تأثير السبب فى نفسه ، وما ترتب على ذلك فى سلوكه وشعره ، وستأتى مناقشة لهذا الجانب .

وهناك صور من اختلاف الروايات أقل خطراً ، وأقل فى مسالك الخلاف نفسه ، ومن ذلك الاختلاف فى نهاية حياة الشنفرى ، فبعد أن تتفق الروايات على أنه ترك بنى سلامان ناقماً متوعداً ، وأنه استطاع بغاراته المتلاحقة عليهم ، وترصده لهم أن يقتل منهم تسعة وتسعين رجلا ، وأنهم حاولوا أكثر من مرة أن يتمكنوا منه فى كمائن ومراصد فأفلت منهم بسرعته الخارقة فى العدو ، وبيقظته وحسه الشديد الإرهاف فى التنبه للخطر ، وأنهم أقاموا له رصداً محكما ذات ليلة وأنه بلغ من يقظته أنه أحس بالرصد ، بعد ذلك تبدأ الروايات فى اختلاف غير كبير ، فبعضها يذكر أنه رمى بسهمه لمجرد إحساسه بمصدر خطر دون أن يتبين شيئاً ، فأصاب أحد المترصدين فقتله ، وبعضها يقول بل شك ذراعه إلى عضده ، وتعود الروايات إلى الاتفاق على أنهم تمكنوا من أسر الشنفرى وتسليمه لبنى سلامان ، ثم تعود إلى الاختلاف الهين حول طريقة قتله ، وحول اتفاق الآراء على قتله ، فبعضها يسوق أن بعض بنى سلامان كان يذكر للشنفرى قرابة النسب والعشيرة فيرى عدم قتله ولكن أحد الموتورين يسارع إليه بضربة بقطع يده ثم يقتلونه ، وبعضها يذكر أنهم عاجلوه بأسلوب التعذيب فى الموت حتى قضى نحبه ، وبعضها يذكر أن أحدهم رماه بسهم فى عينه فقتله قائلا له : هل أطرفك ؟ كما كان الشنفرى يقول لأحدهم حين يقتله.

---

(١) جملة (فلا يغررك منى تمكثى) معترضة ، والمعنى لا تغترى بتمهلى وتريثى فكأنى من شدة تصميمى على تنفيذ وعيدى سلكت فعلا طريقى بين هذين المكانين يربغ والسرد متجها إلى بنى سلامان للانتقام وهو تعبير مألوف للاشعار بالتيقن من توقع حدوث الفعل

بيئة الشنفرى :

وإذن فقـــد نشأ الشنفرى فى منطقة السراة ، وهى منطقة جبلية فيما بين مكة والمدينة (١) . وأبرز شهرتها الجبال ، حتى إنها تسمى جبال السراة ، وهذه البيئة من العوامل التى تيسر لأبنائها حياة الصعلكة ، أو تدفع بالمهيأين منهم إلى هـــذه الحياة ، وذلك من جانبين ، أحدهما أن البيئة الجبلية دائماً قليلة الخصب ، فتسيطر الحاجة عادة على أكثر أبنائها ، وهـذا بطبيعة الحال يدفع بعضهم إلى اللصوصية وقطع الطريق ، وهم الذين يكون لديهم الاستعداد النفسى والجسمى لهذه الحياة ، والجانب الثانى أن المناطق الجبلية أنسب الأماكن للطاردين بما تيسره لهم من وسائل الحماية والتخفى سواء فى طياتها وكهوفها أو قممها .

فى هذه الأرض نشأ الشنفرى الأزدى ، ولم تحدد الروايات ، وليس فى وسعها أن تحدد زمن ولادته ، ولا زمن وفاته ، وإن كان من المرجح أنه كان فى الجيل السابق للإسلام مباشرة .

وأما البيئة الاجتماعية للشنفرى فقد كانت شـــديدة القسوة ، وقد حالفته هذه القسوة منذ عرف نفسه ، وكانت شديدة الوفاء له فلم تتخل عنه حتى لقى حتفه،أو على الأصح دفعته إلى أن يسلك الحياة التى لابد أن يلاقى فيها حتفه وهى الصعلكة ، وكما كانت القسوة وفية للشنفرى هـــذا الوفاء المر البغيض ، فقد بادلها هو هذا الوفاء بصورة أشد مرارة وعنفا ، وآلى أن يصب هذه المرارة على الناس ، وألا يتخلى عن ذلك ، وقد التزم هذا الوفاء المقيت ، حتى أودى به وفاؤه بعد أن أودى هو بكثير من الناس .

---

(١) يذكر كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى أن الشنفرى نشأ فى نجد وهذا غير دقيق ، كما أنه يذكر أن الشنفرى اليمنى الأصل تعلم لغة الشمال من أهل نجد مع أن الشنفرى ليس هو الذى انتقل من اليمن وإنما انتقلت القبيلة قبل الشنفرى بأزمان وولد هو فى الحجاز وعاش فى هذه المنطقة بين مكة والمدينة وفيها كل الأماكن التى ذكرها فى شعره .

وتوضيح ذلك أن الشنفرى لم يعرف حياة الراحة والدعة قط ، بل ولم يعرف حياة الاستقرار والانتماء الاجتماعي قط ، فقد عدا عليه بعض العادين فى إحدى الغارات التى كان يغيرها بعض القبائل على بعض ، والتى كانت شائعة ومألوفة فى كل أرجاء الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وكان الشنفرى حينئذ غلاما صغيراً كما تصف الروايات حين أخذوه أسيراً ، وإذا به يجد نفسه أسيراً فى هذا الحى من بنى فهم ، وبعض الروايات تذكر أنه لم يؤخذ أسيراً ، وإنما انتقلت به أمه إلى بنى فهم حين قتل أبوه فلم تجد فى قومه نصيراً يأخذ بثأر زوجها ، والذين قتلوه كما تذكر هذه الرواية هم بنو عمومته الذين أصبح الشنفرى فيما بعد ألد أعدائهم وهم بنو سلامان ابن مفرج ، وسواء كان انتقاله لهذا السبب أو ذاك ، فالذى يعنينا أنه انتقل من بين أهله وموطنه إلى قوم غرباء ، وكان مضطراً ومكرها على هذا الانتقال وكانت حياته فى هذا الانتقال غير كريمة ولا عزيزة فى كلا الاحتمالين ، فحياة الأسير وحياة الجار ، كلتاهما لم تكن تحظى بكرامة ابن القبيلة وعزته ، بل كانت أقرب إلى الاعتباد والإذلال ، وكان حتما على الأسير أو الجار أن يقبل من سادته أبناء القبيلة صوراً من التعالى والتحقير لابد أن تؤذى النفس الأبية إيذاء غير يسير ، وقد كانت نفس الشنفرى شديدة الإباء ، وحينئذ يمكن أن نتصور أى إيلام لها كانت تعانيه منذ صباها فى حياة الأسر أو ما يشبه الأسر .

وليت الحياة على مرارتها دامت للشنفرى فى بنى فهم ، فقد كان يحتمل أن يتعود على هذه الحياة حتى تسوغ فى حلقه أو تكون قريبة من ذلك ، ولكنه يتجرع المرارة من جديد ، حيث يغير بنو سلامان على بنى فهم — كما تذكر الرواية الأولى — فيأسرون رجلا منهم ، ويدخل الفهميون فى مفاوضة مع السلاميين ، تنتهى بأن يقبل السلاميون الشنفرى فدية مكان الفهمى .

وهكذا يكتب على الشنفرى أن يترك بنى فهم بعد المدة التى قضاها بينهم ، والتى يعتقد أنها سنوات غير قليلة ، والتى خرج منها بأصدقاء من بنى فهم منهم صديقه فى الصعلكة ، ورفيقه فى السطو والغارات تأبط شراً . يخرج من بنى فهم ليعيش أسيراً فى بنى سلامان .

وليس من شك فى أن معيشة الشنفرى فى بنى سلامان كانت شديدة القسوة على نفسه ، بالغة الإيلام والإيذاء لها . وليس من شك أيضاً فى أن النقمة التى كان يحملها الشنفرى لبنى سلامان لم ترتبط بسبب واحد محدد ، وإنما كانت لآلام تجمعت فى نفسه حتى ملأتها حقداً وبغضاً لبنى سلامان . والروايات تردد علاقة بين الشنفرى وفتاة من بنى سلامان ، هى ابنة الرجل الذى كان الشنفرى يعيش عنده ، وبعض هذه الروايات يشير إلى أن الشنفرى كان يحب هذه الفتاة التى تسمى قعسوس ، وأنه حين أراد أن يتزوجها ترفعت عنه ، وبعضها يذكر أن الشنفرى كان يعتقد أنها أخته فطلب منها أن تخدمه فى بعض شأنه فأنفت من ذلك وصفعته لأنها كانت تعلم أنه أسير وليس أخاها ، وليس شىء من ذلك بالمستبعد ولا بالمستنكر ، ولكن المستبعد أن يكون الشنفرى قد حمل لبنى سلامان يوماً ما شيئاً من ود أو إلف أو حتى رضا ، فان ما حدث بعد ذلك وهو ما تجمع عليه كل الروايات من أن الشنفرى أقسم ليقتلن من بنى سلامان مائة رجل ، لا يصلح نتيجة طبيعية لمجرد شىء من الأسباب السابقة ، فليس مجرد رفض فتاة الزواج من شخص ، أو حتى صفعها إياه لأى سبب كافياً لأن يحمل لقومها هذا البغض العارم المدمر ، وهذا السخط الجامح العاصف ، ولكن المنطق الذى يستقيم مع طبائع الأمور أن نتصور أن الشنفرى قد عانى من إذلال بنى سلامان ، وامتلأت نفسه بالمرارة من هوانه بينهم ، ولكن شيئاً معيناً جعله يتحامل على نفسه ، ويتحمل ما يقاسيه منهم ، هو تعلقه بهذه الفتاة التى منى نفسه بحبها ، وعلق آمالا طوالا عراضاً على حبها ، متصوراً أنها ستبادله حبه وإعجابه وستكون عزاء له عما يقاسيه من قومها ، ومن المنطق أيضاً أن الفتاة لم تصده عن حبها وإعجابه بها ، ومالها تصده وكل فتاة تتمنى أن تكون موضع إعجاب الناس أجمعين ؟ ولم لا تبادله شيئاً من عواطفه وهى فى حاجة إلى تسلية فى ذلك المرعى المقفر من الشباب إلا أمثال ذلك الشنفرى ؟ فليكن الشنفرى بالنسبة إليها خيراً من لا شىء ، وليكن تمضية للفراغ ، وتسلية للوحدة ، على أنه لا يخلو من مواهب تثير الإعجاب إن لم تثر التطلع ، فهو عداء لا يلحق ولا يسبق ، ولم لا تشغل جانباً من نهارها تتابع حركة رجليه اللتين تسابقان الريح ؟ وهو شاعر عميق رقيق فلماذا لا تمتع روحها بشاعريته وخاصة حينما يشير إلى جمالها وأنوثتها وحنينه الجارف إليها ؟ وقد

يكون قبيح الشكل دميم الوجه منكر الشفتين ولكن إهابه يحوى شخصية قوية صارمة ذات إرادة أشد قوة وصرامة ، ولئن نفرت هى من شكله وحسبه فيهم ، فإن أنوثتها لا تستطيع أن تنفر كل النفور من هذه القوة الصارمة العازمة فى شخصه .

وهكذا مضت الحياة حيناً من الدهر بين الشنفرى وقعسوس فيما يمكن أن يتصوره متصور ، هى تمثل بالنسبة إليه الشعاع الوحيد الذى يلمع فى ظلمات حياته ، والأمل الوحيد الذى يجعل للحياة عنده قيمة ومعنى ، والدواء الوحيد الذى يمكن أن يشفى جراح كرامته وعزته وما يعانى من هوان المقام فى بنى سلامان ، وإذا لم يشفه فهو على الأقل الدواء الوحيد الذى يعينه على الاحتمال ، وهكذا أخصب هذا الأمل فى نفس الشنفرى وأفرخ ، فصور له حياة باسمة ومستقبلا لا يخلو من بريق ، حتى أضحت قعسوس أمنية حياته ومصباح آماله .

واما هى فقد كان الشنفرى بالنسبة إليها معيناً على حياة جافة خاوية قاسية ، تستغل عواطفه نحوها مسخرة إياه ، مستنزفة جهده ، ليتحمل عنها كل ما تتطلبه حياة الرعى وجهد البادية ، وليكون مصدر تسلية وترفية ومتعة نفسية ، ويمكن أن تمضى الحياة بينهما هكذا أمداً غير قصير ، ويمكن أن يتدرج الشنفرى من مجرد الخيال والأحلام نحوها إلى درجة أو درجات من الصلة البريئة ، ويمكن أن يحاول إبداء رغبته فى الاقتران بها ملمحاً أو مصرحاً ، ويمكن أن تصده هى أو تماطله فى لين أو فى عنف ، ولكن ذلك لا يدفعه إلى ثورة أو نقمة ، أما الذى يمكن تصوره دافعاً للشنفرى إلى ثورته العارمة المدمرة فهو أن يكتشف فى وضوح أنها كانت تخدعه ساخرة منه فيما بينها وبين نفسها ، أو أن يكتشف أنها كانت تخون عواطفه ساخرة منها ، موجهة عواطفها نحو فتى من قومها تراه كفؤاً لها ، وفى كل الأحوال سنجد خديعتها له ، وسخريتها منه ، من أهم مشعلات النقمة فى نفسه وليس مجرد رفضها إياه ، أو حتى تعاليها عليه ، ومن المنطق أيضاً أن قومها بنى سلامان تناقلوا حب الشنفرى لقعسوس وتطلعه إلى الاقتران بها ساخرين متندرين من هذا العبد أو الخادم الذى تبلغ به الوقاحة أن يتطلع إلى درة من درر بنى سلامان ، ولم يكن وضع الشنفرى الاجتماعى وحده هو مادة السخرية والتندر ، بل إنهم سيجدون كثيراً مما يتندرون به ويتفكهون حينئذ ، ومن ذلك

هذا القبح الشديد فى خلقة الشنفرى ، وهـــذه الدمامة الكئيبة فى وجهه ، وهذه القسمات المنكرة فيه ، حتى جعلت الرواة يصفونه بأنه من أقبح الناس وجها ، وكذلك هذه النحافة الشديدة التى تجعله مجرد هيكل من عظام يابسة ضامرة .

ولم يكن ذلك وحده على إيلامه لنفس الشنفرى كل ما أشعل نقمته وأوغر صدره ، وإنما كان هـــذا الحادث على مرارته فى قلبه وكرامته مجرد انتكاسة لجراحه ، وإزاحة للغشاوة عن بصره ليعود بصره حديداً يرى كل ما يعانيه من بنى سلامان ، ولتعود ذاكرته شديدة الوعى والاسترجاع لكل ما مرّ به من آلام وإيذاء .

ولئن كان ما عاناه من بنى سلامان مؤلما مؤذياً لكل نفس ، فإنه فى نفس الشنفرى أشـــد إيلاماً وإيذاء من ناحيتين ، إحداهما أن نفس الشنفرى ليست ككل النفوس فى إبائها للضيم وشعورها بالهوان ، كما يقول هو عنها .

ولكن نفساً حرة لا تقيم بى   على الضّيم إلا ريثما أتحول

والناحية الأخرى أن بنى سلامان كانوا أقرباء الشنفرى فى النسب ، حيث إنهم فرع من الأزد ، كما كان بنو الحجر عشيرة الشنفرى من الأزد أيضاً ، وإساءة القريب وخاصة صدور الإهانة والتعالى منه أشدُّ إيذاء للنفس مما لو صدرت من الغرباء ، كما يقول الشاعر العربى القديم .

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

ومهما يكن من شىء ، فقد تجمعت كل عوامل النقمة فى نفس الشنفرى(١) على بنى سلامان خاصة ، وبعد أن كان أمله الوحيد فى الحياة يبرق من خلال ديارهم سواء تمثل هذا الأمل فى شخص قمسوس ، أو فى أن يكون واحداً منهم ، له ما لأحدهم من كرامة وعزة ، بدل ذلك أصبح أمله الوحيد فى الحياة أن يشفى

---

(١) بعض الروايات تذكر أن بنى سلامان كانوا قد قتلوا والد الشنفرى فأصبح طالباً للثأر منهم .

الغليل المتأجج فى نفسه من أعدائه بنى سلامان ، وقد كان غليلا يشسع اللهب ، شفيع التأجج ، وما كانت لتطفئه مياه الأرض ، وإنما تطفئه دماء بنى سلامان ، ولن يطفئه اليسير أو الكثير من دمائهم ، وإنما تطفئه الأنهار المتدفقة من هذه المادة ، فما وعى التاريخ نقمة كانت أشد من نقمة الشنفرى على بنى سلامان ، فقد آلى على نفسه وألزمها أن يقتل منهم مائة نفس ، ولم يكن مجرد العدد أو القتل كل مظاهر النقمة ، وإنما المظهر الحقيقى أنه نذر حياته كلها ، وأفرغها من كل شىء إلا من حملته على بنى سلامان .

وأهمية هذه الأحداث وأماكنها ليست لذاتها ، وإنما لمدى تأثيرها فى نفس الشنفرى وحياته ، وإذا نظرنا من هذا الجانب نستطيع أن نرى غير قليل ولا يسير ، ويمكن الإلمام بهذه الآثار من الحيثيات الآتية :

١ — من حيث المكان :

فلاحظ أن البيئة التى نشأ فيها الشنفرى وكونت شخصيته كانت بيئة جبلية وعرة ، أهم ماتتميز به الجبال الشديدة الوعورة ، والصلابة والارتفاع ، وهى من حيث المناخ شديدة الحرارة فى الصيف ، شديدة البرودة فى ليالى الشتاء ، ولذلك نجد هذه الطبيعة واضحة فى شعره ليس عرضاً فى الحديث فحسب ، بل صلبا وأساساً يدور حوله الحديث ، من حيث معاناة الشنفرى من متاعب هذه البيئة ، ولو فى سياق إظهار انفراده بالمقدرة على مغالبة هذه الطبيعة الصعبة القاسية ، فقد تحدث كثيراً عن القنن(١) التى كان يتخذها مخابىء لنفسه ، وكائن لأعدائه ، وعن المراقب العنقاء(٢) التى كان يتسنم أعلى ذراها ، والتى لم يكن لغيره أن يبلغها ، وتحدث عن ندرة المياه وأسباب المعيشة والحياة فى هذه البيئة ، كما وصف المشارب(٣) المخوفة كداء البطن ، والزاد اليسير الذى تتنافس عليه ذئاب الصحراء ، وكذلك المناخ تحدث عنه الشنفرى

(١) القنن جمع قنة بضم القاف وهى أعلى الجبل .

(٢) المرقبة المرتفع من الجبل بحيث يستطيع مراقبة غيره منه والعنقاء طويلة العنق إشارة إلى شدة ارتفاعها .

(٣) المشارب : أماكن الشرب .

كثيراً بدقة شديدة ، كما وصف ليالى النحس(١) التى تدفع المرء من شدة بردها إلى تحطيم قوسه ليستدفىء بها ، وهو أحوج ما يكون إليها للدفاع عن حياته ، ووصف الحر الذى يذوب لوابه(٢) والذى يجعل الأفاعى تتململ من رمضائه . ونحو ذلك مما كان الشنفرى شديد البراعة والدقة فى تصويره من مظاهر البيئة وخصائصها .

وإذا كان من المسلم به أن للبيئة تأثيراً فى تكوين أبنائها وخاصة من النواحى النفسية ونزعات السلوك ، فمن اليسير أن نتصور مدى مساهمة هذه البيئة الصلبة الجافة القاحلة المتقلبة المناخ فى نفسية الشنفرى وسلوكه، فإن هذه الجوانب من صفات البيئة تكاد تكون هى الأسس التى تتكون منها شخصية الشنفرى .

وهناك جانب مهم من سمات بيئة الشنفرى ، وهو الهدوء والسكون الذى يخيم عليها ، ففى هذه البيئة يندر السكان ، وتندر الحياة ، وحينئذ نستطيع أن نتصور مدى السكون الشديد الذى يشعر به كل من يعيش فى هذا الفضاء الساكن الرحب ، فهو لا يتعود على الجلبة وصدور الأصوات ، ولذلك يكون شديد الإحساس بأى حركة ، لأن ذلك يكون شيئاً طارئاً غير مألوف ، بخلاف البيئة التى يكثر فيها الأحياء ، فإن الحركة والصوت يفقدان فيها إثارة الانتباه من كثرة تكرارهما على الأسماع ، ولذلك نجد الشنفرى شديد الإحساس بكل شىء مهما صغر ومهما ضعف ، وهناك أشياء كثيرة قد لايقف عندها تأمل ساكنى المجتمعات ، ولكنها عند صاحب هذه البيئة تثير كل إحساسه وتأمله ، كما أفاض الشنفرى بدقة بالغة فى وصف أشياء كثيرة من هذا القبيل كطنين النحل ، ورنين وتر القوس حين ينطلق منها السهم ، والصعاليك عامة يتميزون بهذا الإحساس على تفاوت بينهم فيه . ومن سمات البيئة ما تشتمل عليه من مصادر الخطر ، وهى مصادر غير قليلة

---

(١) النحس البرد الشديد .

(٢) اللواب بضم اللام ما ينتشر فى الفضاء مثل خيوط العنكبوت من شدة الحر .

ولا هينة ، وليس لها توقيت أو نظام معين يعين على تفاديها ، فمن ذلك الوحوش التى تألف مثل هذه البيئة ، ومنها الأفاعى ، ومثل هذه المخاطر يتوقع لقاؤها فى أى وقت وفى أى مكان من البيئة ، وليس لها أسلوب معين يمكن رصده حتى يستطاع تفادى خطرها .

هذا فضلا عن مخاطر البشر وخاصة من الأعداء ، وقد تحدث الشنفرى كثيراً عن هذه المخاطر وخاصة عن أعدائه المطالبين بثأرهم من جناياته عليهم ، حيث يصف نفسه بمثل قوله « طريد جنايات » ، وهذه المخاطر المتعددة ، والمتوقعة فى كل حين تستدعى من ساكن هذه البيئة وخاصة مثل الشنفرى أن يكون شديد اليقظة ، شديد الحذر ، وقد عرف الصعاليك بهذه اليقظة الغريبة العجيبة ، التى يعبر عنها تأبط شراً بهذا التعبير البالغ الجمال فيقول :

يقول بإحدى مقلتيه ويتقى   بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

وقد بلغ الشنفرى من شدة يقظته ، أن أصبح لديه ما يشبه الإحساس العفوى بالخطر ، فما إن يثور فى نفسه إحساس بالخطر حتى يجد الخطر حقيقة ، وما إن يوجد خطر قريب منه حتى يجد له صدى فى شعوره وإحساسه به ، وقد يطلق سهمه لمجرد الإحساس بأن فى هذا المكان خطراً فإذا به يصيب مصدراً حقيقيا للخطر .

وهذه العوامل كانت من الأسباب التى دفعت الشنفرى إلى حياة الصعلكة .

٢ — من حيث المجتمع :

من الواضح كما تتفق الروايات أن الشنفرى لم ينعم بالحياة الاجتماعية العادية ، وإنما وجد نفسه منذ صباه وحيداً مهيناً بين قوم غرباء ، فالروايات وإن لم تحدد السن التى أسر فيها إلا أنها تصرح بأنه كان حينئذ غلاماً صغيراً ، وهو الأمر الذى يستقيم مع طبيعة الأشياء ، فلو كان الشنفرى حينذاك رجلا أو شاباً مكتملا ، لكان ينتظر أن تظهر بعض مواهبه فى قومه فلا يفرطون فيه بسهولة ، أو لا يسكتون على فدائه ، ومن ناحية أخرى لم يكن هو ليؤسر بسهولة ، ولم يكن ليطيق أو يسكت على أسره وفى شخصيته من المقومات ما فيها .

وإذن فقد تجرع الشنفرى مرارة الاغتراب وألم العزلة الاجتماعية معاً منذ صباه الباكر ، وكما ألمحنا آنفاً كان يمكن أن يروض نفسه فى هذه السن المبكرة على هذه الحياة الجديدة على قسوتها ، وكان يمكن أن يألف الحياة فى بنى فهم مهما تكن صورتها ، وهو حينئذ صغير يمكن أن تصاغ شخصيته بأى لون ، ولكنه يفاجأ بتكرر الألم من جديد ، ولكن طعمه يومئذ أشد مرارة وإيلاماً ، فهو أكثر وعياً من ذى قبل ، وقد وعى حينئذ أنه ليس إلا سلعة يمكن أن يستبدل به أى شىء ، كما استبدل به بنو فهم أسيرهم الذى أسره بنو سلامان . ووعى حينئذ أن بنى فهم الذين أخذ يوطن نفسه على ألفتهم والانتماء إليهم بأى صورة من صور الانتماء لا يكنون له شيئاً مما يكنه لهم ، ولا يحرصون عليه كما يحرص عليهم ، وإذن فلا خير فيهم ، ولن يكون فى سادته الجدد خير، فقد يمكن أن يستبدلوا به شيئاً آخر كما استبدل به بنو فهم رجلهم ، ولن يكون فى الناس جميعاً حينئذ خير بالنسبة إليه .

وهكذا ينتقل الشنفرى إلى بنى سلامان بنفسية سيئة وظن بالناس أسوأ ، فيبدأ فى عد الأخطاء ، وإحصاء الإساءات ، وعندئذ سيجدها كثيرة لا تحصى ، فكل معاملة بنى سلامان ستكون سيئة ، لأنها معاملة السيد للعبد ، أو للخادم على أدنى الفروض ، بينما هو غير مقتنع بهذا الوضع ، فنفسه لا تشعر بالعبودية ، وإنما بالسيادة ، ولا تستسيغ الذل وهى ملأى بالشعور بالعزة ، ولئن كان حبه أو تطلعه إلى قعسوس قد وضع على بصره شيئاً من غشاوة ، وألقى فى نفسه قوة تعينه على الاحتمال ، فما كان هذا الاحتمال ليمضى إلى غير غاية ، ولذلك نجده ما إن انزاحت عنه غشاوة قعسوس حتى يستجمع فى نفسه كل مشاعرها الحقيقية ، يستجمع مشاعر السيادة والعزة التى تمتلىء بها نفسه فينطلق من فيه مثل قوله :

ولو علمت قعسوس أنساب والدى ووالدها ظلّت تقاصَرُ دونها
أنا ابن خيار الحُجْر بيتاً ومنصباً وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها

ويستجمع مشاعر النقمة على بنى سلامان وما تحمله منهم وما عاناه فى معاملتهم إياه ، فيحلف يمينه المشهورة أن يقتل من بنى سلامان مائة كاملة .

والذى يعنينا استخلاصه هنا من تأثير هذه البيئة على الشنفرى ، أنه وجد نفسه منذ عرفها وحيدا منبوذا مهينا فى مجتمع لا تربطه به رابطة قط ، إلا رابطة النقمة والكراهية إن كانت هذه تسمى رابطة ، وحينئذ لن يجد فى نفسه النقمة على بنى سلامان وحدهم ، وإنما على الناس جميعاً ، حيث كان الناس جميعاً بالنسبة إليه كذلك ، يتفاوتون فى السوء وليس فى الحسن ، فلم يجد فيهم حسناً ولا فضلا ، وقد كان بنو سلامان أشد الناس سوءاً عنده ، ولذلك كانوا أبغض الناس إليه .

وانعكست هذه النتيجة فى حياته وسلوكه ، فقد اتخذ من الصعلكة وقطع الطريق والغارات إعلاناً للحرب على الناس أجمعين ، ولكنه صب جوهر نقمته وحقده بتركيز بالغ الشدة على بنى سلامان ، يصيب كل ما يعرض له مما يملك الناس ، ويسطو على كل ما يمكن أن تصل إليه يده من متاعهم ، ولكنه يدخر مع ذلك صلب جهده وقوته ليصب جام نقمته على بنى سلامان أنفسهم ، وليس على متاعهم ، وهذه النتيجة هى التى استهل بها لاميته المشهورة ، مظهرا نقمته على الناس مصمما على هجرهم ، مفضلا صلته بالوحوش على اختلافها وبشاعتها على صلته بهم .

٣ — من حيث النفسية :

يتضح مما سبق أنه من الطبعى أن يصبح الشنفرى وقد امتلأت نفسه نفوراً من الناس ، ثم توجسا وحذراً ، ثم غضباً ونقمة ، وفى شىء من التفصيل نستطيع أن نلمح توضيحاً لذلك فيما يأتى :

(أ) بالإضافة إلى بعض ما سبق ، ونتيجة لبعضه أيضاً عاش الشنفرى محروما من كل عاطفة للقرابة أو الانتماء الاجتماعى أو الحب ، فأما الأقرباء فقد انتزع من بينهم وأصبح يتنقل بين أقوام لا تربطه بهم القرابة ، هذه الصلة التى تشعر صاحبها بمعان كثيرة من العزة والاحتماء والأمن والأنس وكثير غير ذلك ، ولكن الشنفرى لم يذق شيئاً من طعم هذه العواطف أو المعانى ؛ وأما الانتماء الاجتماعى فلم يقدر للشنفرى أن يحظى به على ضآلة شأنه ، فبعض الناس قد يكتب عليهم أن يعيشوا بعيداً عن منابتهم

وأقربائهم ، ولكنهم يجدون بديلا أو بعض البديل فى صلة ثابتة محددة بجماعة من الناس ، فى صورة حلف أو جوار أو صداقة أو اشتراك فى فى منفعة ، أو حتى فى وضع ضعيف ، كخادم أو عبد تتاح له حياة ثابتة محددة ، فيصبح جزءاً ولو ضعيفاً من حياة سادته ، يألفهم ويألفونه ، ويثق فيهم ويثقون فيه ، فيجد فى هذه الصلة عزاء وراحة فى نفسه ، وتصبح هذه الصلة انتماء اجتماعياً فينتسب إلى هؤلاء القوم راضياً مستريح النفس فى كثير من الأحيان ، على أنه خادم أو جار لهم أو نحو ذلك ، ولكن الشنفرى لم يحظ حتى بهذا الانتماء ، وقد يكون لذلك أكثر من سبب ، ولكن يكفى من بين هذه الأسباب ذلك السبب الذى أوجدته الظروف ، وهو افتداء بنى فهم لأسيرهم بالشنفرى ، وأما الحب فقد عوض للشنفرى وتراءى له كما تتراءى الأطياف والخيالات ، كما تشير الروايات فى صلته بقعسوس ، ولكنه يفاجأ بأنه لم يكن سوى سراب لم يجد فى نهايته إلا الخديعة والسخرية والهوان ، وهكذا أيضاً لم يقدر للشنفرى أن يحظى بهذه العاطفة التى تلين لها القلوب ، وترق من رزازها المشاعر ، والتى تهتز أمامها صلابة القلوب ، فتتفجر من خلالها ينابيع الرحمة ، ولو تصورنا قلب الشنفرى مغموراً بحب قعسوس ، لما تصونا هذا القلب يحمل لقومها كل هذا الحقد المتأجج مهما كانت عاقبة حبه لها وحبها له ، وإذن فقد عاش الشنفرى محروماً من كل أنواع العواطف التى تربط بين الناس والتى تستتبع أشياء كثيرة ، منها الإلف والمودة ، ومنها المجاملة واصطناع المعروف ، بل منها أحياناً التضحية فى سبيل الآخرين ، وحين حرم الشنفرى من هذه العواطف كلها ، لم يكن غريباً أن تخلو نفسه من كل هذه المعانى التى تتبع العواطف ، فلا يجد فى نفسه لأحد إلفاً ولا وداً ، فضلا عن أن يجد فيها تضحية أو فداء ، بل أخذ يعد على الناس أخطاءهم ، ويحسب عليهم هفواتهم ، وكان ذلك من دوافعه إلى حياة الصعلكة الرهيبة المروعة .

(ب) ولو ترك الشنفرى وشأنه ، فلم يعان ماعانى ، ولم تتوجه إليه صنوف الأذى وألوان الهوان ، لكان يمكن أن يطوى حرمانه العاطفى بين

جوانحه ، وأن يختزن آلامه في حناياه ، فلو تصورناه يعاني مجرد حرمانه العاطفي وهو موفور الكرامة مصون المشاعر ، لما كان من الحتم أن يتجه إلى الصعلكة ، ولكان من المحتمل أن يستفيد بمواهبه الواضحة في حياة ومسالك غير هذا المسلك الرهيب ، وحتى مع فقره أو حرمانه من المعين على وسائل العيش ، كان لا يعدم وسيلة للعيش الرخي الهادىء ، وتكفيه موهبته الشعرية التي كانت ولا زالت تثير الإعجاب والإكبار . ولكن توالي الأسر عليه ، وتكرر صور الهوان ، وكونه أسيراً محتجزاً بين قوم تنكرهم نفسه كل الإنكار ، كل ذلك لم يكن ليخرجه منه إلا أن يسلك مسلكا رهيباً مخيفاً كحياة الصعلكة .

(ح) وبعد هذا كله فإن من الأسباب الأساسية في لجوئه إلى الصعلكة أن تكوينه النفسي والجسمي كان مهيئاً لها ، فليس كل شخص مهما تداعت عليه الظروف الاجتماعية أو النفسية يصلح أن يكون صعلوكا ، فالصعلكة في معناها العرفي البسيط الموجز هي اللصوصية ، واللصوصية وخاصة العنيفة منها كالنهب والغزو وقطع الطريق كانت ولا زالت تحتاج إلى مقومات معينة في مزاوليها ، وقد اكتملت هذه المقومات في الشنفرى إلى اقصى ما يحتاجه صعلوك ، وإلى أقصى ما تحتاجه حياة الصعاليك ، كما سيأتي فيما يستقبل من الحديث ، وعلى سبيل المثال ، لو لم يكن يشعر أن في وسعه أن يفعل ، لما استطاع أن يهدد قبيلة كاملة ، وأن يتحداها على مرأى ومسمع منها ومن الناس ، وأن يكون بمفرده خطراً على هذه القبيلة وعلى غيرها من الناس .

ومع هذا كله فقد كان الشنفرى بائساً لا يملك شيئاً ، ومن أين يتاح لأسير مثله أن يملك شيئاً ؟ وحتى بعد أن استطاع أن يفلت من بني سلامان ، كيف يتاح له أن يملك شيئاً أو ينمي شيئاً وهو طريد مشرد ، لا يستطيع أن يستقر في مكان ، بل ولا يستطيع أن يظهر في مكان فبالإضافة إلى سلاحه كان جل جهازه نعليه الباليتين كما يقول :

قليل جهازى غير نعلين أسحقت   صدورهما مخصورة لا تُخصَّفُ(١)

وإذن فقد تجمعت حول الشنفرى ، وفى شخصه ، ليس مجرد عوامل تهيئه للصعلكة فحسب ، وإنما تجمعت أنسب العوامل وأقواها ، ولذلك كان هو من أقوى الصعاليك وأقدرهم على حياتها ، تجمعت أنسب العوامل فى المكان من حيث البيئة الجبلية التى أشرنا إليها ، وفى المجتمع من حيث الظروف والأحوال التى تقلبت على الشنفرى وعانى منها ، وفى شخصه هو من حيث استعداده وتكوينه ، وامتلاكه لأقوى مقومات الصعلكة .

(١) أسحقت : بليت ، مخصورة : دقيقة عند الوسط ، لا تخصف لا تقبل الترقيع والإصلاح .

الصعلكة والبيئة

حيث كانت أبرز صفات الشنفرى أنه صعلوك ، فلابد أن نلم بشيء من التوضيح لهذه الصفة ، ولحياة أصحابها ، فإن أي حديث عن الشنفرى مهما كان وافياً لذاته ، لا يظهر القارىء العادي على أهم جوانب حياته ، وعلى الصراع الرهيب الذي ظل يلاطمه ويعيش في خضمه مالم تكن لديه صورة عن الصعاليك وحياتهم . ذلك أن الشنفرى بوصفه صعلوكا يشترك مع سائر الصعاليك في صفات معينة ، قد يتفاوتون فيها ، ولكن لابد لكل واحد منهم أن يتصف بقسط غير يسير منها ، وتكون النتيجة أننا حين نفهم : من الصعاليك ؟ وما خصائصهم ؟ وبم تتميز حياتهم ؟ نكون قد فهمنا تلقائيا الشيء الكثير عن الشنفرى ، وليس من السهل ، وليس من الدقة العلمية أيضاً أن نفهم هذه الجوانب منسوبة إلى الشنفرى وحده ، فإنها جوانب وصفات لا تخص الشنفرى وحده ، وإنما هي صفات طائفية أو مهنية ، قد يتفوق الشنفرى فيها على أبناء مهنته ، ولكنه بصفة عامة فرد من هذه الطائفة . طائفة الصعاليك .

والصعاليك طائفة من الناس لا يجمعهم نسب ، ولا زمان ولا مكان ، وإنما جمعتهم وحدة الظروف ، ووحدة الوسيلة لمقاومة هذه الظروف ، فكل من جمعتهم ظروف الصعلكة لابد أن تجمعهم صفات معينة تتطلبها الصعلكة ، ولابد أن يشتركوا في حياة معينة فيها كثير من التشابه ، هي حياة الصعلكة .

والعرف الاجتماعي في العصور المتأخرة أوجد لبساً وغموضاً في فهم الناس للصعلكة بمعناها الأصلي ، فأصبحت صفة الصعلوك يفهم منها معنى التشرد أو التفاهة أو نحو ذلك ، وهو خطأ فاحش من زاوية معينة ، هي أن هذا اللفظ له وضع وعرف معين في الحياة العربية وفي التاريخ العربي ، وخاصة التاريخ الأدبي .

وإذا أردنا شيئاً من الإيضاح إجابة عن الأسئلة السابقة حول الصعلكة نقول :

الصعلكة والصعاليك :

لفظ الصعلكة يطلق فى اللغة على الفقر ، ولكن الطريف الذى يبدو كأنه تناقض أو تباعد ، أننا حين نسأل اللغة عن المتصف بالصعلكة لا تقول إنه الفقير ، ولكننا نجده صاحب شىء يشبه المهنة أو الحرفة وهى الصعلكة نفسها ، وحينئذ لا تكون الصعلكة دالة على الفقر ، وإنما على اللصوصية وقطع الطريق ، وسائر أساليب السلوك العدوانى الذى يهدف إلى المغنم .

ويمكن أن نفهم هـــذا التباعد فى الدلالتين على أن لفظ الصعلكة يدل أصلا فى اللغة على الفقر والحاجة ، وهذه الحاجة دفعت بعض أصحابها من ذوى الصفات المعينة إلى العدوان على النـاس لسلبهم ما يملكون ، وأصبح الذين يزاولون هذا السلوك يعرفون فى عرف المجتمع العربى القديم بالصعاليك ، وإذن فهناك استعمال لغوى للصعلكة وهو الفقر ، واستعمال عرفى وهو اللصوصية باعتبار أن الدافع لها أصلا هو الفقر ، والاستعمالان متقاربان ، حيث لا ينقصهما إلا أن الخيط الذى يربط بينهما مقطوع أو غير واضح ، وهو أن الفقر سبب أساسى فى مزاولة الصعلكة ، وهى حقيقة من واقع المجتمع العربى القديم .

وإذن فقد استقر العرف العربى منذ الجاهلية على أن الصعلكة هى اللصوصية ، والصعاليك هم محترفو اللصوصية ، وتحديد الاحتراف للإشارة كما سيأتى وشيكا إلى أن الصعلكة دخل فيها عدد كبير من العرب ومن زعمائهم ولم يوصفوا بأنهم صعاليك ، لأنهم زاولوا بعض أساليب اللصوصية ، ولكنهم لم يحترفوها .

واللصوصية فى الجاهلية التى عاش فيها الشنفرى لم تكن أسلوباً معيناً أو صورة محددة ، وإنما كانت صوراً متعددة ، وأبرزها وأخطرها الغارات ، وقطع الطريق ، والغارات كانت صورتها أن تحدث غارة على مكان معين ، سواء كان المغار عليهم جماعة صغيرة أو قبيلة ، ويندر أن يكون بيتاً مفرداً ، حيث لم يكن من المتاح لفرد فى مثل هذه البيئة أن يقيم وحده فيستطيع حماية نفسه ، إلا فى حالات نادرة .

وأما المغيرون فقد يكونون أيضاً قبيلة أو جماعة صغيرة ذات قوة خاصة ،

ويندر أن يكون المغير فرداً كما كان يفعل الشنفرى ، فإن الفرد حينئذ يجب أن يكون متمتعاً بجوانب من القوة غير العادية ، كما كان الشنفرى .

والهدف من الغارات كان يتمثل غالباً فى أمرين ، أحدهما الثأر ، بأن تكون قبيلة أو جماعة موتورة من قبيلة أخرى ، فتنتهز الفرصة وتغير عليها انتقاما لنفسها ، وفى أكثر حالات هذه الصورة يكون الهدف السلب والنهب لكل ما يمكن حمله ونقله من أملاك القبيلة المغار عليها ومن أشخاصها وخاصة النساء ، وقد لاتسفر الغارة عن أى حالة قتل ، فإن هدف المغيرين حينئذ السلب ، ولا يلجأون إلى القتل إلا إذا قاومهم المغار عليهم وتعرضوا لهم ، إما إذا استسلموا أو لم يتمكنوا من المقاومة كأن تكون الغارة مفاجئة لهم وهم ينام كما كان يحدث غالباً ، فإن المغيرين حينئذ ليس من مصلحتهم أن يقتلوا أحداً فيطالبوا بدمه ، إلا إذا كان الهدف الأساسى من الغارة الانتقام والثأر لدماء معينة، فن الواضح حينئذ أن الغارة تستهدف القتل، ولكنها أيضاً تجعل من أهدافها الأساسية السلب والنهب ، إضعافا وإذلالا لعدوهم من ناحية ، وتحقيقاً لمكاسب ومغانم ونوع من الأجر والإغراء لأفراد المغيرين .

والهدف الثانى أو النوع الثانى من الغارات ، لم تكن غايته انتقاماً ، وإنما كان السلب لذاته ، وكان يزاوله نوعان من المجتمع ، نوع يأنس فى نفســـه القوة التى يتفوق بها على غيره ، فتدفعه هذه القوة إلى البغى على من حوله ، فى الوقت الذى يكون لديه شىء من اطمئنان إلى قوته ، وأن عدوه لن يستطيع رد الغارة ، وإذا فعل ، فإنه قادر على دحر هذا العدو ، ومعاودة الغارة من جديد . وقد يكون هؤلاء الأقوياء قبيلة معتدة بنفسها ، وقد يكونون جماعة صغيرة أو كبيرة ، وقد تتمثل هذه الحالة فى زعيم أو سيد ، يدفعه شعور القوة والبغى إلى أن يكون من حوله جماعة يستغلها فى الغارات والسطو فى صورة من صور اللصوصية ولكنها غير دائمة، ولا تتخذ صورة المهنة .

والنوع الثانى من المغيرين الذين يعنيهم هذا الحديث هم الصعاليك .وهم عصابات كانت منتشرة فى أرجاء الجزيرة العربية ، تتفاوت قوة وضعفاً ، وشهرة وخمول ذكر، وقد فرغت نفسها للسطو والسلب والنهب ، وهم يمثلون أيضاً الوجه الآخر أو النوع

الثانى من اللصوصية وهو قطع الطريق وينبغى أن نقف قليلا عند هاتين النقطتين ، وهما اتصال بعض العرب وبعض زعمائهم بالغارات التى لا تستهدف إلا السطو والسلب ، وكذلك اتصال الصعاليك بها ، فنقول إن مظهر السطو وإن كان واضحاً أنه من صور اللصوصية إلا أنه لم يكن فى المجتمع الجاهلى قاصراً على الصعاليك ، بل عم المجتمع حتى ساهم فيه كثير غير الصعاليك ، بل ساهم فيه أعلام من سادة العرب ومشهوريهم ، منهم دريد بن الصمة وعامر بن الطفيل وعمرو بن معد يكرب ، بل وتذكر الروايات منهم امرأ القيس والنابغة الذبيانى الشاعرين المشهورين ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يعد واحداً من مثل هؤلاء بين اللصوص وهم الصعاليك مع أن الفارق بينهم وبين اللصوص من حيث السطو والنهب شىء واحد ، هو أن الصعاليك اتخذوا من اللصوصية حرفة أو عملا دائماً ، بينما زاولها هؤلاء السادة وغيرهم فى بعض الأحيان وفى بعض الظروف .

ولكننا نستنتج من ذلك معنى ذا أهمية كبيرة فيما يتعلق بموضوع الحديث ، وهو أن أعمال اللصوصية أو بعضها على الأقل لم تكن غريبة فى المجتمع العربى قبل الإسلام ، وبالتالى لم يكن الصعاليك وهم مزاولو هذه الأعمال فى موضع الغرابة أو الإنكار فى هذا المجتمع ، وهى حقيقة ليست بعيدة عن الواقع والتاريخ ، فالواقع أن المجتمع الجاهلى شاعت فيه أساليب السطو التى كانت تسمى الغارات ، حتى كاد يلتبس فيها اللصوص بالسادة ، وحتى لم تعد هذه الأساليب غريبة أو منكرة ، وكيف تكون موضع الإنكار والذين بيدهم الإنكار هم السادة والأقوياء ، وبعض هؤلاء يزاولون هذه الأساليب ؟ ولذلك لم تحدثنا الروايات أن مجمعاً من مجامع العرب أو محافلهم كدار الندوة فى مكة ، أو سوق عكاظ قد تعرض لهذه الظاهرة أو أبدى إنكاراً لها مع أن هذه المجامع كانت تضم ذوى الرأى والمكانة والفكر من الذين يملكون أن يناقشوا الأمور العامة وأن يوجهوا وأن يأمروا فيطاعوا ، وإذا لم يطاعوا فى غير قبائلهم فلا أقل من أن يكون لرأيهم وتوجيههم دوى فى الجزيرة كلها ، ومع ذلك لم يناقشوا ظاهرة الصعلكة على خطورتها ، فى حين نجدهم قد ناقشوا بعض الأمور والظواهر العامة الأخرى .

وقد يقال إن ظاهرة الصعلكة بلغت من التفشى والسيطرة فى الجاهلية حداً يجعل

من العسير على أى قوة حينذاك أن تقاومها فضلا عن أن تقضى عليها ، وهو قول ليس بعيداً عن الصواب ، حيث إن ظاهرة الصعلكة لم تكن حينئذ دخيلة على المجتمع أو شاذة فيه ، أو خارجة على ما تقتضيه حياة المجتمع وأحواله . وإنما كانت على العكس نابعة من صميم أحـــوال المجتمع ، ومن أبرز هذه الأحوال التى كانت شبه أسباب أدت إلى تفشى ظاهرة الصعلكة ما يأتى .

١ — ضيق الموارد المعيشية ، فى بيئة صحراوية ، وسائل العيش فيها يسيرة محدودة ، لا تفى بحاجة السكان ، فضلا عن أن هذه الموارد غير ثابتة ولا منتظمة ، فاذا كانت أهم الموارد الرعى الذى تعيش عليه الماشية ، فيعيش الناس على ألبانها ولحومها للغذاء ، وعلى أصوافها وأوبارها للكساء ، إذا كان الرعى أهم الموارد ، فإنه غير ثابت ولا منتظم ، وإنما هو رهين قطرات المطر ، يترعرع حين تجود ، ويذبل حين تمسك ، وينعدم حين تقلع .

٢ — هذه الموارد على قلتها غير متاحة للجميع ، بل لم يكن يشعر أفراد المجتمع أنها موارد عامة ، رغم أن بعضها هابط من السماء ، والبعض الآخر نابت من الأرض ، بل حولها نظام الحياة الجاهلية إلى ما يشبه الملكية الخاصة ، فلم تكن المراعى فى كثير من المناطق متاحة للجميع ، وإنما هى وقف على بعض الناس من ذوى القوة والبطش الشديد ، وإذا أتيحت المراعى ، فإن الماشية أيضاً غير متاحة للجميع ، وإنما تدور ملكيتها أيضاً فى فلك القوة والبطش الشديد .

وترتب على هذا الوضع أن أصبح المالكون لكل شىء أفراداً يكادون يعدون على الأصابع فى كل منطقة أو كل قبيلة ، وأما سائر الناس فلا يكادون يملكون أو يجدون شيئاً ، وكلما مرت الأيام ازداد المالكون تملكا ، وازداد المحتاجون حاجة وبؤساً .

٣ — لم تكن فى المجتمع الجاهلى سلطة عامة تملك أن ترفض نظماً أو تقاوم نظماً ، فلم تكن هناك مثلا حكومة أو دولة تحدد لنفسها نظاماً دستورياً أو معيشياً تعمل على حمايته ، وإنما كانت القوى محلية مبعثرة ، تتمثل فى القبائل ، حيث تحاول

كل قبيلة أن تحشد كل قواها لحماية نفسها ووسائل معيشتها من مغالبة الآخرين وطغيانهم ، حتى أصبحت قوة القبائل الدفة التى تسير الحياة الاجتماعية ، وتحدد وضع كل قبيلة وصلتها بالآخرين ، ولو تصورنا وجود هذه السلطة العامة لكان من المتصور أيضاً أن تقضى هذه السلطة على ظاهرة الصعلكة أو تقاومها على أيسر الفروض .

٤ — طبيعة الأرض فى الجزيرة العربية تعتبر ظرفا مساعداً ومهيئا لظهور الصعلكة وتغلغلها ، من حيث إنها أرض جبلية واسعة ، كثيرة المسالك والمخابىء ، جبالها وعرة المراقى ، فضلا عما تتميز به البيئة كلها من ندرة المياه الدائمة . وصعوبة الحر والبرد فيها ، وكل هذا يتيح للصعلوك قدراً كبيراً من الأمن على نفسه من أعدائه ومطارديه ، ويجعله يقدم على ما يقدم عليه ، وأمامه وفى نفسه كيف ينجو وكيف يتحصن من الذين يطلبونه ويتعقبونه .

٥ — من الواضح أن الأسلوب الذى تزاول به الصعلكة هو العنف والبطش وسائر أساليب القوة ، والقوة كانت حينئذ محور الحياة وأهم ميدان للتنافس سواء بين الأفراد أو القبائل ، ومقدار نصيب الفرد أو الجماعة من القوة يحدد بالنسبة إليه كل شىء ، كرامته وحقوقه وصلاته ، وشيئا أوضح من هذا كله وهو وسائل الحياة نفسها ، فإن نصيب كل قبيلة من المياه ومن المراعى كان يتحدد بمقدار قوتها وغلبتها للآخرين وكذلك الأفراد داخل القبيلة الواحدة ، كانت القوة غالباً ماتحدد للفرد أو تساعد على تحديد نصيبه من الملكية ومن أسباب الحياة ، وإذا بلغ الواحد منهم درجة من القوة تصعب مقاومتها فإنه يخص نفسه بكل ما يريد ، كما كان يفعل السادة وزعماء القبائل حين يجعل الواحد منهم لنفسه مرعى أو عدداً من المراعى يسمى حمى لا يجوز لأحد قط أن يرعى فيه أو ينتهك حرمته ، كما فعل كليب بن ربيعة زعيم تغلب حيث جعل لنفسه حمى لا يدخله راكب ولا راجل ، بل بلغ به الأمر أن حرمه على السوائم إذلالا للناس وإلزاما لهم أن يرهبوا حماه ، ومن المشهور أن الحرب التى استمرت نحو أربعين سنة بين بنى تغلب وبنى بكر كانت بسبب دخول ناقة غريبة إلى حمى كليب ، وكانت ناقة امرأة تدعى البسوس ، سميت الحرب كلها باسمها .

ويعنينا من هذا كله أن القوة كانت وما زالت — مع اختلاف صورها وأساليبها — تحدد كل شيء بالنسبة للفرد وللجماعة ، وحيث لم تكن هناك حينئذ سلطة عامة أو تشريع محدد ، فقد انحصرت القوة فى أساليب العنف والبطش ، وأصبحت هذه الأساليب هى محور التنافس سواء بين الأفراد والجماعات ، وكانت أساليب الصعلكة من أبرز هذه الأساليب، وأكثرها تحقيقاً للغاية التى يتنافس المجتمع فى بلوغها ، وقد نتج عن ذلك أمران ، أحدهما أن أصبح فى الصعلكة وأساليبها إغراء لبعض الناس فى الاندفاع إليها ، والآخر أن الصعلكة لم تكن شاذة أو غريبة أو موضع إنكار المجتمع ، بل كانت على العكس فى مكان أقرب إلى الإعجاب منه إلى الإنكار ، ومن البدهى أنه لاينبغى أن يفهم من ذلك أن اللصوصية لذاتها كانت موضع الإعجاب أو الرضا . فذلك مالا يتصور فى مجتمع قط ، قديم أو حديث ، فإن المجتمعات مهما بلغت من البداوة لابد أن يكون لها عرف يشبه القانون ، ينظم حياتها ولو فى أدنى الدرجات ، أو أيسر الجوانب ، واللصوصية منكرة فى عرف كل المجتمعات ، ولكن موضع الإعجاب فى الصعلكة هو الغاية ، وليس الوسيلة ، فالغاية هى القوة والتمكن من الغير أو النيل منه ، ولئن كانت الأساليب منكرة أو بغيضة فإن الغاية تبررها أو تجعل المجتمع يغضى عن الإنكار عليها ، وهو بطبيعة الحال منطق جاهلى ، لايقره تشريع أو مظهر حضارى .

النتيجـــة :

ترتب على هذه العوامل وغيرها أن سيطرت الصعلكة على حياة المجتمع الجاهلى ، ونشرت الخوف والحذر فى كل أرجائه ، فالغارات وقطع الطريق أصبحا شيئا شبه مألوف ، لا يرى فيه أحد غرابة ، وكل جماعة إما مغيرة أو مغار عليها ، أو مستعدة لإحداهما ، وإذا خرجت على أحد هذه الاحتمالات فلن تستطيع الحياة بل ولاتصلح حينئذ للحياة ، وكل جماعة أو قافلة تسلك طريقاً ، فلابد أن تتوقع هجمة من قطاع الطريق ، خاصة إذا كانت تسلك بعض المناطق المشهورة بصعاليكها ، كمناطق هذيل والأزد فيما بين مكة والمدينة ، ومناطق اليمامة وشمال الجزيرة حيث يتنقل بعض الأحياء من قبيلة بنى تميم ، وإذا كان تعرض قطاع الطريق متوقعاً أو مرجحاً فى كل

أنحاء الجزيرة ، فإنه فى هذه المناطق يكاد يكون مؤكدا ، وعلى كل قافلة أو جماعة تسلكها أن تهيء نفسها لذلك ، ولهذا كانت تعمد القوافل إلى دفع مايشبه الجزية أو الضريبة إلى زعماء قبائل هذه المناطق ، مقابل ضمانهم حماية القافلة حتى تجتاز منطقتهم .

ومما يدل على انتشار أساليب الصعلكة وخطورتها ، وأنها أصبحت مصدر قلق وخوف يسيطر على المجتمع كله ، أن التشريع الإسلامى أولاها اهتماما خاصا ، حيث جعل لقطع الطريق أحكاما خاصة تتميز بالتخويف والترهيب الشديد ، كقوله تعالى فى شأن قطاع الطرق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض ذلك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(١) . فهذه الأحكام خاصة بقطاع الطريق بالذات ، وواضح فيها إطلاق يد السلطة فى علاج هذه الظاهرة بأى وسيلة وأى صورة ، وهذا الإطلاق غير مألوف بهذه الصورة فى التشريع الإسلامى ، وإنما المألوف أن الجرائم المحددة لها عقوبات محددة ، لا يملك ولى الأمر أن يتجاوزها ، ولكننا نجده فى حالة قطع الطريق يطلق يده بين عدة عقوبات تتفاوت بين القسوة واللين النسبى ، ليستطيع أن يجد لكل حالة علاجا ملائماً ، ولكنه يفهم فى كل الأحوال أن التشريع مصمم على القضاء على هذه الظاهرة مهما كانت الوسيلة المشروعة .

ومن الأدلة على خطورة ظاهرة الصعلكة فى المجتمع الجاهلى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان من أوائل ما بشر به الناس ليغريهم بالدخول فى الإسلام أن وعدهم بأن هذا الدين سيحقق لهم الأمن فى الطريق حيث يقول فى بداية دعوته « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » ومعنى هذا أن أمن الطريق كان حينئذ مفقودا ، وأن

---

(١) الآية ٢٣ من سورة المائدة .

لفقده كان خطيراً مهدداً للناس ، وأن عودته أمنية بعيدة المنال تستدعى منهم الجهد والتضحية .

وفى سياق آخر يمن الله سبحانه على قريش أن خصهم بأعظم ميزة يفتقدها الناس ، وهى الأمن ، بينما الناس من حولهم فى كل الجزيرة يتخطف بعضهم بعضاً فى الطرقات وخير الطرقات فيقول سبحانه « أو لم يروا أنا جعلنا حَرماً آمنا ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حولهم ... »[1] وكذلك يقول تبارك وتعالى : « أو لم نُمَكِّن لهم حَرماً آمِناً يُجْبَى إليه ثمرات كل شىء »[2] .

وهناك نقطة هامة ينبغى أن تكون واضحة ، وهى أنه ليس معنى ذلك أن المجتمع الجاهلى وحده هو الذى عرف الصعلكة ، فإن الصعلكة بمعناها العرفى الذى نتحدث عنه وهو اللصوصية مهما كانت أساليبها ، ليست وقفا على مجتمع دون آخر ، بل لابد أن توجد فى كل مجتمع وكل عصر ، مهما كان نصيبه من الحضارة ، ومن وسائل المعيشة ، ولكن الفارق أنها فى المجتمعات التى لا تتوافر فيها دواعى الصعلكة تكون فى حدود الحالات الفردية أو الشذوذ الواضح فى المجتمع ، أما حين تتوافر دواعيها فإنها تصبح ظاهرة عامة ، والفرق كبير بين الظواهر العامة والشذوذ الفردى ، وقد اجتمع الأمران فى المجمع العربى نفسه ، حيث كانت الصعلكة فى الجاهلية ظاهرة عامه ، ثم أصبحت بعد الإسلام فى نطاق الشذوذ الفردى الذى تأبى سنة الحياة إلا أن تتمسك به فى كل وضع ، بل وفى كل قاعدة .

وفى مناسبة الحديث عن قريش تبدو ملاحظة من حق ملاحظها أن يقف عندها ، وهى أن قريشا هى القبيلة الوحيدة التى لم ترد أخبار أن أحداً منها قد احترف الصعلكة سواء فى الجاهلية أو الإسلام ، مع أنها جزء من المجتمع العربى ، وبيئتها

---

(١) من الآية ٦٧ فى سورة العنكبوت .

(٢) من الآية ٥٧ فى سورة القصص .

أيضا جزء من البيئة العربية ، وقد كان ذلك يستدعى أن تكون قريش كغيرها من القبائل ، فيها من الصعاليك ما فى غيرها .

وللإجابة عن ذلك نقول إن هذه الوجهة صحيحة من الناحية النظرية والمنطقية ، ومن المؤكد أن قريشاً كانت ستشارك سائر القبائل فى حصولها على نصيبها من الصعلكة والصعاليك ، لولا أن دواعى الصعلكة لدى قريش اختلفت عنها لدى سائر القبائل العربية ، أو بمعنى أدق كانت قريش من حيث هـــذه الدواعى فى وضع مختلف عن سائر القبائل .

فأما من حيث الفقر وجدب الموارد الذى كان من دواعى الصعلكة ، فإن قريشا وإن كانت تشارك البيئة فى هذا إلا أنها استطاعت أن تقاوم هذا الجدب وهذه الحاجة بالنزعة التجارية التى عرفت بها قريش وكادت تستأثر بها دون العرب ، فقد فقد كانت لهم قوافل ورحلات تجارية مشهورة فى الصيف وفى الشتاء إلى أطراف الجزيرة جنوباً وإلى خارجها شمالا ، بالإضافة إلى رحـــلات وقوافل داخلية غير منتظمة وغير مرتبطة بأزمان محددة ، هذا مع التبادل والرواج التجارى الذى يغمرها به موسم الحج من كل عام ، وكل ذلك جعل قريشاً فى وضع اقتصادى ممتاز بالنسبة لسائر القبائل ، وبذلك استطاعت أن تتخلص أو تقاوم أحد العوامل الأساسية فى بروز ظاهرة الصعلكة .

وأما من حيث السلطة العامة التى كان انعدامها فى الجزيرة العربية من دواعى انتشار الصعلكة ، فإن قريشاً أيضاً قد استطاعت أن تسد هذا الفراغ أو جانباً كبيراً منه بدار الندوة التى كانت تشبه فى مكة ما يعرف اليوم بالمجالس النيابية وكانت تضم ممثلين عن جميع بطون قريش وأحيائها ، وقد التزموا أن يكون هؤلاء من من سادة القوم الذين يملكون التأثير وبيدهم مقاليد الأمور ، وهم عادة من كبار السن ولم يكن يسمح لمن دون هؤلاء أن يحظى بعضوية دار الندوة ، ولذلك كان حدثاً يلفت النظر أن قوة شخصية أبى جهل بن هشام أتاحت له أن يدخل دار الندوة ولم يطر شاربه ، ويعنينا من حديث دار الندوة أنها كانت تمثل السلطة التشريعية العامة

فى قريش ، وتمثل أيضاً شيئاً من القوة التنفيذية العامة ، بحيث كان معلوما لقريش كلها أفراداً وجماعات أن أى شذوذ أو منكر يأباه العرف سيكون موضع بحث وتعقيب فى دار الندوة ، ولم يكن أحد منهم فرداً أو جماعة يقبل أو يستطيع أن يتعرض لإنكار القبيلة كلها ، فضلا عما تصبه عليه من عقوبات .

وأما من حيث القوة التى كانت القبائل تتنافس فيها . لتحقق كل قبيلة لنفسها الأمن بقدر المستطاع أولا ، ولتهديد غيرها وإخضاعه ثانياً ، والتى جعلتهم يغضون عن سلوك صعاليكهم إن لم يشجعوهم فى سبيل مساهمة هؤلاء الصعاليك فى تحقيق القوة للقبيلة وفى اخضاع غيرهم لهم ، تقول إن قريشا لم تكن فى حاجة إلى هذه الوسائل لتحقيق القوة لنفسها ، فقد هيأ الله لها هذه القوة دون اضطرار إلى الوسائل الملتوية، وإذا كانت القبائل تنشد القوة لتحقق لنفسها الأمن ، فان وجود قريش فى الحرم الآمن يحقق لها من الأمن مالا تحققه أى قوة مهما عظمت ، ولذلك مَنّ الله عليهم بذلك حيث يقول سبحانه « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » . وإذا كانت القبائل تتنافس فى القوة لتحاول كل قبيلة إخضاع جيرانها أو بعضهم لها ، فإن الله قد هيأ لقريش خضوع العرب جميعاً لها ، فإنه وإن كان هذا الخضوع أقرب إلى الإجلال والهيبة منه إلى الاستسلام والخضوع للقوة ، إلا أنه فى كل الأحوال يحقق لقريش كل ما تبغيه من احترام العرب جميعاً لها ، واجلالهم إياها بسبب البيت الحرام الذى وكل إليهم أمره ، والذى يأوى إليه العرب حاجين ومنتفعين ، ويشعرون دائما بأنهم مرتبطون بمكة ، وبالتالى فإنهم مضطرون إلى مصانعة قريش وحسن الصلة بها .

وحين اجتمعت لقريش هذه العوامل كلها ، لم تكن فى حاجة إلى الصعلكة ، بل لم تكن الصعلكة تناسب مكانتها الأدبية والدينية فى العرب .

ولكن قريشا استأثرت دون العرب بهذه المزايا ، وأما سائر القبائل فقد تجمعت لديها عوامل كثيرة منها دواعى الصعلكة التى استحكمت لدرجة أفقدتها شذوذها

وغرابتها ، وجعلت المجتمع لا يكاد يرى فيها منكراً أو مايدعو إلى الإنكار ، بل ربما وجدوا فيها ما يدعوهم إلى الرضا ، بل وربما زاولها كثير منهم سواء من العامة أو السادة فى بعض الأحيان ، كما تحدثت بذلك روايات كثيرة ، بل بلغ بهم الأمر أن تناقلوا بعض الحكم التى تجعل من الصعلكة مصـــدراً للقوة والعزة والتنافس ، كقولهم فى بعض الحكم الجاهلية المشهورة « ما خلا قوم من السفهاء إلا ذلوا » .

وكقولهم أيضاً « كل صعلوك جواد » .

الصعاليك والمجتمع

ولكن الدرجة التى انتهينا إليها من الحديث السابق لا تكفى لبيان حقيقة الصعاليك ومكانهم فى المجتمع الجاهلى ، فإذا كنا قد انتهينا إلى أن ظروف البيئة وطبيعتها قد أتاحت للصعلكة أن تنتشر حتى تصبح ظاهرة عامة ، وجعلت بعض أبناء القبائل حتى السادة منهم يزاولون بعض أساليب الصعلكة فى كثير من الأحيان ، فقد بقى أن نعرف كيف كانت نظرة المجتمع حينذاك إلى طائفة الصعاليك ، ومدى حكمه على أشخاصهم ؟ وحينئذ نكون قد ألقينا ضوءاً غير خافت على شخصية الشنفرى ، وعلى مكانه فى نفوس مجتمعه ، باعتباره شخصاً متميزاً من هذه الطائفة .

وللإجابة عن ذلك نقول : ليس من شك فى أن الصعلكة بهذا المعنى لا يتصور أن تحظى لذاتها أو من حيث هى بتقدير أى مجتمع أو رضاه ، ومع ذلك فصعاليك المجتمع الجاهلى قد فرضوا على مجتمعهم أن ينظر إليهم بقدر كبير من الرضا ومن التقدير والإعجاب ، بل لم تقتصر هذه النظرة الراضية على مجتمعهم فحسب ، وإنما حظوا بها فى مجتمعات وعصور كثيرة متلاحقة ، بل إن بعضهم حظى بتقدير من يعتز برأيه وتقديره من أعلام المسلمين وأئمتهم كعروة بن الورد .

ولم يكن ذلك بطبيعة الحال من أجل الصعلكة نفسها ، وإنما لأسباب أحاطت بها حينذاك ، وحين نذهب لاستعراض هذه الأسباب يمكن أن نلمح من أبرزها ما يأتى :

١ — التكوين النفسى

هناك معنى ذو أهمية كبيرة بالنسبة لصعاليك الجاهلية بالذات ، وهو أن دافعهم الأساسى إلى الصعلكة لم يكن نزعة الشر ، وإنما كان الفقر والحاجة الملحة ، ولذلك كان المعنى اللغوى للصعلكة هو الفقر كما سبق .

والفرق كبير بين من يحترف اللصوصية بدافع الشر ، ومن يحترفها تحت ظروف الحاجة ودواعى الظروف الاجتماعية ، فالذى يترتب على ذلك أن صعاليك الجاهلية ،

أو بعضهم على الأقل فيهم طبيعة الخــير ، كما فى غيرهم ، وهذه الطبيعة تدفعهم — كما حدث فعلا — إلى مواقف من البر والخير تكسبهم احترام المجتمع ، وتضفى على الطائفة كلها شيئاً من هذا التقدير ، أو تقلل من تخط الساخطين عليها فى أيسر الفروض .

وحين نقارن بناء على ذلك بين لصوص الجاهلية ولصوص المجتمعات الأخرى نجد اختلافاً واضحاً بينهما ، فلصوص الجاهلية كغيرهم من الطوائف والمجتمعات فيهم الخير وفيهم الشرير ، وهذا حكم يسرى على الناس جميعاً فى كل مجتمعاتهم ، أما لصوص المجتمعات الأخرى الذين تفترض أنهم لم توجد لديهم الظروف التى تدفعهم إلى احتراف اللصوصية فن الواضح حينئذ أنهم شر خالص ، وأنهم يمثلون الشذوذ والانحراف فى مجتمعهم ، من حيث إن الدافع لهم ليس إلا نزعة الشر والعدوان على حقوق الآخرين ، وهذا الفرق تقره التشريعات الدينية والوضعية .

وقد كان الشنفرى أحد الذين تجمعت حولهم كل الظروف القاسية التى تدفعهم إلى الصعلكة دفعاً . والتى لم تترك لهم طريقاً أخرى يسلكونها أو يضعون أقدامهم فيها ، وقد رأينا كيف فتح الشنفرى عينيه على الحياة منذ عرفها وعرف نفسه ، فلم يجد فيها خيراً له ، ولا شيئاً تطمئن إليه نفسه ، ولا مستقبلا يتطلع إليه ، ولا ركناً يأوى إليه ، وظلت هذه الظروف تلاحقه ، بل تتكاثر عليه حتى قضى نحبه . وقد صب هذه المرارة التى غص بها طوال حياته فى لاميته المشهورة .

٢ — الشاعرية

غير خاف أن الشعر كان يمثل وسيلة الإعلام الوحيدة تقريباً حينذاك ، بالإضافة إلى أنه أيضاً كان الوسيلة الوحيدة التى يتاح لذوى المواهب أن يصبوا فيها مواهبهم ، ولذلك لم يكن هناك شىء يستطيع أن يبلغ بصاحبه المنزلة التى يبلغها به الشعر ، ولم يكن شىء يستطيع أن يرفع القبيل أو يخفضها كما يفعل الشعر ، ومن المشهور أن القبيلة كلها كانت تهنأ بظهور شاعر فيها ، حيث كانت تشعر حينئذ أنها ملكت سلاحاً للخير وللشر لا يطاوله سلاح آخر .

إذن فقد كان الشاعر يضفى على قبيلته كلها عزاً وجاهاً ومهابة .

وحين ننظر إلى الصعلكة فى الجاهلية نجد أنها حظيت بعدد كبير من الشعراء الذين ظل ذكرهم يدوى فى أرجاء الجزيرة مقترناً بالإعجاب والإكبار لشاعريتهم الباهرة ، وطرازهم الشعرى الذى شد انتباه المجتمع ، واستحوذ وما زال يستحوذ على إعجاب سامعه وتقديره .

ويمكن فى إلمامة عجلى أن نستعرض أهم الجوانب التى جعلت لشعر الصعاليك تأثيراً واضحاً فى أن يحظى بإعجاب المجتمع العربى رواة وسامعين وناقدين من جهة ، وبانعكاس هذا الإعجاب على الصعلكة نفسها من جهة أخرى ، لحظيت بشىء منه ، أو على الأقل خفف هذا الإعجاب من نظرة السخط عليها . وأهم هذه الجوانب ما يأتى :

(أ) ظهر من الصعاليك شعراء لم يكونوا مجرد مجيدين فى شعرهم فحسب ، وإنما كانوا أعلاماً فرضوا التقدير والإعجاب بشعرهم على المجتمع كله ، وما زال شعرهم يعتبر من ألمع وأجمل ما أنتجته مواهب العرب فى تاريخهم كله ، وفى مقدمتهم الشنفرى وعروة بن الورد وتأبط شراً والسليك بن السلكة ، وكثير من شعراء صعاليك هذيل كصخر الغى والأعلم الهذلى وأبى خراش .

وإذا كان الشاعر الواحد ، وخاصة إذا كان جيد الشعر تعتز به قبيلة بأسرها ، فيضفى عليها بشعره عزاً ومهابة ، فكيف بطائفة الصعاليك التى حظيت بمجموعة من أعظم شعراء العرب قاطبة ، والتى لا شك فى أنه لم تحظ قبيلة واحدة ، ولا طائفة واحدة فى العرب ، بمثل ما حظيت به هذه الطائفة من الشعراء ، سواء من حيث العدد ، أو من حيث جودة الشعر .

وقد يقال إن شعراء الصعاليك كانوا كغيرهم ينتمون إلى قبائلهم ، فينعكس مجد كل شاعر منهم على قبيلته ، وحينئذ لا تستفيد الصعلكة كثيراً من شاعريتهم ، وللإجابة عن ذلك نقول إنه افتراض نظرى

لا يطابق الحقيقة كل المطابقة ، فحتى لو سلمنا بأن الصعلوك لا يستطيع أن يقطع انتماءه لقبيلته ، ولا أن يتجاهل تعصبه لها ، فما لاشك فيه أن انتماءه الأقوى ، وتعصبه الأوضح يكون دائماً لمهنته ، وليس هذا مجرد استنتاج ، وإنما هى حقيقة تقرها الروايات ، ويؤكدها شعرهم نفسه ، فالدارس لشعر الصعاليك كله ، لايحس بانتماءه إلا للصعالكة ، ولا بتعصبه إلا للصعاليك ، ويندر أن يخرج شعرهم عن هذا النهج .

على أن الصعاليك من شدة التصاقهم بالصعالكة حاولوا أن يجعلوا لها فلسفة وشعارات ذات بريق إن لم يكن فيها إغراء ، ففيها على الأقل طرافة منهج ، وفيها ابتكار لأساليب العيش من زاوية فلسفية ، فما أطرف ما يقول بكر بن النطاح الحنفى وهو من شعراء الصعاليك مقارنا بينهم وبين سائر الناس ، معبرا عن بعض فلسفة الصعاليك فى أسلوب العيش :

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

والأحيمر السعدى يعبر عن هذه الفلسفة بأنه يستحيي من نفسه ومن الناس أن يعيش فى الحرمان أو أن يضطر إلى سؤال اللئيم ، بينما تستطيع يده أن تصل إلى الأبل فى المراعى ، متجاهلا أن لها أصحاباً ، مدعياً أنها شىء مشاع ، فيقول :

وإنى لأستحيي لنفسى أن أرى أجَرِّر حبلا ليس فيه بعير

وأن أسأل الجبس اللئيم بعيره وبعران ربى فى الخلاء كثير

وأما عمرو بن براق فإنه حتى حين يدافع عن نفســه يأبى إلا أن يظهر أنه مجرد فرد من الصعاليك ، فنى هذا مايكنى للتعريف به وبصفاته ، فيقول لمن لامته على التعرض للمخاطر :

تقول سليمى لا تعرّض لتلفة وليلك عن ليل الصعاليك نائم

وكيف ينام الليل من جلُّ ماله حسام كلون الملح أبيض صارم

ألم تعلمى أن الصعاليك نومهم قليل إذا نام الخلى المسالم

من هذا ونحوه نعلم أن انتماء الصعاليك لم يكن لقبائلهم ، وإنما كان لطائفتهم ، أو على الأقل لطائفتهم قبل قبائلهم .

والذى يعنينا من ذلك أن ظهور أعلام من أعظم الشعراء وأجودهم إنتاجاً بين طائفة الصعاليك ، فى مجتمع يوشك أن يقدس الشعر والشعراء ، من شأنه أن يضفى على الصعلكة شيئاً من تقدير المجتمع وإعجابه ، خاصة وأن ظروف المجتمع كما أسلفنا كان من شأنها أن تساعد على الصعلكة باعتبارها ظاهرة تتفق مع واقع المجتمع وأحـــواله ، ولم تكن ممثلة للشذوذ أو الغرابة .

(ب) وثمة أمر آخر كان من شأنه أن يجعل لشعراء الصعاليك تأثيراً فى المجتمع الجاهلى وإثارة لإعجابه ، أكثر مما يثيره شعر الشعراء الآخرين ، أعنى حتى مع صرف النظر عن الجودة الظاهرة التى تميز بها شعر الأعلام من شعراء الصعاليك ، فإن شعرهم فى جملته يمتاز عن شعر معاصريهم جميعاً من الشعراء غير الصعاليك ، بمزايا فى منهج الشعر وفى الموضوعات التى يطرقها ، وفى النواحى التى يهتم بها ، وليس هذا الموضع مجال التفصيل فى هذا الجانب ، ولكننا نقتطع إشارات عابرة لإبراز هذا المعنى فنقول إن شعراء الصعاليك لم يتخذوا الشعر حرفة ولم يفرغوا أنفسهم له كما كان يفعل الشعراء من غيرهم ، ولذلك لم يلتزموا الموضوعات التى شاعت وألفها الناس فى الشعر كالمدح والهجاء والفخر والوصف ونحو ذلك ، ولم يلتزموا حتى الأساليب الشائعة فى نسج الشعر وتنسيقه ، كالبدء بالمقدمات المألوفة مثل الغزل ، وترتيب القصائد فى عناصر تكاد تكون محددة فى كل غرض ، ونحو ذلك من التقاليد التى كان الناس يألفونها ويتوقعونها فى الشعر ، وترتب على ذلك أن جاء شعر الصعاليك طرازاً جديداً يثير الانتباه ، ويلفت النظر ، ويشد الأسماع ، فإذا المجتمع مبهور بهذا الطراز الجديد فى منهج الشعر ، هذا المجتمع البالغ الدقة فى تذوقه للشعر وفى نقده الفطرى ، وتقويمه العفوى الدقيق ، لم يكن

ليفوته الإحساس بهذا الطراز الممتاز عن غيره ، فمثلا نجد شاعراً يتحدث عن أشياء كثيرة تكاد تكون متباعدة أو متعارضة ، ولكنه ينظمها فى تناسق وتلاصق فيذهب عنها تباعدها ، يتحدث كما تحدث الشنفرى فى لاميته عن الوحوش ، وعن الحر والبرد ، وعن النحل والطاير ، وعن الجوع والفقر ، وعن الصبر والألم ، وعن أشياء كثيرة ، لا ارتباط بينها لذاتها ، فإذا هو يجعلها شديدة الترابط وكأنها موضوع واحد ، وأعجب من هـذا — وهو ما يمتاز به منهج الصعاليك فى شعرهم — أن الشاعر يستطيع أن يربط هـذه الأشياء وهذه الأمور كلها بشخصه هو ، وكأنه لا يتحدث عنها وإنما يتحدث عن نفسه ، موضحاً أن ذلك كله إنما سيق لأنه مرتبط بشخصه من زاوية معينة يريد أن يبرزها ، وأشد من هذا عجباً أنه مع هذا التركيز فى الحديث عن شخصه ، وعن ربط كل هذه الأشياء به إلا أنه لا يعمد إلى الفخر كما يفعل الشعراء ، ولا يبدو من حديثه حتى وإن ساق فخراً أنه يقصد الفخر لذاته ، وإنما يسوق آلاما يراها الناس فخراً ، ويتحدث عن حياة لم يألفها الناس فيرى الناس فى ذلك موضعاً للفخر أو ما يشبه الفخر ، ولكن الشاعر لم يقصد إلى شيء من ذلك ، وإنما قصد إلى ما يمكن أن يسمى « المذكرات الشخصية » التى يتحدث فيها صاحبها عن أشياء كثيرة مختلفة ولكنها مرتبطة بشخصه كل هذا ونحوه جعل المجتمع يزيد للصعاليك إكباراً ، أو إعجاباً واهتماما ، وكلما زاد الإعجاب أو الرضا عن أشخاص الصعاليك ضعف السخط والإنكار على الصعلكة وأساليبها .

وقد كان الشنفرى من هذين الجانبين دعامة أساسية من الدعائم التى ارتكزت عليها الصعلكة فى تدعيم كيانها ، وفى حظوتها بتقدير المجتمع الجاهلى وإعجابه ، فمن الجانب الأول كان علماً من أكبر أعلام الشعر فى التاريخ العربى كله ، وقد يختلف النقاد فى وضعه فى الطبقة الأولى من شعراء العرب ، أو فى طبقة تليها ، ولكنهم لا يختلفون قط فى أنه من الصفوة الممتازة التى تحتل الصدارة فى جودة الشاعرية بين شعراء

العرب قاطبة ، وكان هذا كما قلنا من عوامل تدعيم الصعلكة ، وإبراز كيان الصعاليك . ومن الجانب الثانى كان شعر الشنفرى كله ، وخاصة لاميته المشهورة يمثل هذا الطراز المتميز فى منهجه ، والذى استحوذ على ذوق المجتمع العربى وإعجابه ، فكان أيضاً من عوامل تدعيم كيان الصعاليك .

(ج) وبالإضافة إلى الميزتين السابقتين ، ميزة ظهور أعلام للشعر من الصعاليك ، وميزة انفراد شعرهم بمنهج متميز جذاب ، هناك ميزة ثالثة فى هذا المجال ، وهى احتواء شعر الصعاليك على قدر كبير من المعانى التى بلغت حد الحكمة والمثل ، فأصبح الناس يتمثلون بها باعتبارها ممثلة لقمة المثالية فى موضوعاتها ، سواء فى الجانب الخلقى أو الجانب الاجتماعى أو جانب الجودة الشعرية ، ومازالت هذه المعانى تثير الإعجاب والإكبار ، ولكن كثيراً من الناس لا يتصورون أنها من شعر الصعاليك .

فمن هذه المعانى قول الشنفرى فى التعبير عن إباء الضيم والنفور من الذل:

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل (١)

وقوله فى الخلق الاجتماعى :

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن
بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

ومما انفرد الشنفرى بجودة التصوير الأدبى فيه ، فلم يسبق به ، ولم يأت ما يخمله قوله فى وصف عفة المرأة وغضها من بصرها وحيائها :

كأن لها فى الأرض نسياً تقصه على أمها ، وإن تكلمك تبلت(٢)

---

(١) القلى : الكراهية . والمتعزل : مكان العزلة .

(٢) نسياً : بكسر النون : شيئاً منسياً : تقصه : تقتفى أثره . الأم بفتح الهمزة : القصد . تبلت : توجز الكلام يعنى أنها أثناء سيرها تخفض بصرها كأنها تبحث فى الأرض عن شىء سقط منها .

ومن هذه المعانى هذا المعنى الرائع الذى يصور به تأبط شراً مدى الحذر واليقظة فيقول .

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ويقول تأبط شراً عن خلقه وأمانته فى الجوار .

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مثواها

ويقول فى تعففه عن التبذل .

يعاف وصال ذات البـذل قلبى ويتبع الممنعة النـوار[1]

ومن هذه المعانى قول عبدة بن الطبيب فى رثاء قيس بن عاصم المنقرى[2]

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهـدما

وهذا البيت يصفه كثير من النقاد القدامى أنه أرثى بيت قالته العرب، ويصفه بعضهم بأنه قائم بنفسه ليس له نظير فى الجاهلية ولا فى الإسلام .

ومن هذه المعانى قول سعد بن ناشب المازنى ، تعبيراً عن شدة التصميم[3] .

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا

ومن هذه المعانى قول الأحيمر السعدى[4] فى تصوير النفور من شرور المجتمع البشرى وتفضيل الأنس بالوحوش على إلف الناس .

---

(١) ذات البذل . يعنى غير العفيفة . الممنعة . صعبة المنال . النوار النفور من الريبة . يعنى أنه يعاف ويحتقر المرأة التى تبيح نفسها سهلة ، ولا يهوى إلا المرأة المعتدة بشرفها وكرامتها .

(٢) عبدة بن الطبيب التيمى مخضرم من شـعراء الصعاليك المشهورين بالجودة والإبداع .

(٣) سعد بن ناشب من بنى مازن من تميم وهو من شـعراء الصعاليك المشهورين ، وعاش فى عصر بنى أمية وبعده :

ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

(٤) من صعاليك بنى سعد وهو من الخلعاء الذين خلعهم أقوامهم وتبرءوا من كثرة جناياتهم .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصوّت إنسان فكدت أطير

ومن أبدع هذه المعانى وأكثرها مطابقة للواقع قول عمرو بن براق(١) .

متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم

ومن الأمثال المشهورة التى أخذت من شعر الصعاليك ، الشطر الأخير من قول الأخينس الجهنى .

تسائل عن حصين كل ركب ... وعند جهينة الخبر اليقين(٢)

فى قصة تسوقها كتب الأمثال والروايات(٣) .

وهذه مجرد نماذج من شعر الصعاليك الذى كان وما زال يثير الإعجاب ، وهذا الاعجاب بالشعر لا بد وأن يرتد شىء غير يسير منه على أشخاص الصعاليك أصحاب هذا الشعر ، ولا بد أيضا أن ينعكس شىء ولو يسير من هذا الاعجاب على الصعلكة التى أنتجت هذا المستوى من الشعر الرفيع .

وقد كان الشنفرى دائما فى المقدمة من كل عامل من العوامل التى دعمت مركز الصعاليك فى المجتمع .

(٣) القيم وأسس السلوك

مما لا شك فيه أن الصعلكة بمفهومها الذى نتحدث عنه ، وفى كل أساليبها شر وخروج ظاهر على المبادىء الدينية والتشريعية عامة ، ونعنى بمفهومها أساليب اللصوصية وليس معنى الفقر، الذى تجعله كتب اللغة تفسيرا للصعلكة . فأساليب اللصوصية كلها شر محض . وليس فى ذلك ما ينازع فيه ، سواء

---

(١) من صعاليك الجاهلية وهو رفيق الشنفرى وتأبط شرا فى الصعلكة .

(٢) يذكر ابن دريد فى جمهرة اللغة ٣-٨٠ أن صحة البيت صفينة بالصاد والغين وليس جهينة .

(٣) مؤداها أن الأخنس الجهنى وكان صعلوكا قتل زميلا له فى الصعلكة يسمى الحصين الكلابى ، ثم عاد فوجد أخت الحصين أو زوجه تسائل العشائر والركبان عنه ، فأخبرها بشعر منه هذا البيت أنه قتله .

من حيث الأديان . أو التشريعات الوضعية ، والمجتمع الجاهلي أو غيره لا يخفى عليه ذلك . ولكن الغريب أن الصعاليك استطاعوا أن يجعلوا لهم أسلوباً في الحياة يقوم على أسس فيها كثير من الغرابة بالنسبة لهم بالذات ، ولا تخلو مع ذلك من إثارة الإعجاب .

فقد استطاعوا مثلا أن يجعلوا من أساليبهم التعاون فيما بينهم، وقد لا يلتزمونه جميعاً ، ولكنه مع ذلك ظاهر في حياتهم . وأخباره يتناقلها المجتمع الذي يفتقد هذه الميزة ، فلا يملك إلا أن يكبرهم ، فمثلا ما هو مشهور عن عروة بن الورد العبسي، وهو من زعماء الصعاليك في الجاهلية ، أنه كان من الأمثلة النادرة العظيمة للتعاون أو ما يمكن أن يسمى أسلوب الاشتراكية الانسانية ، فقد كان دائم الغارات ، وكان متفرغا لهذه الغارات ، وكان كثير المغانم من غاراته ، وكان زعيما لطائفة من الصعاليك يغير بهم على القبائل ، وكان بحكم وضعه هذا يستطيع أن يؤثر نفسه بالكثير ، وألا يمنح تابعيه إلا اليسير الذي يرون فيه غاية ما تطمح إليه نفوسهم لسد الرمق ، وحفظ الحياة ، ولكنه كان يلتزم ألا يمتاز في سهمه من الغنائم عن أحد من تابعيه ، بل ربما كان أقلهم نصيبا ، ولا يرى بأسا بأن يمنح نصيبه كله أو بعضه لصعلوك وافد لم يشهد تقسيم الغنيمة، وزيادة على ذلك كان بيته يعتبر ملجأ دائماً للصعاليك ،سواء منهم من يعرفه أو يجهله، وسواء منهم من يشارك معه في غاراته أو لا يشارك ، حتى سمي عروة الصعاليك ، حيث كان كل ما يملك مباحا لأبناء طائفته لا يبخل عليهم بشيء ، ولا يدخر دونهم شيئاً ، وقد حظي عروة بن الورد بتقدير المجتمع الجاهلي وإعجابه ، بل ظل الاعجاب به مستمراً حتى في أزهى العصور الاسلامية ، فمن المأثور قول معاوية بن أبي سفيان تعبيراً عن إعجابه بشخصية عروة . لو كان لعروة ولد لأحببت أن أتزوج إليهم ، وقال عبد الملك بن مروان . ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني إلا عروة بن الورد لقوله .

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد(١)

---

(١) العافي . طالب المعروف . يقول في هجاء قيس بن زهير إن طعامي شركة بين الناس أما طعامك فمقصور عليك وحدك لبخلك .

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد(١)

ولم يكن عروة وحده بهذا الخلق ، وإنما كان مثالا قد يكون بارزاً ولكنه تعبير عن خلق الصعاليك الشائع بينهم فى التعاون والتضامن والتواسى ، ومن أمثلة هذا التعاون والتضامن أن عصابة الشنفرى حين كانت تخرج للغزو ، تكل أمر طعامها ومعيشتها كلها إلى تأبط شراً ، فهو الذى يوزع عليهم الطعام والشراب وكل أسباب العيش فى تنظيم ودقة إشراف يصفها الشنفرى فى شعر طويل ، حتى إنهم كانوا يسمون تأبط شراً الأم ، ويتحدث عنه الشنفرى فى شعره بهذا اللقب ، معجبا بدقة إشرافه ورعايته لهم ، كما ترعى الأم أولادها ، وذلك فى قصيدته التائية .

ومما جعل لهذا الجانب من خلق الصعاليك أهمية كبيرة من حيث تأثيرها فى نفوس المجتمع وإعجابه بالصعاليك ، أن المجتمع الجاهلى كان يفتقد روح التعاون والعطف الاجتماعى فيه ، فباستثناء صور الجود التى كان بعض السادة يتصدقون بها على بعض مجتمعهم فى ظروف وصور أبرز ما تحمله الدعاية لهم ، والتمكين لسيادتهم على أقوامهم ، نقول باستثناء هذه الصور لم تكن هناك أى صورة للتراحم الاجتماعى العام ، فالبائس مهما بلغ من البؤس ، والجائع مهما بلغ من الجوع ، فلن يجد فى أحسن الفروض إلا من يمن عليه بلقيمات تذهب عنه بعض الجوع حينئذ ، ثم يعاوده الجوع من جديد ، فلا يعود المطعم له إلى إطعامه ، لأنه يكون حينذاك مشغولا بإنشاد الشعر مفتخراً بتلك اللقيمات التى دفع بها إلى هذا البائس الفقير ، أو العابر المتضور من الجوع .

ولكن المجتمع ينظر فإذا طائفة الصعاليك تنظم فيما بينها ما يشبه اليوم (النقابات) التى يتضامن أفرادها ، ويدافع بعضهم عن حقوق بعض ، ويعطف بعضهم على بعض عطفاً حقيقيا ، لا يشعر معه المعان بالهوان ، ولا يشعر المعطى بالتعالى والمن ، وإنما يشعرون جميعاً بأنه واجب اجتماعى فيما بينهم يشتركون فيه جميعاً , وهذه حقيقة يلمسها كل دارس لحياة الصعاليك وفقدان المجتمع كما

---

(١) يريد أن نحافة جسمه سببها توزيع طعامه بين كثيرين ، وحرمان نفسه من المتعة إيثاراً لغيره بما يملك .

قلنا لهذا الجانب مع حاجته الشديدة إليه جعله يكبر الصعاليك ويقدر فيهم تمسكهم بما يفتقده المجتمع .

ونتيجة لذلك عرف الصعاليك عامة بالسخاء والجود ، وأصبحت هذه الصفة متداولة فى المجتمع عنهم حتى ضرب بهم المثل فيها ، فمن الأمثال المشهورة فى المجتمع العربى القديم « كل صعلوك جواد » ولم تحظ طائفة أو قبيلة أو جماعة فى العرب بمثل هذا الشرف الاجتماعى المنسوب إلى كل أفرادها ، فى حين أن الجود كان عندهم أسمى ما يمدح به إنسان ، وأعظم ما يتنافس فيه الطامحون إلى المجد والسيادة ، ليسلكون طريقهم إلى ما يريدون، ومع أن الشجاعة كانت الصفة الثانية التى تحظى بالبريق الاجتماعى ، إلا أن الجود كان نظراً لظروف البيئة يحتل المقدمة فى كل صفات الشرف الاجتماعى ، وحينئذ نستطيع أن ندرك ما يوليه المجتمع من تقدير لهذه الطائفة التى تنفرد بأن كل فرد منها جواد .

ويضاف إلى ذلك ما عرف به الصعاليك من عفة وأصالة فى الخلق ، فقد يبدو غريباً أن يكون الصعاليك عامة باستثناء الشذوذ الفردى الذى لا يخلو منه مجتمع فى مستوى من الخلق والتزام مبادىء فى كثير من نواحى السلوك ، أرفع من مستوى غيرهم فيها ، ولكن الدارس لحياة الصعاليك وما تنقله الروايات عنهم فى شبه إجماع يخرج بهذه الحقيقة التى إن لم تذهب عنه الغرابة ، فإنها تدفعه إلى الإعجاب بهذه الطائفة إن كان من الراضين ، وإلى تخفيف سخطه إن كان من الساخطين ، وقد يذهب بعض هذه الغرابة أن ننظر إليهم من زاوية التكوين النفسى الذى سبقت الإشارة إليه ، من حيث إنهم فى المجتمع الجاهلى بالذات ، لم يكونوا يمثلون الشذوذ الشرير ، وإنما كانوا ثمرة ظروف المجتمع وأحواله المضطربة المتناقضة ، فلم يكن تكوين كثير منهم شريراً ، وإنما كان ضحية ظروف معينة .

وقد صاغ الصعاليك كثيراً من مبادىء سلوكهم فى شعارات يرن صداها فى أرجاء المجتمع ، ولم تنقل الروايات أن أحداً كذبهم فيها ، أو أنكرها عليهم ، مع أننا نجد ذلك يحدث فى كثير من الأحيان ، وخاصة فى تلك الفترة ، أن يرمى الشخص أو الشاعر بالكذب إذا جرب عليه ، وعرف عنه ، فلم يكن غريباً

أن يقول الراوى وقال فلان كذا ، وكان كذابا ، أو هو كاذب حيث صدر منه كذا ، ولكن الصعاليك فى جملتهم أعلنوا شعارات ومبادىء خلقية منسوبة إلى أفراد منهم ، كقول تأبط شراً فيما سبق .

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مثواها

وكثير غير هذا فى العفة والجود والشجاعة، وخاصة فى شعر عروة بن الورد والشنفرى وحتى الصعلكة نفسها كما أشرنا حاولوا أن يجعلوا منها فلسفة ومنطقاً يقنعون المجتمع به كقول قائلهم .

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وهو مغالطة واضحة ، تعتمد فى ظاهرها على المقارنة بين عزة الشجاعة وذل المسألة ، ولكن الحقيقة أن المسألة خير أو أهون شراً بكثير من العدوان على الناس وحقوقهم ، ومن هذه المغالطة قول عمرو بن براق .

وكنت إذا قوم غزونى غزوتهم فهل أنا فى ذا يالهمدان ظالم ؟

فهو يريد أن يقنع الناس أن غاراته وغزواته ليست إلا طلباً للثأر . وأنه مظلوم لا يريد إلا أن يطلب حقة ، وقد يكون هو أو غيره فى بعض الأحيان كذلك حقاً ، ولكن المغالطة أنه يجعل هذا أساساً لكل حياته فى الصعلكة ، مع أن الأمر بداهة ليس كذلك

ولكن هذه المغالطات إن أدركها كل المجتمع فلن يدركها كل الأفراد ، وحتى الذين يدركونها فإن صياغتها بهذا الأسلوب المغالط يخفف فى نفوسهم من نظرتهم إليها مهما بلغ بهم السخط ، فأى تأثير فى النفس مثلا يثيره تساؤل ابن براق السابق ، واستدراره للعطف والتأييد فى قوله « فهل أنا فى ذا يالهمدان ظالم ؟ » وكأنه واثق من أنة مظلوم دائماً وليس ظالما .

وينتج عن هذا كله أن يحظى الصعاليك بإعجاب المجتمع لما يلتزمونه من مبادىء الخلق ، وبتخفيف سخط المجتمع على منكراتهم حين يصوغونها فى فلسفة وشعارات .

٤ — القوة والمواهب الفردية

هناك صفة مشتركة بين الصعاليك لا مفر لأحد منهم من أن يكون لديه قدر غير يسير منها ، وهى القوة ، سواء كانت قوة الإقدام والبأس فى لقاء العدو ، أو فى مزاولة الغارات والسطو ، وكل ما يدعو إليها ، أو كانت قوة التحمل ورياضة النفس على مقاومة الصعاب فى كل صورها التى يتعرض لها الصعلوك كثيرا ، وما أكثر هذه الصعاب ، وما أشد تنوعها ، فمن مقاساة للحر والبرد ، والجوع والعطش ، إلى تعرض لوحوش الصحراء وهوامها ، إلى معاناة للوحدة والسفر الشاق ، والتنقل دون وسيلة للسفر ، ونحو ذلك من حياة تقوم كلها على المتاعب والمخاطر ، فيما أفاض الصعاليك أنفسهم فى وصفه وتعديده فى أشعارهم وأحاديثهم .

وقد يتفاوت الصعاليك فى أنصبتهم من هذه القوة فى جوانبها المختلفة، ولكن كلا منهم لا بد أن يحظى بقدر وافر منها ، ليستطيع مزاولة الصعلكة وتحمل ما تنطوى عليه من مخاطر بالغة العنف ، ومتاعب بالغة الشدة، وبدون هذا القدر الوافر من القوة لا يمكن قط لشخص أن يكون صعلوكا .

ولكن هذه القوة فى كل صورها كانت ظروف البيئة تحتاج إليها بالنسبة لكل من يقطن هذه البيئة ، وليس الصعاليك وحدهم ، غاية الأمر أن الصعلوك أحوج من غيره إليها ، وحاجته أشد تنوعاً ، فكل من يسكن هذه البيئة وخاصة البادية محتاج إلى القوة فى نوعيها ، قوة الإقدام التى توصف بالشجاعة وقوة التحمل التى توصف بالصبر أو قوة العزيمة . وإذا افتقدها فقد ضاع كيانه الاجتماعى كله ، فالشخص الذى يوصف بالجبن أو الضعف فى مثل هذه البيئة لا يكاد يساوى فى المجتمع شيئاً ، ولا يكاد يعترف له بكرامة أو كيان ، ما لم يتح له أن يعوض شيئا من هذا الفراغ بجانب آخر كالغنى مثلا ، حيث يصبح الغنى حينئذ نوعا من القوة المعنوية له .

فالمجتمع كله إذن يتطلع إلى القوة ويتنافس فيها ، لأن ظروف بيئته وحياته تستدعى ذلك ، ولكنه ينظر فإذا طائفة من الناس يتحلى أفرادها جميعا بهذه

القوة التى تمثل أعز أمانيه ، وأهم مقومات كيانه ، وهم طائفة الصعاليك ، عندئذ لا يملك هذا المجتمع إلا أن يحمل لهؤلاء الصعاليك راضياً أو كارها قدراً غير يسير من الإعجاب بهم ، وبحظهم الكبير من القوة .

فاتصاف الصعاليك بالقوة ، مع أهمية هذه الصفة فى مجتمعهم كان من الأسباب الرئيسة فى تقبل المجتمع للصعاليك ، وعدم إنكاره على الصعلكة .

وإذا كان الصعاليك عامة قد حظوا بأقدارهم من القوة فى معناها العام ، فإن بعضاً من الصعاليك كانت لهم حظوظ معينة من القوة فى جوانب خاصة منها ، كالمواهب الفردية التى حظى بها أفراد غير قليلين من الصعاليك ، فكانت موضع الإعجاب الشديد من جانب مجتمعهم ، وترددت أخبارها فى كل وجه ، وما زالت تثير الإعجاب . وأهم هذه المواهب الفردية التى كانت فى محيط القوة ما يأتى :

١ — العدو

كان عدد كبير من الصعاليك من العدائين ، وعدد غير قليل منهم تصفه الروايات فى إجماع بأنهم لا تلحقهم الخيل ، والخيل عندهم كانت أسرع وسيلة يستطاع التحكم فى ضبط سرعتها والحكم عليها . ومعنى ذلك أن موهبة هؤلاء العدائين من الصعاليك كانت فوق الطاقة والمقدرة العادية بكثير ، ومن طريف ما يروى أن أبا خراش الهذلى وهو من الصعاليك العدائين(١) دخل مكة ذات يوم فوجد الوليد بن المغيرة مشغولا بفرسين له يعدهما للسباق . فقال له : ما تجعل لى إن سبقتهما عدوا ، قال إن سبقتهما فهما لك ، وسابق أبو خراش الفرسين فسبقهما وأخذهما ، ولم يكن أبو خراش وحده بهذه الصفة ، ولم يكن العداءون قلة فى الصعاليك ، فمما يروى مثلا أن أبا خراش هذا كان له عشرة أخوة كلهم عداء .

وهذه الصفة العجيبة البارعة فى الصعاليك ، كانت من عوامل لفت أنظار المجتمع إليهم وتناقله لأخبارهم هذه فى تعجب وغرابة ، ومثل هذه الأحاديث

---

(١) من المخضرمين ، حسن إسلامه ومات فى خلافة عمر بن الخطاب .

ورواياتها كثير ، ولكن ما يعنينا منها مجرد الإشارة إلى العوامل التى تحدد نظرة المجتمع للصعاليك .

٢ — المواهب العقلية :

وهى أيضاً نوع من القوة المعنوية ، وقد حظى الصعاليك بقدر كبير منها ، ومن البدهى أن الصعلوك فى حياته هذه الرهيبة لابد أن يحتاج إلى قدر غير صغير من الذكاء وحسن التصرف ، والمقدرة على مواجهة المواقف الطارئة ، وكل مواقف حياته وأحداثها طارىء ، ليس فيها تنظيم ولا ترتيب ولا ثبات ، بل إن الصعلوك لايدرى ماتأتى به اللحظة القادمة ، فضلا عن اليوم القادم ، ولذلك لابد له من الذكاء وحسن المعالجة للمواقف ، كل موقف بما يحتاج إليه من تصرف .

وزيادة على هذا القدر العام من الذكاء الذى يلزم للصعاليك ، فإن بعضهم قد وهب عقلية فذة فى الذكاء أو الدهاء أو الحيلة أو نواح معينة من المقدرة العقلية التى يمتاز بها عن غيره ، كما تسوق الروايات عن تأبط شراً فى مقدرته على ابتكار الحيل حين يشعر بحصار الأعداء ، وكذلك مايروى عن أبى خراش من حسن التصرف فيما يعرض له من بعض المواقف ، وكالشنفرى الذى كان يضرب به المثل فى الحذق والدهاء .

وكان المجتمع أيضاً يتناقل هذه الأخبار مكبراً لها ولأصحابها ، وقد يبلغ من إعجابه أن يتزيد أو يبالغ فى بعض هذه الآخبار ، ولكن بعضها تكاد الروايات تجمع حتى على تفاصيله ، وليس هناك مايمنع من قبوله ، حيث إنه لايتعارض مع الواقع ، ومن ذلك قصة نجاة تأبط من قبيلة بجيلة التى كان بينها وبينه عداء قديم ، والقصة طويلة ولكن مضمونها أن تأبط شراً والشنفرى وعمرو بن براق كانوا فى غارة على بجيلة ، وكان هؤلاء الثلاثة من أخطر صعاليك العرب وأشهرهم بالعدو وكانوا رفقاء فى الصعلكة ، وكثيراً ماينفرد كل منهم وخاصة الشنفرى بالغارة وحده ، وفى غارتهم هذه كانت بجيلة على حذر وخاصة من تأبط شراً عدوهم اللدود ، وقد أقاموا رصداً وكميناً ينتظر قدوم تأبط شراً ، فلما دنا الثلاثة من عين ماء يريدون الشرب منها أحس تأبط شراً رغم الظلام الشديد أن هناك كمينا ، فأوحى إلى زميليه بمخاوفه ، فأنكرا أن يكون هناك رصد لهم ، وأراد

الشنفرى أن يؤكد له خلو الطريق ، فذهب إلى الماء ليشرب ، ورآه الرصد وعرفوه ، ولكنهم كانوا حقاً يريدون تأبط شراً بالذات ، فلم يتعرضوا للشنفرى ، وعاد بعد أن شرب ، فقال له تأبط شراً إن القوم لايريدونك ، وإنما يطلبوننى أنا ، فذهب عمرو بن براق ، فلم يتعرضوا له أيضاً وعاد بعد أن شرب فأصر تأبط شراً على رأيه ، ومع ذلك لم يكن بد من أن يشرب ، فقال للشنفرى إنى ذاهب للشرب ، وإن القوم سيمسكون بى ، فانطلق أنت حينئذ كأنك تهرب ، ثم اختبىء فإذا قلت : خذوا خذوا فتعال أطلق سراحى ، وقال لابن براق : سآمرك أن تستسلم لهم ، فراوغهم فى الجرى حتى لا يفقدوا الأمل فى اللحاق بك ، وكان الثلاثة أشهر العدائين فى العرب ، فلما أومأ تأبط شراً ليشرب انقض عليه الرصد فأوثقوه ، وطار الشنفرى ثم اختفى ، أما ابن براق فقد جرى شوطاً ثم وقف بعيداً بحيث يرونه ، عندئذ قال تأبط شراً لهم : يامعشر بجيلة ، هل لكم فى أن يستسلم لكم ابن براق فتأسروه مقابل أن تخففوا عنا فى القدية ، وكانت فى انظرهم فرصة أن يقبضوا على شخصين خطيرين بدل واحد ، ثم يفعلوا بهما بعد ذلك ما يريدون ، قالوا : نعم ، فنادى تأبط شراً على ابن براق قائلا : ويلك ياابن براق ، أما الشنفرى فقد ظن أنه نجـا بنفسه ولكن بنى فلان سيلاحقونه وهم مالكوه لامحالة ، وأما أنت فأدعوك إلى ماهو خير ، أن تستسلم لهم وسيرفقون بنا فى الفداء ، قال عمرو لا والله حتى أجرب نفسى فى العدو شوطاً أو شوطين ، وأخذ يعدو ثم تباطأ كأن التعب قد نال منه ، عندئذ طمعوا فيه فانطلقوا وراءه ، وتركوا تأبط شراً موثوقاً ، فناداهم تأبط شراً قائلا : خذوا خذوا . وكانت هذه كلمة الاتفاق مع الشنفرى ، فأقبل الشنفرى فحل وثاقه ، وعندئذ لم يكن هناك قوة تستطيع اللحاق بواحد من الثلاثة فافلتوا ونجوا جميعاً .

ومثل هذه القصة معقول ومتفق مع طبيعة حياة الصعاليك ومواهبهم ، فهى ليست غريبة بالنسبة للصعاليك ، ولكنها بالنسبة لأفراد المجتمع تعتبر أمنية تدور فى خيالهم ، وتسبح معها أحلامهم ، فكلهم يعانى من طبيعة البيئة ومخاوفها ومتاعبها ، وكلهم يتمنى أن يكون له ما لهؤلاء الصعاليك من مقدرة على مجابهة

هذه الحياة ومتاعبها ، فمواهب الصعاليك إذن أمنيات كبيرة لأفراد المجتمع ، ومن ثم فإن أشخاص الصعاليك أنفسهم يصبحون فى بعض جوانبهم أشبه بما يسمونه (المثل الأعلى) أو فى مكان القـــدوة والتأثير فى السلوك الاجتماعى بالنسبة لكثير من أفراد المجتمع الجاهلى ، ومعنى هذا كله أن الصعاليك لم يكونوا فى موضع كراهية المجتمع أو نفوره ، فضلا عن احتقاره أو ازدرائه كما يوحيه ظاهر مسلكهم ، وإنما كانوا فى موضع إعجاب المجتمع وتقديره لمواهبهم وتكوينهم المتميز .

الشنفرى والصعاليك

إذا كانت حياة الصعاليك تقوم على القوة فى مختلف جوانبها المادية والمعنوية ، أو المباشرة وغير المباشرة وكذلك كيانهم فى المجتمع قام على هذه القوة ، فإن الشنفرى حظى من هذه القوة فى كل جوانبها على الإطلاق ، بما لم يحظ به صعلوك آخر على الإطلاق أيضاً ، وأن تجتمع جوانب هذه القوة كلها فى شخص واحد . وبدرجة يتفوق بها فى كل جانب على كل أفراد طائفته ، ذلك وضع يجعل صاحبه فى المكان البارز المرموق ، وهذا ما كان فيه الشنفرى ليس فى حياته ومجتمعه فحسب ، وإنما فى تاريخه وفيما ولى مجتمعه من مجتمعات وعصور . أما فى عصره ، فقد ضرب به المثل فى أرجاء الجزيرة العربية كلها فى أكثر من جانب من جوانب القوة كما سيأتى ، وليس هذا بالشىء اليسير ، وأما بعد عصره ، فمن الواضح أن شخصيته بكل مقوماتها ظلت حتى اليوم تثير التعجب ، أيا كان الحكم على سلوكه ، سواء فى هذا الإعجاب والتعجب الرواة والدارسون والمتناقلون لأخباره ، وآية ذلك أن أخباره وصلت إلينا .

فقد مرت أخبار الحياة الجاهلية وهى تجتاز العصور بعصر كان كفيلا بأن يقبرها ، أو يقبر كثيرا منها ، وخاصة أخبار الصعاليك ، وهو العصر الإسلامى الأول ، فإن الصعلكة بجرائمها وسلوكها العدوانى تتعارض تعارضا أساسيا مع الإسلام وتشريعه ، ولذلك وضع لجرائمها حدا معروفا بعقوباته كما أشرنا ، وكان هذا الانكار الشديد الذى صبه الاسلام على الصعلكة كفيلا بأن يكون حاجزاً يمنع انتقال هذه الحياة وأخبارها إلى العصور التالية لولا أمران ، أحدهما سماحة فى الدين الاسلامى استفاد بها البحث العلمى ، وهى أنه لم يحجر على الرواية وتناقل الأخبار الجاهلية ، ولم يمنع تناقلها فى أجل مجالس العلم ،وأعظمها وقارا ، ولم يحل دون تدوينها فى الكتب ، ولو كانت تتعلق بأشد الأحداث والأفعال بغضاً لدى الاسلام ، ونظرة الاسلام حينئذ يسيرة واضحة ، وهى التفرقة بين مزاولة السلوك والإخبار عن هذا السلوك ، ويعبر العلماء القدامى عن هذه التفرقة بقولهم (ناقل الكفر ليس بكافر) ولئن كنا نرى اليوم هذه التفرقة يسيرة ،

فإنها لم تكن كذلك فى بداية الإسلام حينما كان الحماس الدينى يملك على المسلمين كل تفكيرهم وكل حياتهم ، خاصة وأن هذا الحماس كان منصباً على نقض الحياة الجاهلية ، وخاصة منكراتها كالصعلكة. هذه السماحة فى الدين الإسلامى أتاحت للتاريخ وللبحث العلمى أن يلم بشىء غير قليل عن الحياة الجاهلية ومنها أخبار الصعاليك .

والأمر الثانى الذى كان من أسباب وصول أخبار الصعاليك الينا ، أن هذه الاخبار بما فيها من طرافة أو من جوانب تثير الإعجاب والتعجب قد فرضت نفسها على الرواة والمؤلفين والمتناقلين ، حيث يجدون أن هذه الاخبار من أثمن ما يروونه وما يتناقلونه ، ومن أكثره إثارة للإعجاب والتعجب معاً , ولذلك نلاحظ أن الاخبار التى وصلت الينا لم يكن معظمها مقصوداً به التاريخ لذاته ، أو القصد إلى مجرد الرواية ، وإنما روى لأنه يحمل خبراً طريفاً ، أو حادثاً يثير قدراً كبيراً أو صغيراً من الغرابة والخروج عن المألوف .

وقد كانت أخبار الشنفرى كلها تقريباً يثير التعجب والاهتمام ، حتى أخذت طابعاً يشبه الاساطير ، وأصبحت شخصيته نفسها محاطة بهالة كتلك التى تحاط بها الشخصيات التى تنظر إليها الشعوب على أنها نماذج فذة من البطولة والمقدرة الخارجة عن المألوف ، ذلك لان كل مقومات شخصيه الشنفرى كانت فذة إلى درجة فوق الوضع المألوف ، سواء من الناحية الجثمانية ، أو النفسية أو العقلية، ويمكن أن نلم فى إيجاز بأهم جوانب قوة الشنفرى فيما يأتى :

١ — قوة الإرادة :

من أبرز ما يميز الشنفرى هذا التكوين النفسى العجيب ، الذى يحمل من قوة الإرادة وصلابة العزيمة ما يثير الإعجاب على مر العصور ، والغرابة ليست فى إرادته لذاتها ، فالصعاليك جميعا يحملون هذه الإرادة ، ولكن فى درجة قوتها، هذه الدرجة التى تكاد تفوق التصور ، ومصدر هذه القوة أنه كان يتحكم فى نفسه من جميع زواياها تحكما يجعله هو المسيطر والموجه لها ، وليس هو المقود أو الخاضع لها ، فغرائزه جميعاً ملك له ، وليس هو المملوك لها ، وانفعالاته أيضاً كذلك ، والروايات تجمع على هذه الحقيقة ، وهو نفسه يبدع فى تصور جوانب

كثيرة فى شعره من سيطرته على غرائزه وانفعالاته ، فهو يصف لنا كيف يقاوم الخوف حتى لايكاد يشعر به ، ويتحدث عن ذلك فى صور وأحداث كثيرة منبثة فى شعره كله ، ويصف كيف يقاوم الجوع بأسلوب طريف ، وهو أن يتجاهل الشعور به ، وكلما ألح الجوع فى تذكيره ألح هو فى التجاهل ، حتى ينتصر ، وإذا هو يكاد ينسى أنه يعانى جوعاً شديداً ، ويصف أيضاً صراعه وعدم مبالاته بالبرد الشديد الذى يدفع المرء إلى تحطيم قوسه التى يدفع بها عن حياته ليستدفىء بها ، وكذلك صراعه وعدم مبالاته بالحر الرهيب الذى يجعل الأفاعى تتململ من رمضائه ، وهكذا يصف لنا إرادته الجبارة فى صراعه مع كل شىء داخل نفسه أو من حوله ، وهو فى كل ذلك لا يهدف الى وصف ذلك لذاته ، وانما ليُنبىء أن كل هذه العوامل لم تكن لتثنيه عن عزمه أو ، لتحول بينه وبين ما يريد ، فلا الخوف ولا الجوع ولا الحر ولا البرد ، ولا شىء قط يحول بينه وبين أن ينفذ ما صمم عليه ، وأن يحقق ما عقد عليه العزم ، ومن آثار ذلك أنه كثيراً ما كان يغير بمفرده فيحقق من غارته كل مايريد ، كما كان يغير على بنى سلامان حتى قتل منهم تسعه وتسعين رجلا .

٢ — القوة الجسدية :

وتتمثل هذه القوة فى سرعة العدو، فقد امتاز الصعاليك بأن عدداً كبيراً منهم قد وهبوا فى تكوينهم الجثمانى مقدرة على العدو تـكاد لا تصدق ، ولـكن الروايات تجمع عليها وليست الغرابة فى سرعة العدو لذاتها ، ولا فى العدد الكبير الذى كان يتمتع بهذه المقدرة من الصعاليك ، فذلك يمكن أن يوجد فى كل عصر وكل مجتمع، ولكن الغرابة فى درجة هذه المقدرة، فبعضهم تجمع الروايات على أنه لم تلحقه خيل قط ، وبعضهم تتحدث عنه الروايات فى بعض الأحداث بأن الخيل سابقته لتلحقه يوماً كاملا أو دون ذلك فلم تلحقه ، ونحو ذلك من الصور التى يجعلها عدم الالف موضع الغرابة، ولكنها مع ذلك ليست مناقضة للمعقول ، بل ولا للواقع .

وهؤلاء العداءون من الصعاليك كانوا يتميزون جميعاً بصفات جسمية معينة ، أولها قوة التركيب الجثمانى ، ثم أمر آخر مشترك بينهم وهو النحافة وضآلة الاجسام . فمن الواضح أن ثقل الجسم لا يعين صاحبه على هذه

الحركة البالغة السرعة ، والتى يحتاج إلى كل الخفه ، وصغر الحجم ، وقد وصفوا هم أجسامهم بطريق مباشر أو غير مباشر خلال شعرهم ، فإذا هم يتفقون فعلا على صفة واحدة هى نحافة الأجسام ، كما يقول عبيد بن أيوب العنبرى عن نفسه :

وأين ضئيل الشخص يظهر مرة ويخفى مراراً ضامر الجسم عارياً

ويقول الشنفرى :

وآلف وجه الأرض عند افتراشها بأهدأ تنبيه سناسن قحل (١)

ويعلل عروة بن الورد نحول جسمه بأنه يفرقه من جوده وسماحته بالطعام فى أجسام كثيرة . كما سبق فى قوله « أقسم جسمى فى جسوم كثيرة » . وأما عبيد بن أيوب ، فيصرح بأن حياة الصعلكة هى التى جعلت جسمه فى هــذا النحول ، حتى لو أن حمامة حملته لطارت به كما يقول :

حملت عليها مالوا أن حمامة تُحَمَّلُهُ طارت به فى الجفاجف

رَحِيْلاً وأقطاعا وأعظُمَ وامق أضرَّ بهطول السرى فى المخاوف(٢)

ورغم أن حياتهم فى الصعلكة بما فيها من جهد وفاقة وجوع وحرمان كانت تفرض عليهم أن يظلوا ناحلى الأجسام ، إلا أن العدائين منهم كانوا يحرصون حرصاً واضحاً متعمداً على التزام هــذا النحول ، بحيث تبقى أجسامهم رقيقة خفيفة الحركة ، لاتحمل ما يثقلها أو يعوق شدة انطلاقها حينما تندفع فى العدو ، وقد بلغ من حرصهم هذا أنهم كانوا يتحاشون أن ترتوى بطونهم من الماء حين يشربون ، وخاصة حينما يكونون فى غارة ، فهم أثناء الغارة أشد ما يكونون حاجة إلى العدو ، فلا أقل من أن يجعلوا أجسامهم مهيأة له فى كل لحظة .

---

(١) آلف : أقعود . الأهدأ شديد الثبات يعنى جسمه . تنبيه ترفعه . سناسن : رءوس فقار الظهر . قحل : جافة .

(٢) عليها يعنى الناقة . الجفاجف : الأرض الغليظة . والشطر الأول من البيت الثانى مضمونه أن جسمه من جميع النواحى لايعتبر جسماً . والشطر الثانى منه تعليل لنحوله .

وقد اكتملت فى الشنفرى هذه المقدرة حتى بلغت أقصى ما عرفه العرب من قوة وسرعة فى العدو من جهة ، وصبر وطول نفس أثناءه ، بمعنى أنه من حيث السرعة ذاتها بلغ أقصى درجاتها التى يعرفها الناس ، ومن حيث المقدرة على تحمل العدو دون كلل إلى فترة طويلة لم يعهدها الناس ، بلغ أقصى ما يعهده الناس أيضاً ، حتى تتحدث بعض الروايات أن الخيل لاحقته يوماً كاملا فلم يعن ولم تلحقه الخيل وقد يكون فى هذا مبالغة ولكنها تدل على مدى شهرته بالعدو ونتيجة لهذا كله ضرب به العرب المثل فى العدو ، وضرب المثل لا يأتى عفواً أو جزافا ، وإنما يكون حينما يبلغ صاحبه قمة ينفرد بها فيما ضرب به المثل فيه ، وكذلك كان الشنفرى ، فقد بلغ من قوته وسرعته واحتماله فى العدو درجة لم ينافسه أحد فيها ، فقالوا فى أمثالهم « أعدى من الشنفرى » ، وحتى إن بعض الروايات تذكر أن السليك بن السلكة ضرب به المثل أيضاً فى العدو ، فتنبرى روايات أخرى كما يذكر صاحب المفضليات تؤكد أن الشنفرى هو الذى انفرد بضرب المثل به فى العدو .

والشنفرى يحدثنا فى شعره وخاصة فى اللامية عن نحوله وتكوينه الجسمى الذى ساعده على هـــذه المقدرة العجيبة فى العدو ، ويحدثنا أيضاً عن سرعته ومقدرته فى عدوه ، فى صور كثيرة يكسو بعضها بخياله الشعرى ، ومن ذلك أنه يسابق القطا إلى المـاء ، ويظل فى سباقه مع هذا الطير ، فإذا هو السابق . حتى إنه يشرب الماء حتى إذا جاء القطا لم يجد إلا سؤره وبقايا شرابه كقوله « وتشرب أسآرى القطا » .

٣ – الشاعرية :

لم يختلف النقاد فى أن الشنفرى من الصفوة الممتازة فى شعراء العرب . وأنه مهما كان الإختلاف فى ترتيب الشعراء ووضعهم فى طبقات ودرجات ، فهو دائماً فى المقدمة بالنسبة لشعراء العربية قاطبة ، سواء كان فى الطبقة الأولى أو فى طبقة تليها ، ولـكن الذى يعنينا فوق ذلك أن الصعاليك كما أشرنا فيما سبق إمتازوا بمنهج خاص فى شعرهم ، وهـذا المنهج لفت نظر المجتمع إلى شعرهم وجعله يحظى بأهمية خاصة ، وقد كان الشنفرى أبرز الصعاليك فى شاعريته ،

وكان أبرزهم فى هذا المنهج الذى لفت أنظار المجتمع وأثار إعجابه .

وحيث إن هذا الموضوع يمثل الغرض الاساسى لهذا البحث ، لذلك لانرى مايدعو إلى بسط القول فيه ، اكتفاء بما سيأتى من توضيح وتفصيل له .

ولكن الذى يعنينا فى هذا الموضع أن هذه الشاعرية التى وهبها الشنفرى كانت من أبرز عوامل شهرته ، ودعائم شخصيته التى أخذ ذكرها يزيد فى أرجاء الجزيرة العربية ، ومازال رنينها تتجاوب به الروايات ، وتحمل صداه الكتب فضلا عن تداوله بين ألسنة العصور وآذانها .

٤ — عقلية الشنفرى :

اشتهر الشنفرى بعقلية شديدة اليقظة والعمق والحركة حتى إن الروايات تذكر أنه كان يضرب به المثل فى الحذق والدهاء [1] ، ويعنون بالحذق حدة الذكاء ، ويعنون بالدهاء حسن التصرف فى المواقف المختلفة ، وحسن التخلص والاحتيال للخروج من المآزق ، وحينما يجتمع الأمران فى شخص ، الذكاء وحسن التخلص والتصرف يكون فى درجة لامعة مرموقة ، فإذا بلغ من ذلك إلى الدرجة التى يضرب به المثل كانت فيه أهم الدعائم التى ترشح صاحبها لأن يكون من الشخصيات التى ترمقها الشعوب ، وتتناقل أخبارها الأجيال ، أو من يسمونها بالشخصيات الأسطورية ، فهذه الشخصيات تعتمد على بعض الصفات التى يتمناها كثير من أفراد المجتمع ، ولكنهم لايحظون بها ، فإذاهم يجدون شخصا قد حصل منها على قدر عظيم لايتصور توافره فى شخص عادى ، عندئذ تتطلع نفوس المجتمع إلى هذا الشخص ، وتتركز خيالاتهم على شخصه ، وفى أغلب الأحيان تضيف هذه الخيالات إلى أخبار هذه الشخصية قليلا أو كثيرا من المبالغات ، وقد تختلق أخبارا وحوادث تنسبها إليه لا وجود لها . وقد حظى الشنفرى أيضاً ببعض المبالغات فى بعض الأخبار المنسوبة إليه مافى ذلك شك ، فإن فى بعضها شططا ، وفى بعضها مالا تستسيغ العقول حدوثه بالصورة التى روى بها ، كمطاردة الخيل

---

(١) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١/١٨٧

هذه الفترة الطويلة التى ذكرتها الروايات ، فإن عدم لحاق الخيل به قد يكون متصوراً ومقبولا ، ولكن إستمرار المطاردة يوماً كاملا هذا مالا تهضمه العقول فى يسر ، وحين نفترض أن لهذه الأخبار أصلا من الحقيقة فلن يلتوى علينا تفسيرها ، حيث يمكن أن نتصور مثلا أن المطاردة حقيقية ، وأن عدم اللحاق به حقيقه أيضاً ، ولكن المطاردة لم تكن متصلة أو مستمرة كما يوحى إطلاق الروايات لها ، فهنا يمكن لمثل الشنفرى أن يستخدم ذكاءه ودهاءه الذى ضرب به المثل ، فيستطيع أن يضلل مطارديه ، وأن يشق عليهم بأنواع من الخدع والحيل . كأن يتسلق مرتفعا لاتستطيع الخيل أن تتسلقه ، ثم يجتاز هذا المكان إلى مكان آخر مختصرا طريقا طويلا ، على الخيل أن تقطعه حتى يمكن أن تستمر فى ملاحقته ، ونحـــو ذلك من الفروض التى لاتبعد عن المعقول ، ولا عن الواقع نفسه .

ومهما يكن من شىء ، فإن هذه المبالغات والتزيدات التى تفترض تخللها للأخبار والأحداث المنسوبة للشنفرى ومثله ، هى فى ذاتها تحمل دلالة قوية على أن صاحبها كان شخصاً غير عادى ، وأنه صدرت منه أعمال ومواقف كانت عند الناس كبيرة وغير عادية حتى أحاطوها بهذا الخيال ، وأنه هو كان شخصا غير عادى حتى ارتبطت به الأساطير .

وننتهى مما سبق كله إلى أن الشنفرى كان شخصية غير عادية ، وأن هذه المزايا التى تفوق فيها أو انفرد بها كانت موضع أمانى أفراد المجتمع ، لأن حياتهم وظروف بيئتهم كانت تدعو إلى ذلك ، وحين اجتمعت للشنفرى هذه المزايا بدأت أنظار المجتمع تتجه إليه ، وخيالاتهم تسرح نحوه ، بعضهم مكبر معجب ، وبعضهم خائف متوجس ، وبعضهم متطلع متأمل ، ولكنهم جميعاً لا يملكون إلا أن يضمروا له التهيب والتقدير .

وشىء واحد ضنت به الظروف على الشنفرى ، ولم تسمح له أن يحظى به ، وهو الإنتماء إلى قوم يعيش بينهم ، وترتبط بهم عواطفه ، وهذا الشىء غير كل شىء فى حياة الشنفرى ، وفرض عليه كثيراً من جوانب حياته التى عرف بها ، وهذا الشىء لو تيسر للشنفرى فلعله كان سيرسم له حياة أخرى تختلف عن حياة

الصعلكة ، فقد كان يمكن أن يصبح سيداً مرموقاً في قومه ، أو أن يصبح فارسا لامعا من فرسان العرب ، أو شاعراً يلتف الناس من حوله ويتنافسون على القرب منه والزلفى إليه . ولكن حرمان الشنفرى من العيش في قومه ، ثم إلزامه أن يعيش حياة العبيد الأذلاء ، أو الاسرى المملوكين ، لم يترك أمامه من سبيل سوى أن يحتمل ما استطاع الاحتمال ، فلما ضاقت نفسه بالاحتمال هجر الناس وحياتهم ومجتمعاتهم بكل ما تفيض به نفسه من نقمة وحقد على الناس وحياتهم إلى حياة أخرى يستطيع أن يخلو فيها إلى نفسه وآلامـــه وهمومه ، ويستطيع أيضاً أن ينتقم لنفسه من الناس جميعا بكل أساليب الصعلكة من غزو وسطو وقطع للطريق وأن ينتقم لنفسه من الذين تركزت عداوته عليهم وهم بنو سلامان ، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا .

الشنفرى والشعر

والشنفرى كما تكرر القول لم يكن فى أغلب صفاته إلا صعلوكا، يشترك مع الصعاليك فى هذه الصفات ، غاية الأمر أنه يحظى بالتفوق فيها ، ويمكن إجمال ذلك فى أنه صعلوك ممتاز أو متفوق . وكذلك كان بالنسبة إلى الشعر ، فهو فى أغلب جوانب الشعر يشارك الصعاليك ، سواء فى المنهج أو الأغراض أو الطابع العام للشعر ، وهذه نقطة مهما احتاجت إلى التكرار فلا ينبغى ، وليس من الدقة العلمية أو التاريخية إغفالها ، من حيث إنه فرد من طائفة تشاركه معظم صفاته ، ومعظم مزاياه ، لأن هذه الصفات وهذه المزايا إنما جمعتها ووحدت بينها ، وساعدت على إبرازها ونضوجها حياة الصعلكة ، فهو إذن يسهم على منهج الصعاليك فى طابع شعره كله ، وإنما يمتاز عنهم بالتفوق فى طابع شعرهم وجوهره ، فكما كان هو صعلوكا ممتازاً ، فكذلك كان شعره ممتازاً أيضاً بين شعر الصعاليك .

وليس من هدف هذا الحديث استقصاء شعر الشنفرى أو تقويمه تقويماً فنياً دقيقاً ، وإنما هدف الحديث إبراز صورة عامة مجملة عن شخصية الشنفرى من أهم جوانبها التى عرفت بها ، ومن هذه الجوانب الشعر ، فنكتفى هنا بإلمامة موجزة عامة عن شعره ، مراعين أن القسم الأخير من الكتاب يمكن أن يصلح نموذجا للنظرة المتأنية التى تحاول إبراز الشنفرى من زاويته الفنية الأدبية ، وهو القسم الذى يتناول الحديث عن لامية العرب .

أما النظرة العامة إلى شعر الشنفرى فيمكن أن تشمل الجوانب الآتية :

١ - مصادر شعره :

كان المفروض ألا يصل إلينا شىء من الشنفرى أو حتى أخباره ، فما كان التاريخ العام ، أو تاريخ الأدب ليحفل بأسير أو عبد يرعى غنيمات فى طرف من الصحراء، ولا بصعلوك يحترف أساليب منكرة بغيضة من حيث النظرة العامة إليها ، ولولا أنه هو وزملاؤه من سادة الصعاليك وقادتهم ، فرضوا أنفسهم على المجتمع ونفسياته بما أحدثوه فى حياته من تغيير ومن خوف ونحو ذلك

لما عنى بهم رواة التاريخ ، ولولا أن شعرهم كان فيه ما يلفت النظر ويثير الاعجاب ما عنى به رواة الأدب، ولذلك لم يصلنا منه إلا ما يرتبط بأحد أمرين، إما شعر جيد يحرص الناس على استماعه وتناقله ، وإما شعر يرتبط بحادث طريف أو غريب يحرص الناس على استماعه وتناقله ، أعنى الحادث نفسه ، فيتناقلونه مرتبطاً بما قيل فيه من شعر .

ومن هذا التصور نستطيع أن ندرك أن ليس كل ما قاله الشنفرى من شعر وصل إلينا ، بل أغلب الظن أن الكثرة الغالبة من شعره ضاعت بين احتمالين ، أحدهما عدم الرواية أصلا ، والآخر خلال عبور شعره للأجيال والعصور ، فأما عدم الرواية فمن اليسير أن نتصور صعلوكا موغلا فى العزلة والنفور من الناس ، قد يقول شعراً تمليه عليه شاعريته فى أى وقت . وفى أى مناسبة ، ولكن لعدم وجوده فى مجتمع ، وعدم وجود راوية يروى عنه هذا الشعر ، يجعل من شعره مجرد ترانيم شخصية يتغنى بها صاحبها ثم لا تتجاوزه إلى غيره من الناس ، وقد يقول هذا الناس بين الصعاليك قلوا من حوله أو كثروا ، ولكنهم أيضاً مثله منعزلون عن الشعر ، فقد يستمتعون بهذا الشعر ، وقد تعيه ذاكرتهم إلى حين ، ولكن الشعر ليس همهم ، وليسوا هم رواة للشعر ينقلونه إلى المجتمع، فضلا عن أنهم غير حريصين على أن ينقلوا المتعة أو يهدوها إلى المجتمع ، والمجتمع فى جملته عدوهم اللدود ، وهكذا نجد النتيجة أن أغلب ما يقوله الصعلوك تطويه جيوب الصحراء وكهوفها ، وأما ضياع بعض الشعر خلال عبوره العصور، فإن شاعراً كالشنفرى عاش قبل الإسلام بنحو جيلين ، ومضى جيلان آخران بعد الإسلام ، ولابد أن يمر شعره حينما يروى بهذه الأجيال الأربعة قبل أن يصل إلى عصر التدوين فى بداية العصر العباسى، ومن الطبيعى إذا كان المروى فى الجيل الأول كثيراً أن ينقص ويقل قليلا أو كثيراً حينما ينتقل من جيل إلى جيل بالمشافهة لأسباب عديدة لا أظن أنها من الخفاء بحيث تحتاج إلى بسط وتوضيح، هذا بالاضافة إلى سبب رئيسى فى هذا السياق ، وهو وجود الجيل الاول من المسلمين فى طريق الرواية ، ولم يكن لدى هذا الجيل من الفراغ النفسى أو الزمنى ما يجعله يظل منكباً أو مشغوفا بالشعر وروايته ، وخاصة ما كان من محيط الصعاليك وأشعارهم كما هو واضح أيضاً .

ونتيجة لهذا كله كان ماوصل إلينا من شعر الشنفرى غير كثير، بل ما يمكن أن يكون مؤكداً أنه يسير جداً بالإضافة إلى ما ينتظر أن تنتجه شاعرية ضخمة عميقة الغور كشاعرية الشنفرى ، ومن الواضح أن هذه القصائد والمقطوعات القليلة المعدودة التى وصلت إلينا يغلب عليها الإرتباط بأحداث غريبة أو مثيرة، وكانت هذه الاحداث سبباً فى تناقلها ، هذا باستثناء اللامية ، فإنها غير مرتبطة بحدث معين ، ومع ذلك وصلت إلينا كاملة فيما يبدو، لانها كانت قمة فى الجودة، وفى طرافة المنهج ، وفى تميز الموضوع ، وكان هذا من أهم عوامل الحفاظ عليها حتى وصلت إلينا ، وقد جمعت أخيراً قصائد الشنفرى ومقطوعاته ضمن دواوين من مختارات شعر العرب ، أشهرها بمجموعة الطرائف الادبية وهى مطبوعة متداولة ، ومن الواضح أنها منقولة ومجموعة من الكتب القديمة التى تعنى بالأدب والاخبار ، ولذلك كانت الحصيلة أنها مجموعة قليلة من قصائد ومقطوعات كل منها يرتبط بخبر أو حادث ، ومعنى ذلك أن أجود شعر الشنفرى وهو ما يمثل شاعريته مباشرة ودون مناسبة أو ارتباط بحادث لم يصل إلينا منه إلا اللامية ، لأن الرواة الاقدمين لم يعنوا بالنسبة لأمثال الشنفرى إلا بالطرائف والغرائب ، فينقلون الخبر الغريب مصحوبا أحياناً بما قد قيل فيه من شعر ، أما الشعر الذى جادت به شاعرية الشنفرى لمجرد التعبير الأدبى فلم يكن مطلوبا للرواة، أو بمعنى أدق لم يكن له راو، لأن حياة الصعلوك، قاطع الطريق ، لا يتصور معها وجود راوية للشعر ، كما كان مألوفا أن يكون لكل شاعر من مشهورى الشعراء راوية يحفظ شعره وينقله للناس ، ويمكن الإشارة إلى أهم مصادر شعره من الكتب القديمة كما يلى :

١ ـ كتب النقد استجادت بعض شعره ، وخاصة فى طرافة بعض المعانى ، كقول الشنفرى حين هم أعداؤه بقتله بعد أن تمكنوا منه :

لا تَقْبِرونى إن قبرى مُحَرَّمٌ عليكم ولكن أبشرى أمَّ عامر[1]

---

(١) ينهاهم عن دفنه استخفافاً بالموت وأنفة أن يمنوا عليه حتى بالدفن وأم عامر كنية الضبع وهى معروفة بالبحث عن الجيف، يقول إننى أفضل أن أكون طعاما للضبع على أن تدفنونى .

إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى ... وغودر عند الملتقى ثَمَّ سائرى[١]

هنالك لا أرجو حياة تَسُرُّنى ... سميرَ الليالى مُبْسَلا بالجرائر[٢]

فهذه الأبيات بما حملت من معنى طريف انفرد به الشنفرى جعلت كل الرواة والكتب القديمة تقريباً تحرص على نقلها وتدوينها .

٢ ـ كتب الأخبار وجدت فى أخبار الشنفرى التى تشبه الأساطير مادة ثمينة تحرص على اثباتها وإمتاع الناس بها ، وتبع ذلك أن يثبت معها ما قاله الشنفرى من شعر فى هذه المناسبات ، أو ما قاله بعض زملائه من شعر فيه حينئذ ، ومن ذلك كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى .

٣ ـ كتب الأحياء ، مثل كتاب الحيوان للجاحظ ، حين عنيت هذه الكتب بالحديث عن أنواع الحيوان وصفاته وطباعه ونحو ذلك ، وقد وجدت هذه الكتب مورداً لا بأس به من شعر الشنفرى الذى ساق كثيراً من شعره فى الحديث عن بعض أنواع الحيوان ، بحكم معيشته فى بيئة الصعلكة الحافلة بأنواع الوحش وصنوف الحيوان ، فكان يهم هذه الكتب أن تستشهد بمثل هذا الشعر عن الحيوانات التى تعرض لها فى حديثه .

٤ ــ معاجم البلدان مثل كتاب (معجم ما استعجم للبكرى) وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموى) وهذه الكتب ينصب إهتمامها على التعريف بالأماكن من حيث وصفها وتحديد مواضعها ، ويعنيها حين تتحدث عن مكان أن تسوق بعض الشعر الذى ورد فيه ذكر لهذا المكان ، وقد كان شعر الشنفرى حافلا بذكر

---

(١) يعبر الشنفرى عما يتوقعه وهو أن يحملوا رأسه فيعرضوها على القبيلة ويتركوا جسده مكان قتله وثم بفتح الثاء يعنى هناك .

(٢) يعبر فى الشطر الاول عن سخطه على كل شىء يعنى حتى بعد الموت لا أنتظر حياة سارة ، وسمير بمعنى مسامر ومبسل : مسلم ، والجرائر الجنايات التى جناها يريد أنه سيظل إلى الابد فى قبره مرتهنا بما جناه .

الأماكن التى كان يتنقل بينها أو يغير عليها أو التى عرضت له فيها بعض الأحداث أو الذكريات ، فكان من الطبعى أن يرد فيها شعر غير قليل للشنفرى ، ولكن مايؤسف له أن أغلبه أبيات مفردة ، وليس لدينا بقية القصائد التى نقلت منها هذه الأبيات ، وهذا واضح فى الدلالة على أنه فى الفترات الأولى من عصور الرواية والتدوين كانت هناك قصائد أو مقطوعات متداولة للشنفرى أخذت منها هذه الأبيات ، ولم تهتم هذه الكتب بنقلها كلها ، لأن مايعنيها هو البيت الذى تستشهد به لغرض معين .

٥ — معاجم اللغة مثل صحاح الجوهرى وقاموس الفيروز أبادى ، وهذه الكتب تهتم بألفاظ اللغة فى بيان مدلولها واستعمال اشتقاقاتها ، وقد كان فى شعر الشنفرى وسائر الشعر الجاهلى حصيلة مهمة من هذه الألفاظ الغريبة أو القليلة التداول ، فليس بغريب حينئذ أن تهتم هذه الكتب بنقل بعض هذا الشعر الذى يحوى هذه الألفاظ ، ولكن ما استشهدت به هذه الكتب من شعر الشنفرى غير كثير ، فإن شعر الشنفرى فى جملته ، وباستثناء اللامية لم يكن موغلا فى الغرابة ، ولا مبعدا عن التداول ، وإنما يبدو فى أغلبه الوضوح وقرب التناول .

(ب) منهجه :

شعر الصعاليك عامة ، وشعر الشنفرى فى مقدمته ، يلتزم منهجا معينا ، يتميز عن غيره من الشعر ، ويتضح هذا التميز من جانبين :

١ — أحدهما من حيث التقاليد المرعية عند الشعراء فى شكل القصيدة ، وعرض عناصرها ، فإن الشنفرى وكذلك الصعاليك لم يلتزموا مطلعا معينا للقصيدة ، كما كان الشعراء يفعلون ، حين يلتزمون أن يبدأوا المدح مثلا بالغزل وأن يبدأوا الهجاء بصورة من صور السخط ، وأن يجعلوا للقصيدة مقدمة تتمثل فى مطلعها ، بحيث يكون هذا المطلع مدخلا إليها ، ومناسبا لها ، وليس هذا عيبا ، بل كثيراً مايكون من دواعى جمال القصيدة ، ولكن الشنفرى وطائفته لم يلتزموا ذلك ، فلم تكن قصائدهم فى أغلب الأحيان تلجأ إلى هذه المقدمات وإنما تدخل فى موضوعها مباشرة .

وكذلك فى ترتيب العناصر ، فقد تعود الشعراء فى تقليدهم المعروف ، أن يجعلوا القصيدة غالبا عـــدة عناصر ، تتدرج حتى تصل فى العنصر الأخير إلى الموضوع الأساسى للقصيدة ، ويتضح هذا فى المدح ، حيث تبدأ القصيدة بالغزل ، ثم يصف الشاعر حوار بينه وبين من يثبطه عن الرحيل ، ويحاول أن يثنيه عن السفر ، ثم يصف الشاعر الرحلة الشاقة إلى الممدوح ، واصفا راحلته وما كابدته من جهد ، وما لقيت من عناء ، ثم يدخل فى الموضوع وهو المدح ولكن الشنفرى وطائفته لم يفعلوا ذلك فى شعرهم ، وإنما تميز شعرهم بأنه يعمد إلى الموضوع مباشرة ، فتصبح القصيدة عنصراً واحداً فى أغلب الأحيان ، ويندر أن تشذ قصيدة على هذا المنهج .

والذى دعا شعر الصعاليك إلى هذا المنهج أنهم لم يزاولوا الموضوعات التى شاعت فى الشعر ، فهم لا يمدحون لذات المدح ، ولا يهجون قصداً إلى الهجاء . ولا يستهدفون نحو ذلك من الأغراض التى تغلب على شعر الشعراء ، وبالتالى لم يكن شعرهم فى حاجة إلى منهج الشعراء ، فالشاعر العادى إنما يهدف مثلا من ترتيب قصيدته وتقسيمها إلى عناصر ، والتدرج فى هذه العناصر إلى التركيز على مدح شخص ما ، بقصد أن يكون موضع رضا هذا الممدوح ، ومسقط غيثه وجوده ، ولكن الصعلوك لا يحرص على رضا أحد غير رفاقه لأنه يعلم أنه ليس موضع الرضا من أحد ، وإن كان موضع الرضا ، فهو يأنف أن يمد يده أو شعره إلى عطاء مخلوق ، خاصة وأنه يملك أن يغتصب هذا العطاء اغتصابا ، أو يحتال للحصول عليه احتيالا ، وهو يرى أن السؤال جرح للحياء لا يطيقه إباء نفسه ، كما يقول الأجيمر السعدى .

وإنى لأستحيى لنفسى أن أرى أمر بحبل ليس فيـــه بعيرُ
وأن أسأل العبد اللئيم بعيرَهُ وبعران ربى فى الخلاء كثيرُ

والشنفرى يرى أن استفاف تراب الأرض أكرم لنفسه من أن يتطاول عليه أحد أو يمن عليه بفضل ، فيقول معبراً عن ذلك ، وهو أنه كان يستطيع أن يعيش فى كل المتع لولا إباء نفسه وعفتها .

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له   على من الطول امرؤ متطول (١)
ولولا اجتناب الذأم لم يبق مشرب   يعاش به إلا لدى ومأ كل (٢)

ومن أسباب الذم التى يجتنبها الشنفرى أن يتجه بشعره إلى شخص يمدحه ، فيقدم إليه عطاء يحمل المن والتطاول الذى تنفر منه نفسه كل النفور ، فلم يتجه إلى المدح ، وكذلك بقية الأغراض التى شاعت فى الشعر وإذن فلم تكن طبيعة الشنفرى وطائفته مهيأة لما تهيأت له نفوس الشعراء ، ولذلك اختلف شعرهم ، واختلف منهجهم عن الشعراء .

٢ — والجانب الآخر فى تميز منهج شعر الشنفرى يتعلق بالموضوع والمعانى، فالمألوف فى الشعر أنه يطرق موضوعات محددة ، بحيث يكون لكل قصيدة موضوع معين ، ومهما تعددت عناصره ، فهو محدد يمكن أن يقال إنه مدح أو هجاء أو رثاء أو فخر أو نحو ذلك ، ولكن شعر الصعاليك ومنه شعر الشنفرى لا يسلك هذا المنهج ، لأن ظروف حياتهم ودواعى الشعر لديهم تختلف عنها لدى سائر الشعراء ، فحياتهم بكل ما فيها من دواع وأحداث ومشاعر وانفعالات تكاد تكون محصورة فى نطاق الصعلكة وما تنطوى عليه ، ونظرتهم إلى الحياة ، وإلى الناس ، بل وإلى أنفسهم ، إنما تنبع من حياة الصعلكة ، وتتكون بها ، وحياة الصعلوك تدور كلها حول شخصه ، وتتكون كلها بانفعاله ، وصلاته بالناس كذلك أيضاً ، فهو إما مهاجم ، وإما مدافع ، وإما متربص ، وإما متوجس ، وفى كل الأحوال يشعر بأن هناك من يطارده ، وهناك من يتحينون الفرصة للإنقضاض عليه ، ولذلك يجب أن يكون دائماً متيقظاً ، حاضر البديهة، سريع الحركة ، وإذن فالصعلوك يشعر بأن الحياة كلها مرتبطة بشخصه وحياته وسلوكه ، أو بمعنى أدق لا يعنيه من الحياة إلا هذا الشعور .

ومن هذه الزاوية يتضح منهج الصعاليك فى شعرهم ، فشعرهم كله يدور حول

---

(١) الطول بكسر الطاء المن ومتطول بضم الميم وفتح الواو بمعنى منة وتطاول
(٢) الذأم . بمعنى الذم يريد أنه يجتنب ما يحط من قدره

حول حياتهم وأحداثها وانفعالاتها وصلاتها بالناس ، ولا يعنيهم من الحياة أو من الموضوعات إلا ما يتصل بهذا الشعور ، أما الموضوعات التي يطرقها الشعراء لذاتها فلا تعنيهم، ولا يشغلون بها أنفسهم، وإذا طرقوها فإنما يطرقونها لاتصالها بحياتهم في الصعلكة ، ونتيجة لذلك كله نجد شعر الصعاليك أشبه ما يكون بما يسمونه المذكرات الشخصية التي تدور كلها حول شخص صاحبها وحياته وأحداثه ، ومهما تعددت أحداث هذه المذكرات أو تنوعت فلا بد أن تكون مرتبطة بشخص صاحبها ، فقد يتحدث شخص في مذكراته الشخصية عن أنواع عديدة مختلفة من المواقف والأحداث ولكنه إنما يسوقها لأنها مرتبطة به ، فقد يتحدث عن حب ، وقد يمدح شخصا ، وقد يذم آخر ، وقد يسوق قصة ، وقد يحكي انفعالا راضياً أو ساخطاً أو غير ذلك ، ولكنه في كل حال إنما يسوق ما يسوق لأنه متصل به هو ، ولا نتصور شخصاً يكتب مذكرات شخصية ليحكي فيها حياة شخص آخر أو أحداث أحد غيره ، فإنها حينئذ تكون قصة أو تاريخا أو شيئاً آخر ، ولكنها لا تكون مذكرات شخصية .

فالشنفرى مثلا طرق كل الموضوعات التي يعرفها الشعر تقريباً ، ولكنه لا يعنيه منها إلا ارتباطها بشخصه وحياته ، فهو يمدح ، وأحيانا يكون مدحه قويا عميقاً مستفيضا ، ولكننا حين نبحث عن ممدوحه نجده رفيق حياة ، وزميل مشقة ، كما مدح تأبط شرا مطنبا ومبدعا في مدحه ، لأنه كان ألصق الرفاق به في الصعلكة ، وكان يشرف على مئونتهم، ويتولى تنظيم المطعم والمشرب خلال غاراتهم في الصعلكة ، وهي نواح تعني الشنفرى وتؤثر في حياته ، وقد هجا ولكن مهجويه كانوا إما ضحايا غاراته ، وإما من أعدائه ومطارديه ، فهو لا يهجوهم لذاتهم ، وإنما لأن بينه وبينهم ما يعنيه ويؤثر في حياته، ونجد الشنفرى أيضاً يصف الطبيعة ، بل يكاد يكون قد استوعب وصف كل ما تشتمل عليه بيئة الصعاليك ، من جبال ومراقب[1] ورمال وأمطار ، ومن حر وبرد ، ومن حيوان الصحراء وطيورها ، وحشراتها وهوامها ، وغير ذلك ، ولكنه في كل شيء إنما يهدف إلى ما يتعلق بشخصه وحياته من ذلك، فقد يصف البرد أو الحر،

---

(١) المرقبة المكان الذي يتخذ كمينا للمراقبة في رأس الجبل .

ويمضى فى وصفهما كما فصل فى اللامية، ولكنه لا يسوق ذلك لذاته، وإنما يريد أن يصف كيف أن قوة المناخ مهما اشتدت لم تكن لتثنيه من إنفاذ عزمه، وتحقيق هدفه فى أعدائه، وكذلك يصف الذئاب، ولكن لا لذاتها، وإنما لأنها تنافسه فى معشيته وفى صيده، ويصف القطا أيضاً ويعنيه من ذلك كيف أنه كان أسرع منها إلى الماء، وهكذا.

وإذن فمنهج الشنفرى أنه يسلك أسلوب المذكرات الشخصية التى تدور حول شخص صاحبها وحياته وانفعالاته، ولا تهتم كثيراً بشىء خارج هذا النطاق.

(ج) مميزاته الشعرية :

وكما كان الشنفرى صعلوكا ممتازاً متفوقاً على أبناء طائفتــــه فى مزاولة الصعلكة، كذلك كان شعره ممتازاً متفوقا على شعر الصعاليك رغم مشاركته لهم فى الخصائص العامة.

وقبل أن نتحدث عن تفوقه الشعرى تنبغى الإجابة عن تساؤل يتعلق بهذا التفوق، وهو إذا كان الشنفرى متفوقاً على أبناء مهنته فلم لم يكن زعيما أوسيدا فيهم؟ كما كان مثلا عروة بن الورد الذى كان يقود من يلتفون حوله من الصعاليك، وكانوا يسلمون إليه زمامهم وقيادهم، وكما كان عامر بن الأخنس الفهمى الذى كان يقال له سيد الصعاليك[1] حيث كان دائما رئيساً لمن يشاركونه الغزو من الصعاليك، وكما كان تأبط شراً الذى كان يسند إليه رفاقه ومنهم الشنفرى أمر الإشراف عليهم وتنظيم حياتهم المعيشية حين يغزون. والإجابة عن ذلك أن التفوق فى المهنة أو فيما يتعلق بها شىء والزعامة شىء آخر، فقد يبلغ شخص من المهارة أو النبوغ ما يبلغ بين أفراد مهنته أو مجتمعه ولكنه لا يصلح زعيما لأنه لا يحمل مقومات الزعامة، هذا فضلا عن أن الزعامة كان من أهم مقوماتها النسب، والشنفرى كان أسيراً أو مستعبداً فى غير قومه فلا ينبغى له أن يتطلع إلى أى صورة من صور الزعامة مهما كانت مواهبه، ومهما بلغت كفاءته، أما عروة بن الورد مثلا فقد كان واضح النسب وواضح العصبية فى قبيلته بنى

(١) أنظر الأغانى للأصفهانى ٢١-١٦٥.

عيسى ، وأبوه كان من البارزين المرموقين فيها ، وكذلك تأبط شراً كان فى قومه بنى فهم ، وهم الذين كان الشنفرى أسيراً فيهم بادىء الأمر ، فحينما يجتمع هو والشنفرى فى مكان أو طائفة ، فلا يستطيع الشنفرى وإن كان أكفأ منه أن يتطلع إلى زعامة الطائفة أو عصابة منها ، ولا يقبل أفراد الطائفة ذلك من الشنفرى ، وقد يسلمون بأنه أبرعهم فى الصعلكة ، ولكنهم لا يسلمون قيادهم له . على أن هذا الحديث يعتبر جانبياً فرعياً رغم ارتباطه بالموضوع ، أما صلب الحديث فهو أن نعود إلى بدء هذه النقطة فنقول : وأما ما يمتاز الشنفرى بالتفوق فيه عن غيره من الشعراء فيمكن أن نتمثله واضحاً بارزاً فى ناحيتين .

١ — إحداهما دقة الحس بصورة تثير العجب ، حيث نجد الشنفرى كثيراً ما يركز انتباهه وحواسه ليلتقط شيئاً قلما يأبه غيره بالوقوف عنده أو الاهتمام بوصفه والحديث عنه ، وما أكثر ما عنى الشنفرى بمثل هذه الأشياء التى قد يراها غيره تافهة أو يسيرة الشأن ، أو ليس فيها مادة شعرية تدعو إلى الوصف والتعبير ، فنراه مثلا فى اللامية يقف بشاعريته عند سرب من النحل واصفاً فى إبداع صورة كاملة رغم إيجازها لحياة هذا السرب وكيف أنه عاد إلى خليته ففوجىء بأن بيوته قد عدا عليها بعض جامعى العسل ففعلوا بهذه البيوت ما فعلوا من تخريب ، وكيف أن النحل أقام مأتماً صاخباً حينئذ على هذه الكارثة ، وكيف أنه بعد حين لم يجد لهذا المأتم نفعاً فاضطر إلى استئناف حياته من جديد ، وخلال ذلك نجد حاسة الشنفرى فى وقتها لا يفوتها أن تمعن فى وصف هذه الأصوات التى تصدر عن النحل فى مختلف جوانب هذا الموقف . كما يقول فى وصف مأتم النحل عن رئيس النحل واسمه الخشرم أو ما يعرف فى العلم الحديث بملكة النحل ، وعن جماعة النحل حينئذ .

فضج وضجت بالبراح كأنها ... وإياه نُوح فوق علياء ثُكَّل(١)

(١) ضج يعنى رئيس النحل ، وضجت جماعة النحل ، والبراح : الأرض الفضاء ، ونوح : جمع نائحة ، والعلياء القطعة المرتفعة من الأرض ، وثكل جمع ثكلى وهى فاقدة ولدها يصف أصوات النحل وصخبه وحيرته حينما وجد بيوته معدياً عليها .

وكذلك نجد دقة حس الشنفرى فى مواضع كثيرة منها وصف الذئاب حين يقسو عليها الجوع ، وكيف أن الذئب خرج أولا بمفرده يبحث عن طعامه، وأعياه البحث والجهد ، فلما قسا عليه الجوع عوى مستعينا ومستغيثاً بفصيلته من الذئاب ، فأجابته ذئاب جائعة مثله ، وحاسة الشنفرى لا يفوتها حينئذ شىء مما يبدو على هذه الذئاب ، فهو يصف تحول أجسامها ، ولون وجوهها الذى يشبه الشيب ، ومقدمة هذه الوجوه التى تشبه السهام وهكذا .

ولكن شيئا معينا نلاحظ أن الشنفرى كان مفتوناً به أشد الفتنة ، وهى القوس ، فقد بلغ من افتتانه بقوسه ، أن رصد كل حركتها ، وتابع بحاسته الدقيقة حتى صوتها ، ولم يكتف بمجرد وصف هذا الصوت مرة أو فى صورة واحدة ، وإنما تفنن فيها تفننا يلفت النظر ، ويثير الإعجاب بحاسته التى تنفرد بالمقدرة الواضحة على إبراز هذه الأشياء الدقيقة التى لا يكاد أحد أن يقف عندها .

ومن بين أوصافه المتعددة لقوسه فى شكلها وتركيبها وأجزائها والمادة التى صنعت منها ونحو ذلك ، من هذا كله نختار مثالا لما يعنيه سياق الحديث وهو دقة حس الشنفرى ، فلننظر كيف تابعت حاسة الشنفرى صوت السهم حين ينطلق من قوسه ، فنراه مرة فى اللامية يشبه هذا الصوت الحزين المكتوم بصوت امرأة مفجوعة بالثكل ، فهى تنوح أو تئن أنينا حزينا عميق الحزن فيقول :

إذا زل عنها السهم حنت كأنها مُرزأة ثكلى ترن وتعول[1]

وفى قصيدة أخرى تتعدد أوصافه وتشبيهاته فى متابعة حسه الدقيق لهذا الصوت فيقول :

وصفراء من نبع أبى ظهيرة ترن كإرنان الشجى وتهتف[2]

(١) زل : خرج وانطلق . مرزأة : كثيرة الإرزاء والمصائب . تعول : من العويل وهو نوع من النواح .

(٢) الصفراء القوس . والنبع شجر صلب تتخذ منه القسى . ظهيرة : معينة . الشجى : ذو الهموم .

كأن حفيف النبل من فوق عجسها ... عوازب نحل أخطأ الغار مطنف(١)

في البيت الأول منهما يتخيل الشنفرى هذا الصوت كأنه صوت شخص أثقلته الهموم ، فهو يتأوه أو يئن مرسلا شجنه وهمومه مع هذا الصوت المكتوم ، وفي البيت الثاني يتخيل الصوت كأنه دوى نحل حائر مضطرب ، حين ضل طريقه إلى غاره ، فانتهت به الحيرة إلى رأس الجبل نائحا حزينا يندب حظه وخيبة أمله .

ثم يتحدث في القصيدة نفسها عن السهم معبراً أيضا عن صوت انطلاقه من القوس ، فيشبهه بصوت زفيف الريح حين تواصل هبوبها على نوع من الزرع ، فما أشبه صوت السهم حينئذ عند الشنفرى بصوت الزرع أو الشجر حين تتداعى أوراقه أمام هبوب الريح الشديدة فيقول :

وتابعت فيه البرى حتى تركته ... يزف اذا أنفذته ويزفزف(٢)

وفي قصيدة أخرى يتخيل الشنفرى صوت قوسه نواحا أول الأمر ، ثم أنينا متصلا عميقا كأنه أنين شخص كثرت فيه الجراح والشجاج . فيقول .

فناحت بكفى نوحة ثم رجّعت ... أنين الأميم ذى الجراح المشجج(٣)

وليس غريبا أن يكون للقوس عند الشنفرى مثل هذا الاهتمام ، فالصعلوك يعتمد أكثر ما يعتمد على القوس التي يستطيع أن يتخذ منها في مكمنه سلاحا ماضيا نافذا في المدد والهدف ، وحياة الصعلوك لا تعتمد على المواجهة بالسلاح ، وإنما تعتمد على التخفي حينا ، وعلى المطاردة أو الهروب حينا آخر ، وفي كل ذلك ليس لديه سلاحا أنجح ولا أمضى من القوس ، فاهتمام الشنفرى بقوسه إذن

---

(١) الحفيف الصوت . والعجس بتثليث العين مقبض القوس . عوازب : ذواهب . مطنف . الطنف رأس الجبل .

(٢) البرى تهذيب السهم يزف : يشبه صوته بزفيف جناحي الطائر عند الطيران ، والزفزفة من معانيها تحريك الريح لصوت الحشيش حين تهب عليه .

(٣) رجعت يعني هدأ صوتها . الأميم : المضروب على أم رأسه . والمشجج الذي كثرت شجاجه وهي الجروح وخاصة في الرأس .

وليس غريباً ولا عجيباً ، وإنما الغريب العجيب أن تستطيع حاسته الدقيقة المرهفة التقاط هذه الأمور الدقيقة التي تبدو كأنها يسيرة أو عادية أو هينة الشأن، ولكن الشنفرى يجعل منها مادة لشعره ، في صورة بالغة الدقة والجمال .

وهكذا نجد هذه الدقة واضحة متميزة في شعره وخاصة في اللامية .

والناحية الأخرى مما يبدو فيه تفوق الشنفرى تركيزه على العمق النفسي ، بمعنى أن المتأمل في شعر الشنفرى يلاحظ أنه لا يكتفي بمجرد الوصف أو إبراز المواقف ، أو تحديد صفات ظاهرة ، وإنما يحاول بتركيز أن يبرز لنا نفسية من يدور حوله الحديث ، محاولا أن يتعمق في هذه النفسية ، وأن يستشف ما بها ، ثم يصوغ ذلك في صورة يحاول أيضاً أن تكون واضحة من خلال شعره مهما كان التعبير موجزاً .

فهو حين يتحدث عن نفسه نراه يهتم بأن يبرز لنا ما تنطوى عليه نفسه في كل حال يتعرض للحديث عنه . وقد تحدث عن سائر أحواله ، تحدث عن صلته بالناس حين يرضى وحين يسخط، وتحدث عن حياته المعيشية وتقلبه بين أحوال وملابسات عديدة ، وتحدث عن هذه الأحوال والملابسات التي تحيط به ، بما فيها من أناس وحيوان وغير ذلك ، وفي كل ذلك نجده لا يكتفي بوصف حاله أو حال ما يحيط به، وإنما يزيد على ذلك أن يجعلنا نكاد نرى ما تختلج به نفسه، وما يضطرع فيها حين يكون هناك صراع ، فيتحدث عما يراود نفسه من قلق أو توجس ، وما يعانيه من صراع بين ألوان شتى من جوع وهموم ومخاوف .

وكذلك حين يتحدث عن غيره ممن ترتبط بهم حياته ، سواء أكانوا من رفاقه كتأبط شراً ، أم كانت تربطه بهم مشاعر أو عواطف ، كالنساء اللاتي وردن في شعره متغزلا بهن ، أو مثنياً على عفتهن وخلقهن ، ومنهن أم عمرو وأميمة ، وإن كان أغلب الظن أنها أسماء مستعارة ، وليست الأسماء الحقيقية لمن يعنيهن حديثه، إلا أنه وهو المهم في سياق الحديث يحاول أن يتجاوز الوصف المظهرى إلى العمق النفسي .

بل إننا نلاحظ كأن نزعة التعمق أو التحليل النفسي قد غلبت على الشنفرى فهو يحاول من خلالها أن يستشف بعض ما يشاركه البيئة من الحيوان ، كالذئاب

والنحل والقطا ، ونحو ذلك مما يبدو واضحاً فى شعره ، وخاصة فى اللامية .

ومن أمثلة هذه النزعة الواضحة فى شعر الشنفرى قوله فى اللامية عن نفسه :

وإلفُ هموم ما تزال تَعُودُهُ ... عِياداً كحُمَّى الرِّبعِ أو هى أثقلُ
إذا وَرَدتْ أصْدرْتها ثم إنها ... تثوبُ فتأتى منْ تحيْتٍ ومن علِ

فكثير من الشعراء وغير الشعراء تحدث عن الهموم واصفا آثارها ومظاهرها ، وما تتركه فى صاحبها من ذبول ، وما تفرضه عليه من أرق وسهد وغير ذلك ، ولكن الشنفرى يتجاوز ذلك القدر الذى يفترض عادة أنه معروف ومتوقع ، ليغوص بنا فى أعماق نفسه ، مبينا لنا ذلك الصراع الرهيب بينه وبين الهموم فى أعماق نفسه ، وكيف أنه يظل يجهد نفسه فى صرف الهموم وإصدارها عن نفسه ، ثم لا يكاد يطمئن إلى انصرافها عنه حتى تعود فتطبق عليه من فوقه ومن تحته ومن كل وجه ، ثم يتكرر صراعه فى صرفها ، ويتكرر هجومها عليه من كل وجه ، حتى ترتب على هذا التكرار أن ألف الهموم وألفته ، أو ألف هذا الصراع مع الهموم ، وحتى ترتب على هذا التكرار وهذا الإلف أن أصبح يكاد يعرف مواعيد قدوم الهموم ، ومواعيد انصرافها أو قدرته على صرفها ، كما يعرف صاحب حمى الربع(١) مواعيد تردد الحمى وانصرافها .

ومن الطريف أن من أحدث ما توصل إليه علماء النفس أن موجات الهم والانقباض تأتى لمن تتردد عليهم فى فترات محددة ، بحيث يستطيع الشخص أن يسجل بالملاحظة هذه المواعيد فيعرفها مقدما ، وهذا مما يؤكد صدق الشنفرى فى شعره ، وأنه إنما يعبر عن تجربة وواقع حياة .

ومن هذا يتبين أننا إنما نعنى بالمميزات الشعرية للشنفرى الدرجة أو المجال الذى تجاوز به غيره من الشعراء ولا نعنى بالمميزات نقداً لشعره ، أو بيانا للجوانب التى تلفت النظر إليه .

---

(١) الربع من الحمى (بكسر الراء) أن تأخذ الحمى صاحبها يوما ثم تدعه يومين ثم تعود وهكذا .

نهاية الشنفرى

وانتهت حياة الشنفرى بقصة تتفق الروايات على هيكلها وإن اختلفت فى بعض تفاصيلها ، ومؤداها أن أعداءه طالما تربصوا به ورصدوا له فلم يتمكنوا منه ، وكان يعينه على التخلص من الأخطار أمران ، أحدهما يقظته العجيبة فى الإحساس بالخطر ثم التخلص منه ، حتى ضرب به المثل فى الحذق والدهاء (١) ، والأمر الآخر سرعته الخارقة فى العدو حتى ضرب به المثل أيضاً فى العدو (٢) وينقل الأصفهانى صورة من مقدرة الشنفرى فى العدو فيقول « ذرع خطو الشنفرى ليلة قتل فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة ، ثم الثانية سبع عشرة خطوة » (٣) .

ولما حانت منية الشنفرى قدر لأعدائه أن يظفروا به ، فقد ترصد له ثلاثة من أعدائه ذات ليلة ، هم خازم الفهمى ، وأسيد بن جابر السلامانى وابن أخ له لم تسمه الروايات ، فمر عليهم الشنفرى فأحس بهم ، وكان لا يحس خطراً ولا يرى سواداً إلا رمى صوبه ، فرمى فشك ذراع ابن أخى أسيد إلى عضده ، فلم يتأوه ، فقال الشنفرى : إن كنت شيئا فقد أصبتك ، وإن لم تكن شيئاً فقد أمنتك ، واستمر فى سيره حتى أصبح على رأس الرصد ، وكانوا منبطحين على الأرض ، فلما دنا منهم قال أسيد لخازم : اسلل سيفك ، ولكن الشنفرى كان إلى سيفه أسرع ، فأهوى به إلى خازم ، ولكنه لم يصب غير أصبعين من يده ، وحينئذ كانوا قد أطبقوا عليه ، ولكن الشنفرى استطاع أن يصرع اثنين منهم تحته ، وهما خازم وابن أخى أسيد ، وجاء أسيد فنزع سلاح الشنفرى منه ، حيث استطاع المصروعان أن يتشبثا بالشنفرى وهما تحته فشلا حركته ، وحين استطاع أسيد أن يجرده من سلاحه

---

(١) انظر شرح الخطيب التبريزى لحماسة أبى تمام ١٨٨/١

(٢) مجمع الأمثال ٤٦/٢

(٣) الأغانى ١٨٥/٣١ وذرع : قيس . والنزوة : القفزة .

أصبح فى قبضتهم ولكنه لم يستسلم ، فأمسك أسيد برجل ابن أخيه وقال : رجل من هذه ؟ قال الشنفرى مغرراً به : هى رجلى ، فقال ابن أخى أسيد : بل هى رجلى ياعم ، وحينئذ قبضوا على الشنفرى ونقلوه إلى قومهم ، وأرادوا أن يشفوا نفوسهم المتأججة بالنقمة عليه ، فبدأوا بتعذيبه نفسيــاً وجسدياً ، فقالوا له : أنشدنا ، يريدون : أسمعنا من شعرك ، قال : (إنما النشيد على المسرة) فذهبت مثلا . ثم ضربوا يده فأصيبت ولم تنفصل عنه ، فقال فى ذلك شعراً يرثى يده ، ويفخر بما أدته هذه اليد من عظائم ومشاهد ، ثم قال له قائلهم : أأطرفك ؟ قال الشنفرى : كذلك كنا نفعل ، وكان إذا أراد قتل واحد منهم قال له : أأطرفك ؟ ثم يرمى عينه ، ثم قالوا له حين أرادوا قتله : أين نقبرك ؟ فإذا هو يستنكر أن يقبروه ، وهو يعلم أنهم لابد أن يحتزوا رأسه ويفصلوها عن جسده ، لتكون راحة لنفوسهم وشفاء لقلوبهم ، فيقول لهم فيما يشبه السخرية العميقة المدلول : إن مايبقى بعد رأسه ليس ذا شأن ولا يستحق الاهتمام به ، وذلك فى قوله :

لا تقبرونى إن قبرى محرم   عليكم ، ولكن أبشرى أم عامر (١)
إذا حملوا رأسى وفى الرأس أكثرى   وغودر عند الملتقى ثمّ سائرى (٢)
هنالك لا أرجــو حياة تسرنى   سمير الليالى مبسلا بالجرائر (٣)

وقد أثرت هذه الأبيات بطرافتها وجرأتها وعمقها فى نفوس القدامى من النقاد

---

(١) الأغانى للأصفهانى ٢١/١٨٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٧٠ وأم عامر كنية الضبع وهى مشهورة بأكل الجيف ، يبشر الضبع بأنه سيكون طعاما لها وهو يرفض أن يدفنوه تعففا أن يكون لهم عليه أى صنيع حتى فى دفنه .

(٢) الملتقى مكان الموت وثم : هناك يعنى أن جسدى بدون رأسى ليس مهما .

(٣) تكملة للبيت السابق يقول إن مما يزهدنى فى الدفن أننى لا أنتظر نعيما ولا سعادة فى قبرى بل على العكس ينتظرنى العقاب الطويل المدى على جرامى ففى البيت إشارة إلى إيمانه بالثواب والعقاب فى الآخرة . وسمير الليالى يعنى طوال الليالى ومبسلا بالجرائر يعنى مرهونا بالجرائم .

والمؤلفين ، لحرص معظمهم على إثباتها فى مؤلفاته .

وبعد ذلك قتلوه .

وقد رثاه رفيقه وصديقه تأبط شراً ، معدداً بعض مآثر الشنفرى وآثار شجاعته، معاهداً إياه أن يبقى وفياً للصعلكة وغاراتها ، وألا ينسى ثأره للشنفرى ، ومن هذا الشعر قوله :

على الشنفرى سارى الغَمام ورائح	غزيرُ الكُلى، وصَيِّبُ الماء باكرُ
عليك جزاء مثل يومك بالجبا	وقد أرعفت منك السيوف البواتر
فإنك لو لاقيتَنى بعد ما ترى	وهل يُلْقين مَنْ غيَّبته المقابر
لألفيتَنى فى غارة أنتمى بها	إليك وإما راجعاً أنا ثائرُ

فى البيت الأول يدعو لقبر الشنفرى بأن يسقى من الغمام الغزير الماء والكلى جمع كلوة وتطلق على المنخفض من السحاب ويعنى بها الماء نفسه ، والباكر الذى يستقبل النهار فى أوله .

وفى البيت الثانى الجبا موضع بين مكة والمدينة ، يشير إلى موقعة للشنفرى فى هذا المكان ، وإلى أن سيوف الشنفرى يومئذ أرعفت يعنى سالت بالدماء الغزيرة من الأعداء ، قائلا إنه يكفى من الغمام أن يمطر قبر الشنفرى مقدار هذه الدماء إذن يكون سقياً عظيما غزيراً .

وفى البيتين الأخيرين يقول إنك لو لاقيتنى مع افتراض لقاء الموتى فإنك ستجدنى بين حالين لا ثالث لهما ، إما مزاولا لغارات الصعلكة وفاء لرفقتنا فيها ، وإما منتقما لك ، وثائراً لدمك من قاتليك .

وهكذا انتهت حياة الشنفرى ، ولكن الروايات جميعاً تصر على عدم الاقتناع بأن الموت أخبا هذه الشعلة ، وأسكن هذه العاصفة ، فتضيف إلى الشنفرى فترة لاحقة بعد موته ، وكأنها امتداد لحياته ، وذلك أنه كان قد أقسم ليقتلن من بنى سلامان مائة رجل ، وكان حين أدركه الموت لم يقتل إلا تسعة وتسعين ، فتؤكد

الروايات بإجماع أن أحد بنى سلامان عثرت رجله فى جمجمة الشنفرى فعقرت فمات، فكملت به المائة . بل إن بعض الروايات تتحدث عن الشنفرى بعد موته وقبل أن تكمل المائة وكأنه ما زال متربصاً أو متحينا أن يوفى بقسمه ، وهذه رواية الأصفهانى تقول « فقتلوه وصلبوه ، فلبث عاما أو عامين مصلوبا وعليه من نذره رجل . فجاء رجل منهم كان غائباً ، فمر به وقد سقط فركض رأسه برجله ، فدخل فيها عظم من رأسه فعلت عليه فمات منها ، فكان ذلك الرجل هو تمام المائة » (١) .

ومع أن إجماع هذه الروايات لايؤدى إلى الجزم بصحة هذه الحادثة، ففى نفوس الناس ولع بالغريب والطريف ، ويكفى أن يخترع شخص فى بداية الأمر قصة يحاول إلباسها ثوب الحقيقة لينقلها عنه كثير من الناس عن حسن ظن أحيانا، وعن جهل أو تجاهل أحياناً أخرى ، نقول مع أن إجماع هذه الروايات لا يؤدى إلى الجزم بصحة هذه الحادثة إلا أنه ليس هناك ما يمنع من حدوثها ، وليس فى حدوثها ما يصطدم بالعقل أو ما يدخل فى باب المحال ، وأيسر ذلك المصادفة ، فليس هناك ما يمنع أن تتصادف عثرة رجل بعظام ميت ، ويكون الميت هو الشنفرى وبخاصة أنه أوصى ألا يدفنوه ، ولم تتحدث الروايات أنهم خالفوا وصيته ودفنوه ، ومن المحتمل القريب حينئذ أن يؤدى هذا الجرح مهما صغر إلى تسمم فى الجسم فيودى بصاحبه .

ليس هذا بغريب ، بل ما هو أبعد من ذلك ليس بغريب ، والأبعد من ذلك أن يكون الشنفرى بعد موته أعنى روحه قد فعلت ذلك ، وأيسر الإلمام بما أفاض فيه الباحثون حول الأرواح ومقدرتها على الحركة والعمل فضلا عن الادراك والعلم، أيسر الإلمام بذلك يذهب الغرابة عن هذه القصة ، ولا يجعل حدوثها من روح الشنفرى بعد موته غريباً ولا بعيداً ، بل إن ذلك لايصطدم بالدين اصطداما ، فالدين لاينفى فيما يتعلق بالروح شيئا ولايثبته ، وإنما يفوض أمره إلى الله سبحانه

---

(١) الأغانى ٢١/١٦٤

الذى اختص فيما اختص به بعلم الروح « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (١) .

وكما أن الروايات لم تستطع تحديد بداية حياة الشنفرى فكذلك لم تستطع تحديد نهايتها ، ولكن المرجح بوضوح أنها كانت فى الجيل السابق للإسلام مباشرة حيث إن آمنه أخت تأبط شراً وهو صديق الشنفرى تزوجت من نوفل بن أسد القرشى وأسلم عدى بن نوفل فى السنة الثامنة للهجرة .

---

(٢) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

لامية العرب

تثير هذه القصيدة قضية ذات بال فى الأدب العربى من حيث التنازع عليها بين العرب والعجم ، ومعنى ذلك أنها ليست قصيدة عادية أو يسيرة الشأن ، فالواقع أنها درة لامعة فى الأدب العربى كله ، وقد تكون هناك قصائد أتيح لها قدر كبير أو صغير من الشهرة والذيوع لارتباطها بأحداث معينة ، ولكنه لا تعرف قصيدة أخرى فى الشعر العربى كله تنافس لامية العرب فى موضوعها بالذات ، وفى مقدرتها على تصوير لون من الحياة العربية هو حياة الصعلكة ، وعلى التعبير عن حياة طائفة من المجتمع العربى وهم الصعاليك ، وعلى وصف بيئة معينة فى الجزيرة العربية ، هى البيئة التى اتخذ منها الصعاليك ميداناً لنشاطهم ، ومركزاً ومنطلقاً لغاراتهم ، بما تشتمل عليه هذه البيئة من خصائص فى طبيعتها وفى حيوانها وفى مناخها ، وقد صيغ ذلك كله فى ثوب شعرى واضح الجودة بل واضح التميز والتفرد ، ولسنا فى هذا التمهيد نريد التعرض لنقد القصيدة أو الحديث عن مزاياها فإن لذلك موضعه فيما نستقبل من الحديث ، وإنما نشير بذلك إلى الأهمية التى جعلت هذه القصيدة تحتل هذه المكانة حتى تصبح موضع تنازع بين الشعوب على ما فى هذا التعبير من تجاوز ، فالواقع أنه لم يكن ينبغى أن يثار حولها نزاع ، فإنها قصيدة عربية خالصة ، لشاعر معين مشهور هو الشنفرى ولكنها لما تمثله من قيمة أدبية فريدة تعرضت فى القديم لمحاولة تشبه السطو ، ولكنها لم تنجح لأنها كانت محاولة غير قوية من جهة . وكانت كل الظروف ضدها من جهة أخرى ، ثم الغريب أن تعود هذه المحاولة بعد أكثر من ألف عام من المحاولة الأولى ، وللغرض نفسه ، وهو محاولة سلخها من النسب العربى فى صورة التشكيك فى نسبتها إلى الشنفرى ، وادعاء نسبتها إلى خلف الأحمر .

ولتوضيح ما ينطوى عليه هذا الإجمال يمكن أن نعرض جوانب هذه القضية فى النقاط الموجزة الآتية(١) .

(١) انظر الفصل الخاص بلامية العرب من كتاب شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للمؤلف

أولا : فى القـــديم

١ — صاحب لامية العرب هو الشنفرى ، وقد ظل المجتمع العربى بما فيه من شـــعراء ورواة ونقاد يعرف ذلك ولا يرتاب فيه عدة أجيال متوالية ، منذ الجاهلية حتى العصر العباسى ، ثم احتدم الصراع والتنافس العنصرى بين العرب والعجم ، وأصبح واضحاً عنيفاً بعد أن كان خفياً لينا ، وحينئذ عم التنافس حتى غطى كل جوانب الحياة والمجتمع ، فما يكاد العرب يفخرون بشىء حتى ينبرى العجم أو من يسمون حينذاك الموالى فيفاخرونهم بشىء مماثل ، ومن الواضح أن الشعر كان من أهم ما شغل به العرب وتنافسوا فيه وحرصوا عليه فى كل عصورهم القديمة ، وأنه لم يستطع شاغل آخر أن يشغلهم عنه ، بل كانوا يتحايلون فى أحلك المشاغل وأهم المواقف ليكون الشعر عوناً لهم عليه ، ومؤانسة لهم فيه ، ولذلك كان من الطبيعى أن يكون الشعر من ميادين التنافس بين العرب والعجم ، فإذا كان فى العرب شعراء ، فليكن فى الموالى شعراء ، وإذا كان شعر العرب جيداً فليحاول شعراء الموالى أن يكون شعرهم منافساً لهذه الجودة إن لم يتفوق عليها ، وإذا كان فى تاريخ العرب شـــعر أو أدب يعتز به ، فليبرز العجم ما فى تاريخهم من أدب يعتز به ، وهكذا فيما عرف بالحركة الشعوبية التى تمثل الصراع والتنافس بين الشعب العربى والعنصر غير العربى ، وخاصة الفارسى .

وهذه اللامية لم ينازع أحد فى أنها درة أدبية متميزة ، وإذن فهى مما يعتز به الأدب العربى ، ومما يحرص العرب على إبرازها حين يفاخرون بما فى أدبهم من درر وروائع ، وحين نضع أنفسنا موضع المتصور لمجتمع متنافس الطوائف والعناصر ، نجد أن هذا التنافس يمثله أو يتصدى له عادة أفراد فى كل مجال من مجالات السياسة والاقتصاد والأدب وغير ذلك ، بمعنى أن أفراداً من كل فريق عادة هم الذين يتصدرون هذا الصراع أو التنافس فى كل ميدان ، وبقية الفريق يقف من خلفهم مشجعاً ومتابعاً ، ولكن الظاهر المتصدر هم هؤلاء الأفراد ، حتى ليبدو لمن يتابع الصراع من خارج الفريقين أنه صراع بين أفراد ، وليس بين فريقين أو عنصرين .

واستمرت نسبة اللامية إلى الشنفرى دون أى شـــك فيها أو غبار حولها نحو أربعة قرون ، نحو قرن قبل الإسلام ، ونحو ثلاثة قرون بعده ، ثم سمعت همسة خافتة بأن هذه اللامية لخلف الأحمر ، وليست للشنفرى ، والذى نقل هذه الهمسة الوحيدة الخافتة هو أبو على القالى الذى عاش فيما بين سنتى ٢٨٨ هـ ٣٥٦ هـ ، وقد كان دقيقاً وأميناً فى نقل هذه الهمسة حيث حدد مصدرها صراحة وبين رأيه فيها ضمناً ، أما عن مصـــدرها فقد نقل عن أستاذه أبى بكر بن دريد الذى عاش من سنة ٢٢٣ هـ إلى سنة ٣٢١ هـ أن هذه اللامية المنسوبة إلى الشنفرى هى لخلف الأحمر ، وذلك فى سياق حديثه عن خلف الأحمر ، وأما عن رأيه فى هذه الهمسة فهو وإن لم يناقشها صراحة فقد كان رده الضمنى عليها أبلغ من التصريح ، حيث ذكر هذه الهمسة أو الغمزة فى الجزء الأول من كتابه الأمالى(١) ثم جاء بعد ذلك فى الجزء الثالث من الكتاب نفسه وذكر نص اللامية كاملة(٢) منسوبة إلى الشنفرى دون أى شك فى هذه النسبة ، ودون أى اعتبار لهذه الغمزة التى سبق له أن نقلها عن ابن دريد . وانتهى هذا التشكيك عند هذا الحد دون أن يحدث أثراً حتى فى الشخص الذى نقله ورواه ، والسبب فى عدم تأثير هذا التشكيك أنه كما قلنا كانت قد انقضت نحو أربعة قرون والمجتمع يعرف اللامية ويعرف صاحبها ، فلم يكن من السهل أن تحدث هذه المحاولة أثراً ظاهراً .

وقد يقال : إذا كان الأمر كذلك ففيم الاهتمام بهذه الكلمة التى لم تحدث أثراً ؟ والإجابة عن ذلك أنها وإن كانت لم تحـــدث أثراً فى حينها ، فقد جاء فى العصر الحديث من المستشرقين من اتخذ منها خيطاً لإحياء هذا التشكيك ، وإذا كان الرأى العام فى القديم قد منع هذا التشكيك أن يحدث أثراً لكون المجتمع يعرف اللامية ويعرف صاحبها ، فإن هذا الرأى العام فى عصرنا غير موجود ، وترتب على ذلك أن أخذ بعض الدارسين العرب بحسن نية فى أغلب الظن يتابعون هذه النزعة التى خاض فيها بعض المستشرقين ، كما سنرى بعد قليل .

---

(١) الأمالى ١ / ١٥٥

(٢) الأمالى ٣ / ٢٠٥ — ٢٠٨

ثم قد يقال : فما منشأ هذا التشكيك وما الدافع إليه ؟

وللإجابة عن ذلك نضطر إلى بسط القول قليلا ، فنعود إلى حديث الصراع بين العرب والعجم ، فنقول إنه فى القرن الثانى للهجرة كان هذا الصراع قد وضح حتى أخذ طريقه إلى القمة ، وكانت الزعامة الأدبية فى هذا القرن قد آلت إلى خلف الأحمر ، لما أوتيه من مقدرة وبراعة لفتا إليه الأنظار فى مجالين ، أحدهما علوم اللغة ، والآخر الشعر ، فكان عالماً ضليعاً فى اللغة ، وكان شاعراً مرموقا واضح القدرة على مجاراة فحول الشعر ومنافستهم .

ويحسن هنا أن نعرض تسلسل الموضوع فى النقاط الآتية :

١ — خلف الأحمر :

كان خلف بن حيان الأحمر الذى عاش فى القرن الثانى الهجرى أعجمى الأصل ، وكان عبداً رقيقاً للأشعريين ، أعتقه هو وأبويه مولاه أبو بردة بن أبى موسى الأشعرى ، ورغم الصراع بين العرب والأعاجم فإن سماحة الإسلام لم تكن تقف بشخص عند حد معين فى مكانته ، بل كان يستطيع أن يرقى بمواهبه ومقوماته إلى أى مستوى اجتماعى ، ولذلك أتيح لخلف الأحمر وغيره أن يحتلوا مكانة مرموقة فى مجتمعهم ، رغم سابق وضعهم الاجتماعى .

٢ — خلف والعنصرية :

عرف عن كثير جداً من الأعاجم الأصل استقامتهم الفكرية والعلمية ، فأدوا للإسلام وللعلم عامة جهوداً مثمرة باقية ، وهذا مما لا نزاع فيه ، ولكن بعضاً منهم كان انتماؤه لأصله الأعجمى أقوى فى نفسه من ولائه للمجتمع العربى الذى يعيش فيه ، بل ومن ولائه للدين نفسه فى بعض الأحيان ، وبالتالى لم يكن هذا النوع منهم يحمل اخلاصاً للعرب ، وأحياناً لا يحمل إخلاصاً للإسلام باعتباره فى نظرهم دين العرب ، ومن أصحاب هذه النزعة فيما يبدو خلف الأحمر ، الذى لم يستوف حقه بعد من هذه الدراسة ، ولم تسلط عليه أضواء التحليل العلمى تسليطاً كافياً ، مع أن أخباره فى كثير منها توحى بالريبة ، وتحمل حملا قوياً راجحاً على أنه كان من هذا

النوع من الأعاجم الذين أعمتهم العصبية العنصرية ، لجارت بهم عن طريق الإخلاص أولا ثم الأمانة العلمية والدينية معاً .

وليس هذا الكلام مجرد استنتاج من فراغ ، فإن مثل هذا القول لا يلقى على عواهنه ، ومثل خلف الأحمر فى شهرته العلمية ولمعانه الأدبى ليس من السهل أن يتهم بدون دليل . ولكن قليلا من الملاحظة والتأمل لما وصل إلينا من الروايات يشير بعدة أصابع إلى خلف الأحمر بالاتهام ، بل الغريب أن كثيراً من العلماء والنقاد أشاروا إلى خلف بالاتهام ، ولكنهم لم يتخذوا من هذا الاتهام قضية ، وبالتالى لم يحاكموه ، ولم يصدروا حكما له أو عليه . وليس هذا موضع الإفاضة فى هذا الحديث ، ولكن الذى يعنينا منه أن خلفا الأحمر اتخذ لنفسه منهجاً صرحت به الروايات ، وهو التشكيك فى نسبة كثير من الشعر الجيد والمشهور بالذات إلى أصحابه من العرب ، فهو معروف لدى عامة العلماء والنقاد فى عصره وبعد عصره بأنه كان يقول الشعر وينسبه إلى الشعراء المشهورين وخاصة فى الجاهلية كزهير بن أبى سلمى وأضرابه من مشهورى الشعراء ، كما يقول ابن قتيبة « كان يقول الشعر وينحله المتقدمين »(١) وابن قتيبة من الجيل التالى لخلف الأحمر مباشرة ، وهذا المعنى الذى يقرره ابن قتيبة موضع اتفاق بين العلماء ، ولكن الحلقة التى كان ينبغى أن يوجه إليها شىء من بحث ودراسة ، هى : ولماذا ينفرد خلف الأحمر بهذه النزعة الغريبة ؟ والمألوف أن يعتز كل ذى فكر وإنتاج بإنتاجه ، لا أن يتخلى عنه لينسبه إلى غيره دون هدف أو ضرورة تدعوه إلى ذلك .

والواقع أننا نشتم وراء هذه النزعة رائحة الخبث العنصرى ، فيبدو بوضوح أن خلفا أراد أن يستفيد بنبوغه الأدبى فى هدم ما يستطيع هدمه من صرح الأدب العربى ، وهو فى حسبانه أنه لا يحارب الأدب ، وإنما يحارب خصومه اللدد وهم العرب ، حين يشكك بالقدر الذى يستطيعه فى أهم ما يعتزون به من تراث ،

---

(١) الشعر والشعراء ٧٩٠

ويفاخرون به من مجد وهو الأدب وخاصة الشعر ، فادعى فيما ادعى أن هذه اللامية له هو وليست للشنفرى .

ومن الأدلة على ذلك أنه لم يدع اللامية وحدها ، وإنما ادعى شعراً كثيراً غيرها ، وخاصة من شعر الجاهلية ، ومن الواضح أن مثل خلف الأحمر ذكى شديد الذكاء ، فهو يختار نقطة ضعف فى رأيه لينفذ منها إلى غرضه ، فحين يريد أن يشكك مثلا فى شعر زهير أو الأعشى ، فلا يشكك فى المعلقة المشهورة التى يكاد يحفظها رعاة الإبل ويعرفون قائلها ونسبه وموضعه ، وإنما يشكك فى قصيدة أخرى دون المعلقة شهرة وذيوعا ، ولكن اللامية وإن كانت مشهورة ومحفوظة يعيها الناس ويرددونها إلا أن صاحبها ضعيف الانتساب والموضع ، فشخصية صاحبها حينئذ نقطة ضعف فى رأى خلف يمكن أن ينفذ منها إلى غرضه ، فيشكك فى نسبتها إلى الشنفرى ، بل يدعيها لنفسه ، وإذن فقد تكون نقطة الضعف فى القصيدة ، وقد تكون فى شخصية صاحبها ، وهو يتحاشى الجانب الأقوى ، ثم يحاول النفاذ من الجانب الأضعف ، والشعر الجاهلى فى جملته من هذه الزاوية أقرب إلى تحقيق هدف خلف ، فقد بَعُد العهد بقائليه نحو ثلاثة أجيال ، فالتشكيك فيه أيسر من التشكيك فيما هو أقرب عهداً ، ولذلك كان الشعر الجاهلى هو الميدان الذى ركز خلف الأحمر نفث شكوكه فيه كما تؤكد الروايات وخاصة شعر زهير والأعشى ، والصعاليك من حيث هم صعاليك أقرب إلى تحقيق هدف خلف أيضاً فأشخاصهم ليس لهم من الثبات والعصبية والانتساب إلى أقوامهم كما لغيرهم من شعراء القبائل ، وإذن فشعرهم أقرب إلى أن يحقق لخلف ما يريد من التشكيك فيه ، فضلا عن أنه يبلغ من الجودة ما يستحق جهود خلف فى التشكيك والتحطيم ، ويكفى هذا الشعر شرفاً أن تكون من بينه اللامية ، ولذلك أيضاً كان شعر الصعاليك هدفاً أساسياً لخلف الأحمر ، ولم تكن اللامية وحدها من بين شعر الصعاليك هدفاً لخلف الأحمر ، فقد ادعى شعراً كثيراً آخر من شعر الصعاليك ، منه قصيدة مشهورة فى الرثاء لتأبط شرا(١)

---

(١) انظر : للمثال طبقات الشعراء لابن المعتز ١٤٧ وأمالى القالى ٢ / ٢٧٨ (ه)

مشهورة فى جودتها ، ومشهورة فى انتسابها إلى تأبطشرا (١) وادعى خلف الأحمر شعراً آخر للشنفرى غير اللامية ، ويذكر ابن دريد هذا التشكيك فى سلب هذا الشعر من الشنفرى ونسبته إلى خلف ، وإن كان لم يذكر صراحة أن خلفا هو الذى ادعى ذلك(٢) ، وغير ذلك مما لا ضرورة للإفاضة فيه ، ولكننا ننتهى منه إلى حقيقة تاريخية لم تختلف عليها الروايات ، وهى أن خلفا الأحمر لم يكن أميناً فى رواية الشعر ، وكان مظهر عدم أمانته يتمثل فى نزعة عامة تتخذ ما يشبه المنهج الذى يخفى وراءه هدفا معيناً ، ونستنتج من ذلك ومن ظروف العصر ، وملابسات المجتمع الذى عاش فيه خلف الأحمر أنه كان يهدف عامداً الى التشكيك فى الشعر العربى ليصل من ذلك إلى هدم مجد كان يعتز به العرب حينذاك اعتزازاً قد لاينافسه اعتزاز آخر ، ونصل من ذلك فيما يعنينا إلى أن محاولة التشكيك فى نسبة اللامية إلى الشنفرى لم يكن نقداً ولا صلة له بالعلم والتاريخ ، وإنما كان جزءا من هدف ملتو يراد منه المساس بكيان الأدب العربى كله ، أو بمعنى أوضح جزء من حرب موجهة ضد العرب فى تراثهم .

وإذن فقد كان خلف الأحمر فى أغلب الظن ، وكما توحى الروايات بوضوح — من أولئك الذين أعمتهم العنصرية ، فسلبتهم الإخلاص للمجتمع الذى يعيشون فيه، وسلبتهم أمانة العلم الذى منحهم المروءة والكرامة بين الناس ، والتى لم يكن قط ينبغى أن يفرطوا فيها تحت أى عامل من العوامل .

ولكننا حين نتابع أخبار خلف الأحمر نجد أن العنصرية لم تعمه فحسب عن الإخلاص لمجتمعه وعلمه ، وإنما أعمته أيضاً عن الإخلاص لدينه ، وهذه بعض الروايات تحدثنا بأنه مات مشكوكا فى دينه ، بل يكاد يكون منسلخاً عن دينه انسلاخا

---

(١) ولذلك يستنكر الدكتور عبد الحليم النجار بشدة أن ينساق بعض المتعالمين من النقاد العرب وراء هذا التشكيك . انظر تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١ / ١٠٤ (٥) .

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد ٣ / ٢٧٢ مادة (اسماد) .

صريحا ، ومما روى فى ذلك أنه حين حضرته الوفاة قيـــل له قل : لا إله إلا الله فسكت . فأعيد عليه فسكت . فأعيد عليه ثالثاً فقال :

جف بمقدار ما جرى قلمه

وما زال يرددها حتى مات (١) .

ومما يزيد هـذا الاستنتاج قوة ورجحاناً أن هذه النزعة العنصرية كانت واضحة ومعروفة ، وأن أعلامها وقوادها من الأعاجم كانوا معروفين أيضاً ، ومما عرفه الناس عنهم فى مجتمعهم ، وفيما ترويه الأخبار عنهم أمران ، أحدهما الزيغ فى العقيدة ظاهراً أو مستترا ، والآخر الانحراف فى السلوك ظاهراً جليا فى أغلب الأحيان ، وهم كثيرون وأخبارهم تحفل بها كتب الأدب والأخبار ، ومن مشهوريهم بشار بن برد المعروف بزيغه فى العقيدة ، وبنهمه إلى الفجور رغم أنه كان أعمى ، ومن مشهوريهم أيضاً والبه بن الحباب الذى كان بالإضافة إلى وهن عقيدته الدينية مسئولا عن نشر أسوأ ماعرفه المجتمع العربى آنذاك من الشذوذ فى العلاقات الجنسية، والتهافت على الغلمان ، بالإضافة إلى صور الخلاعة والمجون التى استشرت فى المجتمع حينئذ، وخاصة حينما اتخذ منها الشعراء منهجاً ومجالا للتنافس فى وصفها، ومن أئمتهم المشهورين فى هذا الفساد أبو نواس، الذى كان تلميذا لوالبة بن الحباب ، ثم تلميذا لخلف الأحمر من بعده ، وحين مات خلف الأحمر أسف تلميذه أبو نواس ورثاه بشعر (٢) منه :

أودى جماعُ العِـلم مُذْ أودى خلفْ   مَنْ لا يُعدُّ العِـلمَ إلا ما عَرفْ

وهذا القدر من الحديث عن خلف الأحمر يكفى لإظهارنا على أن تلك الهمسة أو الغمزة التى أريد منها التشكيك فى نسبة اللامية إلى الشنفرى ليست إلا محاولة غير أمينة للتشكيك فى التراث العربى ، ومن أدلة ذلك كما قلنا أن هذا التشكيك لم يوجه إلى اللامية وحدها ، بل وجه إلى غيرها أيضاً من شعر الشنفرى ، ولم يوجه إلى

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ١٤٧—١٤٨

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٨٩/٢

الشنفرى وحده ، وإنما وجه إلى شعراء آخرين كثيرين ، منهم تأبط شراً زميل الشنفرى وصديقه .

٣ — موقف ابن دريد :

ومن نقاط التسلسل فى مناقشة هذا التشكيك أن أبا بكر بن دريد هو الذى نقل هذه الهمسة الوحيدة الخافتة بأن هذه اللامية لخلف الأحمر وليست للشنفرى ، وقد رواها عنه تلميذه أبو على القالى، أما ابن دريد نفسه فلم يذكر هذا التشكيك فى اللامية بالذات فى شىء من مؤلفاته العديدة فيما أعلم ، بل الأغرب من هذا أن ابن دريد شرح هذه اللامية كاملة فى كتاب مستقل . ناسباً إياها للشنفرى ، دون إشارة إلى هذا التشكيك ، وهذا الشرح وإن لم يكن موجوداً لدينا إلا أن صاحب تاريخ الأدب العربى يذكر أنه موجود فى مكتبة برلين (١) .

ومعنى ذلك أن ابن دريد لا يقيم لهذا التشكيك وزناً ، ويراه أتفه حتى من أن يشير إليه سواء فى شرحه للامية ، أو فى كتاباته عن الشنفرى وخلف الأحمر .

وقد يقال: فهل يعنى ذلك أن نشك فى صحة رواية أبى على القالى؟ ونجيب عن ذلك بأننا نجل أبا على حتى عما هو دون ذلك ، فإن القالى كان فيما نعلم من أدق العلماء وأحرصهم على أمانة العلم وصدق الرواية .

وحينئذ قد يقال : فكيف نفسر رواية أبى على القالى بأن ابن دريد حدثه أن هذه اللامية لخلف الأحمر وليست للشنفرى ؟

والجواب عن ذلك أن أبا على القالى كان تلميذاً لابن دريد ، يتلقى عنه، ويحضر مجالس علمه ، ويستمع إلى أحاديثه ، وكان خلف الأحمر فى شهرته حينئذ بالعلم والشعر من الذين تشغل أحاديثهم المجتمع ، فمن الطبيعى أن يتردد حديثه كثيراً على

---

(١) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١٠٧/١ ويذكر ان هـذا الشرح فى برلين برقم ٧٤٠٨

لسان ابن دريد وفى مجلسه ، ومن بين هذه الأحاديث ذلك التشكيك الذى كان يثيره خلف الأحمر (١) وقد يردده بعض الأعاجم لمصلحتهم ، فليس غريبا أن يردده ابن دريد بحسن نية كما سمعه، ولكنه لعلمه بأن اللامية لا نزاع فى نسبتها إلى الشنفرى تجاهل هذا التشكيك فلم يثبته فى مؤلفاته ، وإن كان قد ردد شيئا منه فى مجلس علمه، لأن مسئولية المرء نحو قلمه أوثق وأكد منها نحو لسانه ، بدليل أن الشخص قد يبيح لنفسه أن يقول كلاما كالهزل ونحوه ، ولكنه يأبى أن يثبت هذا الكلام بقلمه حتى لا ينسب إليه ، واللامية ليست موضع نزاع ، ولا يقبل أحد حينذاك نفيها عن الشنفرى أو نسبتها إلى خلف الأحمر ، فلم يجد ابن دريد من اللائق به وبمكانته العلمية أن يثبت فى مؤلفاته تشكيكا فى شىء شديد الوضوح . بدليل أنه فيما عدا اللامية لم يأب أن يثبت هذا التشكيك، فيقول مثلا فى جمهرة اللغة عن بيت من قصيدة أخرى للشنفرى :

« ... للشنفرى ... إن كان قاله ... وقيل إنها لخلف الأحمر »

نَبَـأ ما نابنا مُصْمَئِلّْ جلَّ حتى دقَّ فيه الأجلّ(٢)

فلم ير ابن دريد بأساً فى أن يثبت هذا التشكيك فى قصيدة غير مشهورة ، أما اللامية فشهرة نسبتها إلى الشنفرى تمنعه من ذلك .

وحينئذ قد يقال أيضاً : ولكن لماذا كان أبو بكر بن دريد أحرص من غيره على ترديد هذا التشكيك ، سواء فى حديثه أو مؤلفاته ؟

والجواب عن ذلك أن أبا بكر بن دريد وإن كان من أعلام عصره الذين لا ينازع فى سعة علمهم ، وغزارة حصيلتهم ، إلا أنه كانت فيه نقطة ضعف ، وهى أنه كان

---

(١) أنظر للمثال طبقات الشعراء لابن المعتز ١٤٧

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد ٢٧٢/٣ — ٢٧٣ . واصمأل الأمر اشتد وعظم . جل : عظم . والمعنى هذا النبأ أصابنا بداهية ومصيبة عظمت حتى صغر بجوارها كل خطب مهما عظم .

مولعاً بشرب الخمر ، ولم يكن يأنف — على علمه ومكانته — أن يلقى الناس وهو سكران ، حتى كان بعض العلماء يتحاشى لقاءه ، أنفة من هــذا ، أو اتقاء للريبة والشبهة(١) والذى يعنينا من ذلك هنا أن ابن دريد كان إذن صاحب نزعة معينة فى سلوكه ، هى إدمان الخمر ، وهذا من شأنه أن يجعله على صلة أوثق بمن عرفوا بمزاولة مثل هذا السلوك والمجاهرة به وهم هذا النفر من الأعاجم الذين ساروا على نهج بشار ووالبة وأبى نواس وحماد عجرد ومطيع بن اياس وقاسم بن زنقط وغيرهم(٢) فمثل هذا السلوك كان يومئذ — مهما انتشر — مخالفاً لتقاليد المجتمع زيادة عن مخالفته للدين ، ومن الطبعى أن يكون الشركاء فى هـذا السلوك على صلة ببعضهم ، أو على الأقل يتعاطف بعضهم مع بعض نفسياً ، وفى كلا الحالين يكون ابن دريد إما على صلة ومجالسة ومحادثة مع بعضهم ، فيستمع إلى محاولات التشكيك هذه ، ويكون مهيئا نفسيا لتصديقها بحسن نية . وإما متعاطفا معهم أو مع بعضهم نفسيا بحيث إذا بلغه أن فلانا منهم يقول كذا من نحو هذا التشكيك يكون أيضاً غير نافر من قبوله ، أو غير رافض لمبدأ التصديق أو المناقشة فيه .

ومن نحو هذا التصور يكون ابن دريد قد انساق وراء شىء من هذا التشكيك العنصرى دون أن يدرك ما رمى إليه هذا التشكيك من أهداف . وأثبت بعضه فى مؤلفاته ، ولكنه بالنسبة للتشكيك فى اللامية أبى أن يثبت شيئاً منه لأنه أتفه من أن يقام له وزن ، وهذا لا يمنع أن يكون قد تحدث مشافهة بهذا التشكيك ، ولو من باب الإنكار عليه ، ثم التبس على القالى فنسى الإنكار ، وعلق بذهنه حديث ابن دريد عن التشكيك . وننتهى من هذا كله بنتيجة واضحة ، وهى أن أبا بكر بن دريد قد يؤاخذ على ترديد بعض التشكيك فى قصائد أخرى غير اللامية ، أما اللامية إذا افترضنا أنه أثار الشك فيها بالصورة التى رواها القالى فإن مؤاخذته أيسر لسببين ، أحدهما أنه لم يثبت ذلك فى تأليفه ، والآخر أنه أثبت عكس هذا التشكيك بشرحه للامية ناسبا إياها للشنفرى دون تلبيس .

---

(١) للمثال خزانة الأدب للبغدادى ٢٧٨/٢ و ٢٨٩

(٢) أنظر كتاب الهلال أبو نواس للعقاد .

٤ — موقف القالى :

ومن نقاط هذا التسلسل موقف أبى على القالى ، وحقيقة موقفه أنه فى كتابه الأمالى بينما كان يتحدث عن خلف الأحمر ، وعلمه بالشعر واللغة ، ومقدرته على قول الشعر موافقاً لمختلف مذاهب العرب فيه ، كأنه فى هذا السياق أراد أن يستقصى كل ما وعته ذاكرته مما تحدث به العلماء عن خلف الأحمر ، فقال فيما قال « حدثنى أبو بكر بن دريد أن القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى التى أولها :

أقيموا بنى أمّى صدورَ مَطِيِّكم فإنى إلى قومٍ سواكمْ لأميلُ

له ، وهى من المقدمات فى الحسن والفصاحة والطول ، فكان أقدر الناس على قافية (١) » .

وأول مايدعو إلى الملاحظة أن هذه الرواية نفسها تصرخ بأن ابن دريد والقالى كليهما يعرف أن هذه اللامية منسوبة إلى الشنفرى ، وأن هذه النسبة هى الأصل ، وأن الشىء الطارىء هو محاولة انتزاعها من الشنفرى ونسبتها إلى خلف .

ومن الواضح أن أبا بكر بن دريد لم يكن هو صاحب هذه المحاولة ، وإن كان قد نقلها أو رددها ، لأنه لو كان صاحبها لكان قد اهتم بها فأثبتها على الأقل فى مؤلفاته ، ولم يكن من المتصور حينئذ أن يخص اللامية بشرح كامل لها محتفظاً بنسبتها إلى الشنفرى ، وإذن فهناك من تهمه هذه المحاولة بالنحو الذى أشرنا إليه ، وكل ما يوصف به موقف ابن دريد — إن كان قد صدر منه هذا التشكيك بهذه الصورة — أنه مغرر به ، وأنه كان ينبغى أن يكون أكثر دقة وتحريا قبل أن يقول ، وإذا قال مثل ذلك ، فيجب أن يبين رأيه فيه ، وأن يصحبه حكمه عليه ، أهو كلام صحيح ، أم مجرد زيف وتشكيك ؟

أما أبو على القالى فخير من ابن دريد موقفا رغم أن نقله لهذا التشكيك كان البذرة الأولى والوحيدة لما تبع ذلك من شك أو تشكيك فى مجال البحث العلمى .

---

(١) الأمالى ١/١٥٥ والضمير فى « له » يعود على خلف الأحمر .

هو خير موقفا لأنه مجرد ناقل ، ولا ضير على الناقل حتى وإن كان المنقول خطأ ، كما يقال ناقل الكفر ليس بكافر ، وكل ما يؤخذ على أبى أنه كان ينبغى حين يسوق كلاما يتعلق بقصيدة ذات أهمية كاللامية أن يبين رأيه في هذا الكلام ، وأن يضعه فى موضعه الصحيح ، وهو الرفض ، بل التسفيه .

ولكن ملابسات الموقف تحملنا على أن نتصور أن القالى وقع فى شىء من اللبس فيما بينه وبين نفسه عند نقله هذه الرواية ، فأغلب الظن أن ابن دريد لم يقل هذا المعنى بهذه الصورة ، وإنما قال كلاما مضمونه أنه سمع من يزعم أن لامية الشنفرى من صنع خلف الأحمر ، فهو مجرد ناقل لزعم أو ادعاء ، ولكن القالى حين دونها التبس عليه الأمر أو طال عهد ذاكرته بالحديث فنسى ، وظن أنه رأى لابن دريد ، ونقله على أنه رأى أستاذه ولم يفطن أو لم يتذكر أن أستاذه ابن دريد إنما يردد ما سمعه من زعم أو ادعاء ، وإنما كان مجرد زعم أو ادعاء لأنه لو كان قد سمعه من مصدر علمى ، أو حتى من شخص معين يستحق أن يذكر اسمه لذكره منسوبا إلى هذا الشخص ، خاصة وأن القالى وابن دريد من الذين يسوقون رواياتهم منسوبة إلى رواتها فى سلسلة قد تصل إلى أشخاص عديدين ، فمن المألوف بل الملتزم فى كل مايرويان ، حدثنى فلان عن فلان وهكذا ، ويندر أن يسوق أحدهما رواية ليس لها إلا مصدر واحد وهى فى حاجة إلى أكثر من ذلك ، كما فعل القالى فى روايته هذه عن اللامية ، حيث نسبها إلى ابن دريد ، دون أن يبين أو يشير إلى من أخذ عنه ابن دريد هذه الرواية أو هذا الرأى ، وهذا من أدلة ترجيح أن ابن دريد فى حديثه إنما كان يردد زعما وادعاء سمعه ، وأن القالى نسى معالم الحديث لطول عهده به ، فأثبته بما يوحى أنه رأى لابن دريد نفسه .

ونقول لطول عهده به ، لأن القالى عاش بعد أستاذه نحو خمس وثلاثين سنة[1] وكل مؤلفاته تقريباً ومنها الأمالى كانت بعد وفاة أستاذه ابن دريد ، ومن المعروف عن القالى أنه أملى مؤلفاته من ذاكرته ، حيث كان يتمتع بذاكرة تثير العجب

---

(١) عاش ابن دريد من سنة ٢٢٣ إلى ٣٢١هـ والقالى من سنة ٢٨٨ إلى ٣٥٦هـ .

فى قوتها وحفظها ، وقد كان بين وفاة ابن دريد وتأليف القالى لكتاب الأمالى نحو عشر سنوات على الأقل ، فابن دريد مات سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، ثم رحل القالى من بغداد إلى الأندلس سنة ثلاثين وثلثمائة ، وهناك بعد فترة بدأ فى تأليف كتبه ، ومنها الأمالى(١) ، فإذا تصورنا عشر سنوات على الأقل تمر على ذاكرة مهما تبلغ من القوة ، فلابد أن تند عنها بعض التفاصيل .

والسؤال الجوهرى بالنسبة للقالى ... هو ، ما موقف القالى نفسه من هذا الزعم أو هذا التشكيك ؟ والإجابة أن القالى لم يكن يشك فى أن اللامية للشنفرى ، وأنه ذكر ذلك فى صراحة ووضوح ، حيث كانت رواية التشكيك فى الجزء الأول من كتابه ، لجاء فى الجزء الثالث منه وذكر نص القصيدة منسوبة إلى الشنفرى دون أى إشارة إلى ما رواه عن ابن دريد فى الجزء الأول ، أو إلى أى تشكيك آخر ، وكأن ذلك لا يستحق أن يعقب عليه ، أو يشار إليه ، فبدأها عن طريق الرواية بقوله « قال الشنفرى : ثم ساق نص القصيدة ... »(٢) .

ونخلص مما سبق إلى أن القالى نفسه لم يكن يشك فى نسبة اللامية إلى الشنفرى ، وإنما نقل ما تذكره من كلام ابن دريد من باب الأمانة العلمية فى نقل كل ما يعلم حول موضوع الحديث الذى يأخذ فيه ، كما أن ابن دريد نفسه لم يكن يشك فى نسبتها إلى الشنفرى بدليل أنه شرحها كاملة ، ومنسوبة إلى الشنفرى ، وإنما ردد ما سمعه من زعم .

٥ — موقف العلماء القدامى :

ومن نقاط التسلسل فى عرض الموضوع أن نلقى نظرة بعد كل ما سبق على موقف النقاد والعلماء القدامى ، والواقع كما سبق أن هذا الموضوع لم يكن فى القديم قضية قط ، ولم يختلف العلماء والنقاد القدامى فى أن اللامية للشنفرى ، وحتى محاولة

---

(١) الأمالى للقالى ترجمة المؤلف جـ ١

(٢) الأمالى ٣/٢٠٥ — ٢٠٨

التشكيك التى أثارها متعصبو الأعاجم لم تستطع أن تمس اتفاق العلماء على أن اللامية للشنفرى . ويكفى أن نستعرض بعض الاجلاء من العلماء الذين شرحوا اللامية أو تحدثوا عنها منسوبة إلى الشنفرى، وهم عدد كبير جداً ، لم يخل منهم عصر ، ولكننا فى هذا الموضع نتحدث عن موقف القـــدامى بالذات ، فنستعرض منهم حسب الترتيب الزمنى :

١ ــ المبرد الذى عاش من سنة ٢١٠ إلى ٢٨٥ هـ وهو أول شارح للامية الشنفرى .

٢ ــ أبو بكر بن دريد الذى عاش من سنة ٢٢٣ إلى ٣٢١ هـ وشرحه تال لشرح المبرد .

٣ ــ أبو على القالى الذى عاش من سنة ٢٨٨ إلى ٣٥٦ هـ وقد ذكر اللامية كاملة فى أماليه .

٤ ــ أبو هلال العسكرى المتوفى سـنة ٣٩٥ هـ مستشهدا ببعض أبيات اللامية للشنفرى (١) .

٥ ــ الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وله شرح متداول مشهور للامية الشنفرى (٢)

٦ ــ عبد الله بن الحسين العكبرى المتوفى سنة ٦١٦ هـ وله شرح للامية (٣) .

٧ ــ ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ معجبا ببعض ما ساقه الشنفرى من معان فى اللامية (٤) .

هذا عدا شروح أخرى تحدث عنها كارل بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى ، وموجود بعضها فى مكتبات اوربا ، وبعضها مخطوط متناثر بين مكتبات البلاد العربية والإسلامية .

---

(١) كتاب الصناعتين ٦٢

(٢) هو أعجب العجب فى شرح لامية العرب .

(٣) أنظر معجم البلدان لياقوت الحموى ٣/٣٩٦ وتاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١/١٠٨

(٤) معجم البلدان ٣/٣٩٦

وهكذا استمر إجماع العلماء والنقاد على أن اللامية للشنفرى ، وتوالى ذلك فى كل العصور التالية ، حتى بداية القرن العشرين ، حين حاول بعض المستشرقين إحياء المحاولة القديمة كما سيأتى .

٦ — تسمية اللامية :

ومن النقاط التى لا ينبغى أن تمر دون ملاحظة لها تسمية اللامية بلامية العرب ، والواقع أن القدامى وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى لم يكونوا يعرفون التسمية بلامية العرب ، وإنما كانت تسمى عندهم لامية الشنفرى ، فكيف بدأت هذه التسمية ، والواقع أيضاً أن الروايات لا تحدد لنا زمناً معيناً ، ولا مناسبة معينة بدأت فيها تسمية هذه القصيدة بلامية العرب ، ولكننا نعتقد أن هـــذه التسمية جاءت ضمنا فى القرن الخامس الهجرى ، حينما أنشأ الحسين بن على الطغرائى الكاتب قصيدته اللامية ، وسماها لامية العجم ، وأولها .

اصالةُ الرأى صانتْنى عن الخَطَـــل
وحِـليةُ الفضل زانتنى لدى العطل (١)

وحين أصبح لدينا لاميتان ميزت إحداهما بأنها لامية العجم ، فلا بد أن تميز الأخرى بأنها لامية العرب ، ومن هـــذا الوقت أصبحت لامية الشنفرى تعرف بلامية العرب ، وظهرت هذه التسمية فيما جاء بعد ذلك من شروح لها ، وأول شرح يعتقد أنه حمل هذه التسمية شرح الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ الذى سماه أعجب العجب فى شرح لامية العرب ، أما قبل ظهور لامية العجم للطغرائى فلم يصف أحد لامية الشنفرى بأنها لامية العرب ، وإنما كان حديثهم عنها بأنها لامية الشنفرى أو قصيدة الشنفرى اللامية .

ولكن ملاحظة هذه التسمية ومنشأها قد يضيف شيئاً ذا أهمية بالنسبة لموضوع حديثنا ، فهناك سؤال يحتاج إلى إجابة ، وهو : لماذا سميت لامية الطغرائى بلامية

---

(١) أنظر للمثال نشر العلم فى شرح لامية العجم للشيخ جمال الدين الحضرمى .

العجم؟ وما العلاقة بين العجم بوصفهم عنصرا وقصيدة قالها شاعر معين أى شاعر؟ فلو عثر على قصيدة لامية فى الأدب الفارسى مجهولة المؤلف مثلا ، لكان من السائغ أن تسمى لامية العجم ، أما أن يكون لها قائل معروف ، ثم تتجاهل النسبة إلى قائلها ، لتنسب إلى شعب أو عنصر ، فهذا ما يدعو إلى الملاحظة والتأمل .

وحينئذ يبدو فى شىء من وضوح أثر الصراع الأدبى بين العرب والعجم فى هذه التسمية ، فالعرب يفخرون بأدبهم ، ومن أثمن درره لامية الشنفرى ، فلامية الشنفرى إذن فى نظر الأعاجم مفخرة للعرب بصرف النظر عن كونها للشنفرى أو غيره ، ما دام صاحبها عربيا ، وإذن فلتكن لهم قصيدة يفخرون بها بوصفهم أعاجم ، وليكن صاحبها من يكون ما دام أعجميا ، وبهذه النزعة نتصور شاعراً أعجمياً كالطغرائى تتعمق فى نفسه هذه الفكرة فينشىء قصيدة لامية على غرار الشنفرى أو لامية العرب ، ولتكن قصيدة أعجمية ، يفاخرون بها لامية العرب ، فكانت لامية العجم .

ونستطيع أن نتجاوز هذا الاحتمال القوى إلى احتمال آخر وإن كان أضعف ، فنقول إن الطغرائى لم يقصد منافسة لامية الشنفرى ، وإنما أملت عليه شاعريته قصيدته ، وتصادف أن اختارت شاعريته قافية اللام ، ووزن اللامية ، ومنهج الشنفرى وغير ذلك فصاغها على هذه الصورة ، وحينئذ نقول إنه ليس المهم موقف الشاعر ، فلا بأس على شاعر أن ينافس أو يتأسى بغيره من الشعراء ما دام لا يصل إلى حد مايسمونه السرقة الأدبية أو الشعرية، ولكن المهم هو تسميتها لامية العجم، فلنفترض جدلا أن الطغرائى لم تكن فى ذهنه قط لامية الشنفرى حين قال لاميته ، ولكن لماذا سميت قصيدته هذه التسمية الشاذة التى كانت الأولى من نوعها أن تنسب قصيدة إلى شعب ، فسميت لامية العجم ، ولم تسم لامية الطغرائى كالمألوف فى تمييز القصائد وتسميتها ؟

والإجابة فيها شىء من وضوح أيضا،وهى أن الأعاجم سواء تعمدوا إنشاء قصيدة على منوال اللامية العربية ، أو وجدوا شاعراً منهم قد قال قصيدة لامية ولو عفوا، فإنهم فى كلا الحالين سيحاولون أن ينافسوا العرب بها ، ما داموا واقعين تحت وطأة هذا الشعور النفسى الثقيل بمنافسة العرب فى كل شىء .

ولكن نظرة ولو عجلى إلى لامية الطغرائى تنبئنا بأنها لم تقل عفواً ، ولا بدون منوال ، وإنما حاول صاحبها جاهداً أن يقلد لامية الشنفرى سـواء فى الشكل أو المضمون ، فأما فى الشكل فقد اختار الطغرائى القافية والقالب الموسيقى اللذين نسج عليهما الشنفرى ، وأما فى المضمون فقد حرص حرصاً واضحاً على المنهج النفسى للشنفرى ، وعماده السخط على الناس ، وازماع هجرهم والرحيل عنهم ، حيث يقول فى أوائلها :

فيم الإقامة بالزوراء لا سكنى
بها ولا ناقتى فيها ولا جملى(١)

ثم : فلا صديق اليه مُشتكى حَزَنى
ولا أنيسَ اليه منتهى جَذَلى(٢)

ثم : فَسِرْ بنا فى زِمام الليل مُعْتَسِفاً
فنفحةُ الطِّيب تَهْدينا الى الحِلَلِ

وهذا يكاد يكون ترديداً لقول الشنفرى :

أقيموا بنى أمىّ صُدورَ مطيِّكم
فإنى الى قوم سِواكم لأميل
فقد حُمت الحاجاتُ والليل مُقْمِرٌ
وشُدَّت لِطيَّاتٍ مطايا وأرْحُل

---

(١) الزوراء فى بغداد ، ولاناقة لى فيها ولاجمل : مثل عربى جاهلى ، يقصد : التصميم على الرحيل عن بغداد .

(٢) الحزن ضد الفرح والجذل هو السرور .

وكما يقول الشنفرى :

ولولا اجتنابُ الذَّأم لم يُلْفَ مَشْرَبٌ
يُعـــاش بـه الا لَـدَىَّ ومـأكلُ (١)

فكذلك يقول الطغرائى :

يرضى الذليــــل بخفض العيش مسكنه
والعـــز عند رسيم الأينق الذلــــل(٢)

ولئن كان الطغرائى قد حاول ترسم خطى الشنفرى ، إلا أن شاعريته لم يكن فى جهدها أن تبلغ ولا حتى أن تنافس شاعرية الشنفرى ، وظل الفرق شديد البعد بين اللاميتين ، ولم يستطع أحد من النقاد العرب أو العجم أن يقارن بينهما حتى مجرد مقارنة .

ولكن الأمر كان بالنسبة للطغرائى أو للعجم كما يقال شىء خير من لا شىء ، فأصبحت لهم لامية كما للعرب لامية ، ولئن كان صاحب لامية العرب صعلوكا فإن صاحب لامية العجم كاتب مرموق من كتاب الدولة ورجالاتها ، وقد يجد السامع أو القارىء اليسير الفكر أو الثقافة فى لامية العجم من المتعة القريبة اليسيرة وخاصة فيما حوت من غزل وفخر ونحوهما مالا يجد مثله فى لامية الشنفرى التى تحتاج إلى فكر وذوق فى الاستمتاع بها .

ومهما يكن من شىء فإن لامية الطغرائى وتسميتها لامية العجم وماصاحب ذلك من ملابسات ، كل ذلك مما يلقى ضوءا كاشفاً على الصراع بين العرب والعجم ، هذا الصراع الذى كان من نتيجته محاولة نزع اللامية من الشنفرى ونسبتها إلى خلف الأحمر ، مع أنها لو كانت من صنع خلف الأحمر لكانت لامية عجم أيضاً ، لأن خلفا الأحمر أعجمى لاجدال فى أعجميته .

---

(١) الذأم : الذم والمعنى لولا اجتنابى ما يعيبنى ولو رضيت الذل والعيب لتيسر لى كل مشرب ومطعم .

(٢) الشطر الأول معناه الذليل يقبل الهوان نظير تمتعه بخفض العيش والنعم ، والرسيم نوع من سير الإبل . ومعنى الشطر الثانى : العزة فى الرحيل والهجرة .

ثانيا — فى الحديث :

فى القرن التاسع عشر كان المستشرقون جزءا أو مظهراً من مظاهر اهتمام الغرب بالمنطقة العربية ، فقد سخر الاستعمار الغربى علماء وخبراء فى كل ميدان من ميادين السياسة والاقتصاد والحرب والعلم لدراسة الوطن العربى الذى يعلم الغرب أنه يحفل بتراث هائل فى كل ميدان من هذه الميادين التى أشرنا إليها .

وانكب خبراء التراث العلمى ، أو ما تعارفنا على تسميتهم بالمستشرقين ، على التراث العلمى العربى ، وبحكم وضعهم واختيارهم لم يكونوا أشخاصاً عاديين ، ولا دارسين عاديين ، وإنما كانوا خبراء متخصصين ، بكل ما تعنيه كلمة خبير وكلمة متخصص ، بينما كان العرب جميعاً حينذاك فى سباتهم العميق . وصحا العرب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وخاصة فى أواخره ليجدوا أن خبراء الاستعمار الغربى قد أنجزوا لاستعمارهم تقريباً كل ما يريد ، ومنهم خبراء التراث العلمى ، الذين كانوا حينئذ قد استطاعوا دراسة التراث العلمى للعرب فى مختلف مجالاته ، بصورة متكاملة ، حيث كانوا موزعين على فروع الثقافة العربية ، كل فريق يتعاون فى بحوثه ومعلوماته حتى تكتمل دراسة هـذا الفرع ، ثم تتعاون الفروع بقدر الإمكان حتى تتكون الدراسة الكاملة للتراث العربى ، وليس هذا إبعاداً فى التصور ، وإنما هو واقع تنبىء عنه نتائج بحوث المستشرقين ومؤلفاتهم . ونعود فنقول إن العرب صحوا حينئذ فى إفاقة بدأت ضعيفة واهية ، وأخذوا يسلكون مدارج الطفولة فى كل ميدان من الميادين التى أشرنا إليها ومنها الميدان العلمى . وبينما نجد طلاب العلم والمثقفون والذين حسبوا أنفسهم علماء من العرب بينما نجد هؤلاء أنفسهم لا زالوا يدرجون فى بداية طريقهم العلمى إذا هم يجدون أولئك الخبراء أو المستشرقين ليسوا مجرد علماء فحسب ، وإنما خبراء ومتخصصين حقيقة فى العلوم العربية والاسلامية ، وإذا هم يمتلؤن إكباراً للمستشرقين وإعجاباً بهذا المستوى الباهر المذهل الذى استطاع بعضهم أن يصل إليه ، ووجد الدارسون العرب أنفسهم حينذاك إما تلاميذ حقيقة يتلقون العلم العربى على أيدى هؤلاء المستشرقين ، وإما عالة على بحوثهم فى مختلف فروع الثقافة العربية ، واستمر هذا الوضع حتى

نهاية الثلث الأول من القرن العشرين الذى نحن فيه ، ومن المعروف أن الجامعة المصرية حين أنشئت فى مطلع هذا القرن ، كان يتولى التدريس فيها أساتذة أوربيون ، حتى فى أخص العلوم العربية ، وهو الأدب العربى ، ومن أشهر هؤلاء المستشرقين (نالينو) الذى تولى تدريس الأدب العربى فى الجامعة المصرية ، فكان مؤسساً لتدريس الأدب العربى على المنهج الحديث ، وكان أستاذاً مباشراً أو غير مباشر لكل علماء الأدب ودارسيه فى الجيل السابق ، ومنهم الدكتور طه حسين الذى يقول عن دروس أستاذه (نالينو) إنها (كانت الموجه الأول لنهضتنا العلمية فى دراسة الأدب) (١) .

وبالنسبة للمستشرقين بصفة عامة هناك نقاط ينبغى أن تكون واضحة ، وأن يكون وضوحها محدداً ، وأهم هذه النقاط :

١ ـ هناك صلة وثيقة بين الاستعمار والمستشرقين ، وإن كانت صلة غير مباشرة ، فلم يعمد الاستعمار إلى تجنيد أشخاص المستشرقين مباشرة لخدمة أغراضه ، وإنما كان إعداد المستشرقين هو خطة المستعمرين ، فى تهيء أماكن تعليمهم وتدريبهم وتذليل مهامهم بعد اختيارهم . ونحو ذلك مما لا شك فى أنه حقيقة تاريخية ليس هذا موضع الإفاضة فيها ، والهدف المنوط بهم هو تقديم معلومات بأوسع ما يمكن عن الأمة العربية ، كل فى اختصاصه .

٢ ـ لا ريب فى أن المستشرقين أدوا للعلم ، وللتراث العربى خدمات جليلة بما بذلوا من جهد عظيم رائع ، يستحق الإكبار والتقدير ، ويمكن أن نقول إنهم ساعدوا على طى فترات طويلة من الزمن ، كانت ستحتاجها النهضة العلمية والأدبية فى المجتمع العربى لتصل إلى ما وصلت إليه الآن ، ولكن ثمرات جهودهم التى قدموها للعرب مباشرة فى صورة مؤلفات أو محاضرات باللغة العربية ، أو بطريق غير مباشر كمؤلفاتهم بلغاتهم ، وهذه نقلها العرب إلى اللغة العربية . كل ذلك وفر على

---

(١) تقديم الدكتور طه حسين لكتاب نالينو تاريخ الآداب العربية ص ١١ وتولى نالينو التدريس فى الجامعة سنة ١٩١٠ وتوفى سنة ١٩٣٨

العرب هذه الجهود العلمية المثمرة ، التى كانوا سيحتاجون إلى زمن غير قصير حتى يحصلوها ، ومن الواضح إذن أن المستشرقين فضلا كبيراً بما أسهموا به فى بناء النهضة العربية الحديثة ، وقد كان إسهاماً كبيراً عظيماً .

٣ — لا شك أن كثيراً من المستشرقين كان يمثل أمانة العلم ، فالتزموا الطريق القويم مستهدفين حقائق العلم وأمانته ، وهم بهذا لم يحيدوا عن مهمتهم المنوطة بهم ، أو التى يستهدفونها من زاوية الوضع العام للمستشرقين ، وهو أنهم خبراء فى تخصصات مختلفة ، ووراءهم شعوب وجهات معينة ، تنتظر ما يعودون به من معلومات تلقى أضواء كاشفة على أمة ذات كنوز ثمينة دفينة ، يراد الكشف عنها ، وهى الأمة العربية فضلا عن الرغبة فى أن تكون هذه الأمة تحت الأضواء حين يطبق الاستعمار عليها بأنيابه ومخالبه ، فالمستشرقون من هذه الزاوية يعتبرون كتائب استطلاع ، تسبق الغزو الاستعمارى ، والتاريخ يؤكد هذه الحقيقة ، ولكن هذا حكم عام لا ينفى أن يكون من بينهم من ينشد العلم لذاته ، دون هدف آخر ، أو ارتباط بشىء آخر .

٤ — لا شك أيضاً فى أن بعض المستشرقين غلبت عليه نزعة التعصب العنصرى ، والتعصب الدينى حتى أعمتاه عن إخلاصه للعلم . ولأمانته فيما وكل إليه ، وهذا النفر من المستشرقين أخذ يتلمس الثغرات فى التاريخ العربى والإسلامى وعلومهما ، فإن لم يجد فلن يرى بأساً بأن يصطنع من المصادفات التاريخية ما يشبه الثغرة ، كما فعل الأب المستشرق (لامانس) حين زعم فى دراساته التاريخية أن الخلافة الإسلامية تعرضت لمؤامرة نفذها أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة بن الجراح وأعانتهم عليها عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . وكما فعل (جولد زيهر) فى دراساته الدينية حول القرآن الكريم ، حين حاول أن يصطنع ثغرات تتعلق باختلاف القراءات ونحو ذلك مما يتعلق بعلوم القرآن الكريم(١) وكما فعل (كرنكو) فى دراساته الأدبية حين حاول أن يصطنع أدلة يثبت بها أن لامية العرب ليست للشنفرى .

---

(١) أنظر مذاهب التفسير الإسلامى جولد زيهر .

موقف المستشرقين

قد تمثل بعض هذا التهيد الذى تحدثنا به عن المستشرقين فى موقفهم من اللامية ، فأكثرهم التزم أمانة العلم ، وسلك الطريق الواضحة النيرة ، فساروا على طريق القدامى فيما هو معروف من أن لامية العرب للشنفرى ، بل يكاد المستشرقون يجمعون على ذلك، ولكن واحداً منهم آثر أن يلجأ إلى طريق ملتو وهو (كرنكو) الذى حاول أن يتصيد أى دليل أو تكأة يصل منها إلى أن هذه اللامية لخلف الأحمر وليست للشنفرى[١] ، وحينئذ نرى بوضوح أنه — إذا أحسنا الظن به — لم يزد على أن بعث العنصرية الأعجمية القديمة من مرقدها ، ولكنه لا يدعنا نحسن الظن به ، حين يحاول اصطناع دعاوى على قدامى اللغويين لا حقيقة لدلالتها على شىء ، وقد ناقشنا هذه الدعاوى التى تذرع بها متابعو كرنكو فى موضع من غير هذا الكتاب ، وليس هناك ما يدعو إلى تكرارها (٢) ولكن موقف كرنكو من اللامية وإن كان يبدو يسيرا فى ذاته إلا أنه ترتبت عليه أمور لا تخلو من غرابة أحيانا ، ومن خطورة علمية أحيانا أخرى ، ويمكن أن نعرض ذلك فى النقاط الآتية :

١ — هناك شبه كبير بين المحاولة التى تحدث عنها ابن دريد فى القديم للتشكيك فى نسبة اللامية ، والمحاولة التى قام بها كرنكو للغرض نفسه ، من حيث إن كلا المحاولتين لا تقوم على دليل ، ومن حيث إن كلتيهما تنبىء عن غرض مريب يختفى وراءها ، وأوضح ما يبرز من هذا الغرض ، محاولة المساس بالتراث العربى الذى يمكن أن يكون للعرب اعتزاز به .

٢ — ومما يثير التقدير للمستشرقين فى جملتهم أنهم لم يتابعوا كرنكو فيما ذهب إليه ، بل استنكروا جنوحه هذا استنكاراً ظاهراً ، وهذا كارل بركلمان

---

(١) أنظر تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١٠٦/١

(٢) أنظر فصل لامية العرب من كتاب شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للمؤلف .

رغم أنه لم يحاول التحقيق العلمى لما ادعاه كرنكو ثقة فيه وفى معلوماته ، إلا أنه ينكر عليه محاولته نفى اللامية عن الشنفرى معتمدا على نقد موضوعى دقيق ، وهو أن اللامية تخالف المنهج الذى التزمه خلف الأحمر ، فليس بينها وبين شعره وقصائده شبه أو صلة ، بينما هى تمثل روح الشنفرى وحياته ، وكذلك ينقل كارل بروكلمان عن مستشرق آخر من أشد المعجبين بلامية الشنفرى، والمدافعين عن نسبتها إلى الشنفرى والمستنكرين كل محاولة للتشكيك فى هذه النسبة ، وهو جورج ياكوب (١) ، أما المستشرق نالينو فقد كان واضح الإعجاب باللامية إعجابا لاحد له ، ومن كلامه عن ذلك قوله « أما الشنفرى الأزدى فصاحب اللامية المشهورة التى يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه فى البرارى كأنه لم يعاشر إلا السباع ، وهى قصيدة غاية فى الجمال تنطق بلسان حال الشاعر» ثم أشار إلى استنكاره للمحاولة التى يراد منها التشكيك فى نسبة اللامية للشنفرى (٢) .

ومما يذكر للمستشرقين أنهم كانوا فى العصر الحديث أول من لفت أنظار الدارسين العرب إلى قيمة اللامية ، وأنها درة ثمينة نادرة فى جودتها وانفرادها بمزايا عديدة ، وقد ترجموها كلٌّ إلى لغته ، فأصبحت مترجمة إلى كل اللغات الحية والمتداولة فى الغرب تقريباً ، كما نرى ذلك واضحا فى محاولة كارل بروكلمان أن يستقصى كل ما يتعلق بها من شروح عربية ، أو أجنبية ، أو ترجمات أو تعليقات عليها بأى لغة ، ومن حديثه عنها قوله فى تاريخ الأدب العربى « أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل ، كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب فى تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلى وصف الطبيعة ، من الجبال والفيافى وغيرها ، غرضا مقصوداً لذاته ، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساس يهيج لتصوير الإنسان نفسه وأعماله » .

وهذه مجرد نماذج من أحاديث المستشرقين عن اللامية ، وعن نظرتهم إليها .

٣ — كل ما نريد أن نخلص إليه من الحديث عن المستشرقين أننا لا نريد التهوين

---

(١) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١/١٠٦ ويذكر أن ياكوب طبع ترجمة وتقديما للامية فى هانوفر .

(٢) تاريخ الآداب العربية كارلونا لينو ٧٣

من شأنهم العلمى ، ولا من فضلهم فى تأسيس النهضة العلمية العربية الحديثة ، ولكننا فى الوقت نفسه ينبغى أن نحذر الانسياق الأعمى وراءهم أو وراء غيرهم ، ومصدر هذا التحذير أن بعض الدارسين حين ينبهرون بالحصيلة العلمية للمستشرقين يسلمون لأى منهم القياد ، فينساقون وراء آرائهم دون نقد ، ويأخذون آراءهم وكأنها حجة مسلمة، وما ينبغى أن يكون هذا شعار باحث أو دارس فضلا عن العالم،ومن المسلم به أن الجهود العلمية ينبغى أن يبنى بعضها على بعض ، وأن يكون شعار الباحثين والعلماء فيما بينهم التعاون ، ولكن يجب أن يكون الرائد والهدف معاً هو الوصول إلى الحقيقة ، فالحقيقة لذاتها وفى السعى إليها يجب أن تكون دائماً وفى كل الأحوال هى القائد والموجه والمرشد لكل من يزاول العلم ، أما الأشخاص فمهما بلغ إعجابنا بهم ، واكبارنا لعلمهم،فلا ينبغى أن تتجاوز صلتنا العلمية بهم فى ميدان البحث العلمى مرحلة الاسترشاد ، أما إسلام القياد فلا ينبغى أن يكون إلا للحق حين يكون واضحاً جليا .

ولكن بعض هذا الذى نحذره قد وقع بالنسبة لكثير من الدارسين ، وفى كثير من ميادين الدارسة والعلم ، حين بهرهم هذا الفيض الواسع الذى يحمله المستشرقون من العلم ، فأصبحوا تحت تأثير الأعجاب بهم ينظرون إليهم على أنهم لا يصدرون عن جهل ، بل ولا ينطقون عن هوى وترتب على ذلك أن وجد ذوو النفوس المريضة من المستشرقين الذين أعماهم التعصب الدينى والعنصرى عن تلمس الحقيقة فانساقوا وراء اهوائهم ، ووجد هؤلاء المستشرقون من الدارسين العرب من يأخذ أهواءهم ، وكأنها حقائق علمية ، حتى حسب هؤلاء الدارسون من العرب أن هذه الغمزات التى نادى بها المستشرقون ليست إلا تجديدا فى العلم ، ونتائج غابت عن علمائنا القدامى فاهتدى إليها المستشرقون .

وليس يخاف أن فى هذا من الخطورة العلمية ما فيه ، وأنه يجب أن توجه جهود معينة ذات كفاءة وأمانة ، لإحقاق ما فى بحوث المستشرقين من حق ، وإبطال ما فيها من باطل .

أما بالنسبة للامية العرب فإن المستشرقين أنفسهم تولوا عنا مشكورين إحقاق الحق وإبطال الباطل ، فلئن كان قد جار بعضهم عن القصد ، فإن الغالبية العظمى منهم قد أنحت عليه بما يشبه اللوم ، متصدية للدفاع عن الشنفرى ولاميته .

المتأثرون بالمستشرقين

وضح مما سبق أن التشكيك فى نسبة اللامية للشنفرى لا يرتكن إلى أى سند تاريخى ذى قيمة ، وأن من الواضح أنه لا يمثل سوى نزعة عنصرية غير أمينة ، سواء فى القديم والحديث .

ولكن المغرق فى الغرابة والعجب أن يكون كثير من المستشرقين أحرص على الدفاع عن اللامية ونسبتها إلى الشنفرى من بعض الدراسين العرب . فقد رأينا آنفاً كيف انبرى كثير من المستشرقين يدافعون بقوة وحماس عن لامية الشنفرى ، فى أسلوب يشبه الإنكار على من جار منهم عن هذه السبيل ، ومع ذلك يأتى بعض الدارسين العرب(١) فيتجاهل الواقع التاريخى ، والواقع الموضوعى ، ويتجاهل موقف معظم المستشرقين ولا يحلو له إلا أن يتابع نزعة المستشرق كرنكو الذى ترك كل شىء أيضاً ولم يحل له إلا هذا الخيط الواهى الذى تمثل فى نزعة التشكيك التى عاصرت حياة ابن دريد والقالى ثم ماتت دون صدى ، وحيث يصوغ الدارسون العرب مثل هذا التشكيك فى بحوث علمية فن الطبعى أن يتابعهم من يأتى بعدهم ، أعنى من يتابع هذه الدراسة ، أو يتناول هذا الموضوع من بعدهم بالدراسة ، اعتماداً على أن الباحث السابق فى هذا الموضوع يكون عادة قد بذل جهداً علمياً يغنى اللاحق له فى الدراسة عن تكراره ، ملتمساً جهداً زائداً أو جهداً آخر ، وهذا ما حدث ، فبعد أن ظهر كتاب الشعراء الصعاليك(٢) معتمداً على التشكيك فى نسبة اللامية للشنفرى ، ظهر بعده كتاب تاريخ الأدبى العربى(٣) يؤكد تأكيداً وليس مجرد تشكيك أن اللامية لخلف الأحمر ، وأنها نحلت على الشنفرى نحلا وهو منها برىء ، ولئن كان الكتاب الأول قد أشار إلى تأثره بالجائرين عن القصد من المستشرقين ، فإن

---

(١) هو الدكتور يوسف خليف فى كتاب الشعراء الصعاليك .

(٢) للدكتور يوسف خليف وقد ناقشنا أدلته فى كتاب شعر الصعاليك .

(٣) للدكتور شوقى ضيف أنظر العصر الجاهلى ٣٨٠

الكتاب الثانى تجاهل تأثره بأحد ، مع وضوح تأثره بالكتاب الأول ، وهذا بدوره واضح التأثر بالمستشرقين ، وكما أشرنا سابقاً فإن هذه النزعة وإن كانت تبدو يسيرة المظهر ، إلا أنها تتضمن خطورة على تراثنا العربى ، وأشد ما فى الأمر من خطورة أن أمثال هؤلاء الباحثين العرب يتولون التوجيه العلمى ، وخاصة فى الجامعات بوصف معظمهم أساتذة فيها ، ومعنى ذلك أن يتابعهم تلاميذهم فى مثل هـــذا المنزع ، ثم يبنون فى بحوثهم العلمية مستقبلا على هذا الأساس ، وبعد أن كان هذا الأساس مجرد شك أو ترجيح كما كانت مناقشة كتاب الشعراء الصعاليك لموضـــوع اللامية فى نسبتها ، يصبح هذا الشك حقيقة وتأكيداً كما فعل صاحب كتاب تاريخ الأدب العربى المشار إليه ، وكما ننظر فيما يأتى بعد ذلك من بحوث تتعلق بهذا الموضوع .

ومن الإسراف والشطط أن يظن أحد من قريب أو بعيد أن فى هذا حجراً على البحث العلمى ، أو تقييداً لحرية الفكر والاجتهاد ، ولكن حرية الفكر والاجتهاد إنما تباح فيما هو مطلق وخاصة فيما لا يؤدى الاجتهاد فيه إلى طمس حقيقة ، أو مساس بحق من الحقوق ، أما حرية التفكير فى تناول نسب اللامية بهذه الصورة فإنها لا تعدو تخيلنا أن يأتى اليوم أو بعد حين من يقف بجوار أهرام الفراعنة ، ثم يقول إننى أرى أن الذين بنوا هذه الأهرام هم الأنجاز وليس الفراعنة ، ويستطيع أن يصطنع أسلوب العلماء فيقول إننى أرجح ذلك ترجيحاً وليس على وجه اليقين ، والدليل على ذلك أنه لا يعقل ان يصمد بناء فى وجه الزمان وعادياته فيظل بحالته شبه كاملة ما يربوا على أربعة آلاف من السنين ، فهذا شىء لا يكاد يكون له نظير فى العالم ولا فى التاريخ ، ومن الأدلة أيضاً أنه لا يعقل أن يستطيع قوم بداة مغرقون فى البداوة ، لم يكونوا يملكون سوى الفأس والمحراث ، ثم هم يستطيعون بناء ما يداعب السحاب ، وما تتجاوز هامته المائة وخمسة وستين متراً فكيف يستطيعون بناء هذا الجبل أو ما يشبهه ، ومن أين لهم هذه الآلات التى تستطيع أن تجعل أصغر لبنة فى هذا الهرم تكاد تصلح بيتاً من بيوت عصر الفراعين؟ وإذا استطاعوا ذلك فمن أين لهم هذه الآلات التى تستطيع أن ترفع هذه الأحجار أو هـــذه البيوت إلى عنان السماء ؟ وإذا استطاعوا ذلك كله ، فمن أين لهم هذه المقدرة الفنية أو الهندسية أو الفلكية التى جعلت الأهرام بهذه الصورة التى تبهر

العالم كله من نواح عديدة وليس من ناحية واحدة ؟ ومن الأدلة أيضاً ان التاريخ يؤكد أن الانجليز دخلوا مصر وأقاموا فيها مستعمرين ومتسلطين نحو سبعين عاما ، وهى فترة كافية لبناء مثل هذه الأهرام ، ومن الأدلة أيضاً أن هذه المبانى الشاهقة التى تناطح السحاب إنما عرفت فى الغرب وفى العصر الحديث . ويستطيع هذا الذى تخيلناه واقفاً بجوار الأهرام فى يوم قريب أو بعيد أن يضيف أدلة غير قليلة من نحو هذا الذى قاله ، ثم ينتهى متمثلا وقار العلماء أيضا إلى أن الانجليز فى أغلب الظن هم الذين بنوا الأهرام لأنهم يملكون من سبل الحضارة وأنواع الآلات ، ومختلف القدرات على بناء هذه الأهرام .

وحرية التفكير فى تناول نسب اللامية بهذه الصورة لا تعدو كثيراً أيضاً أن يقف شخص أمام دار يملكها شخص معين ومعروف من الناس ، فيقول إننى أرى أن هذه الدار ليست لهذا الشخص ، وإنما هى لجاره . ثم يسوق ما يشاء من الأدلة بالمنطق الذى سيقت به أدلة الأهرام .

فالحرية لم تكن ولن تكون قط مطلقة فى العلم أو فى غيره ، وإنما هى دائماً مقيدة ، وأيسر قيودها ألا تمس حقوق الآخرين ولا حريتهم ، ونسبة اللامية للشنفرى ثم للعرب قد استقرت نحو ألف وخمسمائة عام ، ولم تؤثر فيها محاولات العنصرية فى القديم أو الحديث .

ولست أشك فى أن هؤلاء الدارسين والباحثين العرب يذهبون فيما يذهبون إليه عن قصد حسن ، وأن ما يؤاخذون به شىء غير القصد ، فبعضهم يخدع نفسه أو غيره حين يظن أن هذا تجديداً وابتكاراً ، وأنه أتى بما لم يأت به الأوائل فى هذا الذى حسبه تجديدا وابتكارا ، وبعضهم يغالى فى الثقة بالمستشرقين وغيرهم ممن سبقوه بالجهد العلمى مغالاة تسلبه صفة العالم المستقل الفكر ، والباحث بجهده عن الحقيقة ، وبعضهم يؤثر التخفف من بعض الجهد فى تحرى الحقيقة والوصول إليها عن طريق الجهد العلمى .

وفى كل حال نجد هؤلاء جميعاً لا يحسنون التفكير فى قيمة تراثهم العلمى المجيد ، ولا يحسنون التفكير فى مسئوليتهم هم نحو هذا التراث ، وأخيرا لا يحسنون التفكير

فى خطورة التشكيك ، وخاصة فى التراث القديم بالذات ، فلدينا أربعة أجيال على الأقل ، جيلان قبل الاسلام ، وجيلان بعده ، كلها يعتمد فيما يتعلق بالتراث الأدبى على مجرد الرواية ، وليس فيها شاعر أو أديب دون ما أنتج ، أو أملاه على كاتب . وحينئذ نجد المجال خصباً مهيئاً للتشكيك ، بل إن التشكيك فى موضع أو جانب قد يسرى كالداء إلى بقية الجوانب ، والتشكيك فى هذه الفترة أيسر من الإثبات ، والهدم أيسر من البناء كما أن أدلة التشكيك دائماً وبصفة عامة أيسر وأقرب منالا من أدلة الإثبات ، وتراثنا فى حاجة إلى البناء وليس إلى الهدم .

نماذج من نقد اللامية

ونعنى من هذه اللمحة استعراض بعض النماذج التى لا يراد منها الاستقصاء ، وإنما مجرد التمثيل لآراء بعض أئمة النقد والعلم على مختلف العصور ، فى لامية العرب ، من حيث هى قصيدة ، أو من حيث احتواؤها على معان تلفت النظر إليها فى تفوقها وامتيازها ، ويمكن عرض هذه الأمثلة فى إيجاز كما يلى :

من القدامى

١ — يقول أبو على القالى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ عن اللامية بوصفها قصيدة ، وهى من المقدمات فى الحسن والفصاحة والطول ،(١) فوصفها بأربع صفات محددة ، أولها كونها من المقدمات ، ثم الحسن والفصاحة والطول ، ولكل صفة منها مدلولها النقدى فى الأدب .

٢ — يقول أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ عن بعض ما يلفت النظر من معانى اللامية لتفوقه وتميزه ، ومما هو فصيح فى لفظه ، جيد فى رصفه ، قول الشنفرى :

أُطيل مِطالَ الجوع حتى أُميتَهُ
وأضربُ عنه القلب صفحًا فيُذْهَل(٢)

ثم يذكر البيتين التاليين لهذا البيت .

ورغم الإيجاز فى نقد العسكرى ، وهو عادة النقاد القدامى ، فقد أشار إلى أن هذه الأبيات قد اكتملت فيها جودة الشعر . سواء من حيث اللفظ أو المعنى .

٣ — يقول ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فى سياق حديث عن صديقه

---

(١) الأمالى ١/١٥٥

(٢) المطال بكسر الميم الماطلة والمعنى أغالب الجوع وأتناساه حتى أتغلب عليه وفى البيت هنا اختلاف عن الأصل انظر كتاب الصناعتين ٦٢

العدوى النحوى ، وكنت أعارض معه إعراب شيخنا عبد الله بن الحسين العكبرى لقصيدة الشنفرى اللامية إلى أن بلغنا إلى قوله :

وأَسْتَفُّ تُربَ الأرض كى لا يرى له
علىَّ من الطَّول امرؤٌ مُتَطَوِّلُ(١)

فأنشد أبياتا لنفسه فى هذا المعنى ، فقلت له : قول الشنفرى أبلغ ، لأنه نزه نفسه عن ذى الطول . . . »

فى العصر الحديث

أولا : المستشرقون :

لقد كان للمستشرقين كما سبق الفضل فى لفت الأنظار إلى قيمة اللامية ، وإلى أنها درة أدبية فريدة . تثير الإعجاب ، وتبهر الأذواق الأدبية ، ولا يقلل من هـذا الفضل أن يكون بعضهم هو الذى أثار الشك فى نسبتها إلى صاحبها ، فكل جائر مسئول وحده عن جوره ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، أما الغالبية العظمى من المستشرقين فقد بلغ إعجابهم باللامية ما يشبه الافتتان ، وكأنهم حين يتحدثون عنها يتغنون بها أو يتغزلون فيها . ومن هؤلاء على سبيل المثال :

١ — جورج ياكوب الذى ينقل تاريخ الأدب العربى(٢) أنه ترجم اللامية وفى مقدمة هذه الترجمة يؤكد أن اللامية تنهج مذهباً شعرياً ممتازاً لدرجة تنبىء عن عن صاحب اللامية .

٢ — كارل بروكلمان ، حيث يقول فى كتابه تاريخ الأدب العربى الذى نشر

---

(١) معجم البلدان ٣/ ٦٩٦ والطول الفضل والمن والمتطول النعمة المتفضل بها والمعنى أفضل أكل التراب على نعمة يمن بها أحد علىَّ .

(٢) كارل بروكلمان ١ / ١٠٦

لأول مرة سنة ١٨٩٨ م » أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل . وعلى حين يجعل الشاعر الجاهلى وصف الطبيعة ، من الجبال والفيافى وغيرها غرضا مقصوداً لذاته ، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير الإنسان نفسه وأعماله وإذاً فليس هناك ما يحملنا على موافقة ... الذين افترضوا لهذه القصيدة اللامعة بين قصائد الشعر الجاهلى شاعراً آخر غير الشنفرى الذى رويت له القصيدة » (١) وكلام بروكلمان يتضمن أن اللامية استحدثت فى جـــودتها منهجاً شعرياً فى الهدف والتصوير والتعبير ، وقد كان يمكن أن تأتى قصائد أخرى تتابع هذا المنهج ، كالمألوف عادة فيما يستحدث من منهج أو مذهب ، ولكن الواقع أن اللامية لم تتكرر فى مستواها الأدبى من أكثر من ناحية . وإلى نحو هـــذا يشير بروكلمان ، مع أنه لم يكن دقيقاً فى تعبيره عن موقف أبى على القالى ، فهو يقول فى هذا السياق « أما أبو على القالى فقد صرح فى الأمالى بأنها من صنع خلف الأحمر » وهذا يوحى بأن هذا رأى أبى على القالى ، والواقع أنه ليس رأيه ، وإنما هو رأى أبى بكر بن دريد الذى يرويه القالى كما سبق ، أما القالى نفسه فيعرف أن الشنفرى هو المنسوبة إليه اللامية ، وهو يؤيد ذلك ، كما ساق نص اللامية منسوبة إلى فى كتاب الأمالى نفسه .

٣ ـــ نالينو ، حيث يقول فى محاضراته التى أملاها فى جامعة القاهرة عن تاريخ الآداب العربية « أما الشنفرى الأزدى فصاحب اللامية المشهورة التى يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه فى البرارى ، كأنه لم يعاشر إلا السباع ، وهى قصيدة غاية فى الجمال ، تنطق بلسان حال الشاعر »(٢) فهو يرى ضمناً أن الشنفرى يكفيه فخراً أن يكون صاحب هذه القصيدة ، وأن هذه اللامية تكفى شرفاً لأى شاعر ، بالإضافة إلى أنه جعلها تبلغ القمة فى الجمال ، وهو وصف لا يلقى جزافا من عالم ضليع .

---

(١) المصدر السابق ١/١٠٦ ، ١٠٧

(٢) تاريخ الآداب العربية كارلو نالينو ٧٢ والكتاب نص المحاضرات التى ألقاها سنتى ١٩١٠ ، ١٩١١ م

ثانياً : الباحثون العرب :

لقد كان الباحثون المعاصرون من العرب أشد المتحدثين عن اللامية تحاملا عليها ، ومحاولة لهدمها من جهتين ، أو لسببين ، هما .

(ا) مع أن الواضح كما سبق أن اللامية ثابتة النسب إلى الشنفرى ، وأن ما عدا ذلك لا يعدو أن يكون تشكيكا غير أمين ، أو غير دقيق على خير الفروض ، إلا أن الباحثين المعاصرين من العرب تركوا الأصل ، وهو ثبوتها للشنفرى ، وجنحوا إلى الجانب الضعيف جداً وهو الشك فى هذا الأصل ، ولسنا ندرى لماذا ؟ وحتى مع القول بأنهم إنما يتابعون فى ذلك المستشرقين تحت دافع التأثر بهم والتلمذة العلمية لهم ، نقول مع أن هذا واضح حقاً وخاصة فى نقلهم أدلة التشكيك التى ساقها المستشرقون دون فحصها أو مراجعها علمياً ، نقول مع ذلك فإن التساؤل قائم ، وهو لماذا تركوا موقف المستشرقين المؤيدين لثبوت اللامية للشنفرى وهم الغالبية العظمى وانحازوا إلى الفريق الضعيف جداً من المستشرقين وهو الذى حاول التشكيك فى فى نسبتها للشنفرى ؟

(ب) الناحية الثانية من ناحيتى هدم اللامية حينما تنتفى عن الشنفرى ، أن اللامية تكاد تقتصر على تصوير حياة الصعاليك ، وكل الذين تحدثوا عنها يعرفون ذلك ويقررونه لأنه واضح وواقع ملموس مشاهد ، والشنفرى صعلوك ، فهو الذى يوصف بالصدق الأدبى أو الفنى حينما نقول إنه صاحب اللامية ، لأنه حينئذ يصور حياة حقيقية يعيشها ويعانيها ، أما إذا نسبناها إلى خلف الأحمر أو حماد عجرد أو غيرهما من غير الصعاليك فستفقد اللامية دعامة أساسية تقوم عليها ، ويقوم عليها أى أدب وهى الصدق الأدبى ، وهو معنى يتفق النقاد على أنه من أهم الأسس التى يقوم عليها أى أدب حقيقى فحينما نقول إن اللامية من صنع خلف الأحمر ، الشاعر العالم الوادع ، الغارق فى الدعة والطمأنينة ولين العيش ، والذى لم يتصعلك بإجماع الرواة ، ولم يعاشر الصعاليك ، ولم يخبر حياتهم ، ولم يذق شيئاً مما تزخر به من مرارة العيش ، ورهبة الحياة ، وقلق النفس ، وتوقع المكروه فى كل حين ، وغير ذلك مما يمسى عليه الصعلوك ويصبح ، ولا يجد شيئاً سواه فيما بين ذلك ، حينما نقول إن

اللامية من صنع خلف الأحمر نكون قد هدمنا اللامية هدما ، وجعلناها أدباً زائفاً كاذباً ، يبعد عن الحقيقة بمقدار بعد خلف عن حياة الصعاليك ، وهو بعد لانهاية له ، لأنه لا وجه للمقارنة بين حياة خلف وحياة الصعاليك .

ولكن كارل بروكلمان يضيف إلى ذلك ملاحظة من صميم النقد الموضوعى ، ليت باحثينا العرب كانوا أبصروها أو أشاروا إليها مع وضوحها ، حيث يقول كارل بروكلمان « ولكن القصائد التى وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائماً بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل »(١) فمهما حاول خلف أن يقلد أو ينحل على غيره من الشعراء ، حتى ولو كانوا من الصعاليك فمنهجه هو الطابع التقليدى للشعر القديم ، هذا الطابع الذى يسميه القدامى عمود الشعر ، وكون الشعر للصعاليك لا يمنع أن يكون بالطابع التقليدى .

ومن أمثلة هذه البحوث المعاصرة :

١ — كتاب الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى(٢) ، حيث يعتمد على نزعة الشك المشار إليها مردداً مزاعم بعض المستشرقين ، ولم يزد عليها تقريبا أكثر من تجميعها ثم تدعيمها ، لتنتقل من مرحلة الشك إلى مرحلة الترجيح القوى بأن اللامية ليست من صنع الشنفرى ، وفى الوقت نفسه تحاشى أن يذكر أو يشير إلى شىء من الأدلة أو حتى الآراء التى تنسبها للشنفرى .

٢ — كتاب تاريخ الأدب العربى (٣) ، وهذا الكتاب تجاوز مرحلة الشك فأكد تأكيداً جازما بأن اللامية منحولة على الشنفرى ومدسوسة عليه ، وأنها

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١٠٦/١

(٢) للدكتور يوسف خليف وقد ناقشنا أدلته فى كتاب شعر الصعاليك منهجه وخصائصه .

(٣) للدكتور شوقى ضيف (العصر الجاهلى) ٣٨٠

على وجه غير مشكوك فيه عنده من صنع خلف الأحمر ، وهو بهذه البساطة والسهولة يلغى كل الروايات التاريخية ، وكل آراء النقاد والعلماء ، وكل الشروح التى تفرغت للامية ونسبتها إلى الشنفرى دون لبس أو شـــك ، ألغاها ولم يشر إلى شىء منها ولو مجرد إشارة ، سوى أن الشنفرى اشتهرت له لامية العرب ، ولكنه يستدرك فوراً فيقول « وهى مما نحل عليه ، فقد نص الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر» وقد قلنا إنه استشهاد مبتور ، حيث يذكر ما قاله أبو على القالى فى الجزء الأول من الأمالى ، ثم يجهل أو يتجاهل ما قاله فى الجزء الثالث من الكتاب نفسه .

لامية العرب

وهذا نص لامية الشنفرى[١] التى سميت لامية العرب ، لأنها تصلح أن تكون من مفاخر الأدب العربى كله ، ويراعى أن هناك اختلافا فى الألفاظ بين الروايات التى نقلت اللامية ، وخاصة ما بين روايتى الزمخشرى وأبى على القالى .

وهـــذا الاختلاف منصب على الألفاظ ، أما المعانى فقد احتفظت بجوهرها فى كل الروايات .

أَقِيمُوا بَنِى أُمِّى صُدُورَ مَطِيِّكُمْ

فَإِنِّى إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ[٢]

---

(١) من الطريف أن صاحب مطبعة الجوانب بالقسطنطينية ، وأحد ناشرى كتاب أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى يصف الشنفرى بالعلامة ، فيقول (لامية العرب للعلامة الشنفرى) وهذا وهم منه حيث حسب أن الشنفرى من العلماء ، وهذه الطبعة ظهرت سنة ١٣٠٠ هـ وبهامشها شرح للمبرد على اللامية .

(٢) يريد أنه صمم على أمر معين ، وهيأ نفسه له ، وهو الرحيل عن هذا المكان إلى مكان آخر ، لأنه ضاق بهـــذا المكان وأهله ، وعليهم أيضا أن يهيئوا أنفسهم لذلك ، وبنو الأم الأشقاء من الاخوة أو غير الأشقاء ما دامت تجمعهم الأم ، واختار هذه الصلة لأنها أقرب الصلات إلى العاطفة والمودة وهكذا كل ما يرتبط بالأم أو يأتى عن طريقها من الصلات . وهو لا يقصد إخوة حقيقيين ، وإنما يريد أنه قرر هجر الناس جميعاً حتى أقربهم إليه ، والمطايا يريد الإبل ، وإقامة صدورها كناية عن التهيؤ للرحيل ، وليس معناه الســـير فعلا كما فى بعض الشروح ، فالمنظر الواقعى للناقة أنها إنما تنصب صدرها عندما تتهيأ للقيام من بروكها ، والشطر الثانى تعليل للشطر الأول ، والتفضيل فى أميل ليس على حقيقته ، فهو لا يفاضل بين ميله إليهم وإلى غير غيرهم ، وإنما يريد أنى كرهت مقامى بينكم وأرغب فى مكان سوى هذا المكان ، والتعبير بإقامة صدور الإبل تصوير أدبى يجسم المعنى ويبرزه ، وهو لا يريد منهم الاستعداد لرحيلهم هم ، وإنما يريد استعدادهم لرحيله هو عنهم ، وكأنه يشير إلى أنهم لا مقام لهم بعد رحيله ، فمن الخير لهم أيضا أن يرحلوا .

فَقَدْ حمَّتِ الحاجَاتُ واللَّيْلُ مقمِرٌ
وَشُدَّتْ لِطِيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرحُلُ (١)

وَفِي الأَرْضِ مَنْأًى لِلْكَرِيمِ عن الأَذَى
وفيها لِمَنْ خافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ (٢)

---

(١) حمت بالبناء للمجهول قدرت ودبرت . والطية بالكسر الحاجة أو النية المدبرة وكلاهما يصلح هنا والأرحل جمع رحل وهو ما يوضع على البعير . ومعنى البيت قريب من المثل القديم (أمر أبرم بليل) فالمعنى أن هناك أمراً عقد عليه العزم ودبر فى روية وأناة ، وحينئذ يكون صاحبه مقتنعا به وهو المراد من (والليل مقمر) فضوء القمر هنا ليس مراداً بحقيقته ، وإنما هو كناية عن التفكير فى هدوء ورضا نفس ، ويراد به أيضاً أنه أمر لا يراد إخفاؤه ، فهو فى الضـــوء وليس فى الظلام والشطر الثانى معناه أن الرواحل والمطايا قد شدت وهو تعبير عن العزم والتصميم ، والطيات بكسر الطاء لغرض عقدنا عليه العزم . والبيت مبنى على سابقه، والمعنى هيئوا أنفسكم لحدث كبير دبر بعزم وتصميم ، وهو رحيلى عنكم ، وهذا يدل على اعتزازه بنفسه ، وشعوره بأنه ذو تأثير فى إقامته ورحيله .

(٢) المنأى : المكان البعيد والقلى البغض والكراهية ، والمتعزل : مكان العزلة عن الناس . والبيت حكمة ، شطره الأول معناه أن الكريم يستطيع أن يربأ بنفسه عن الذل والأذى فيهاجر إلى أى مكان بعيد ، والشطر الثانى معناه أن اعتزال الناس أكرم من الانفال عليهم واحتمال نفورهم وكراهيتهم ، وتلاحظ الدقة فى التعبير بين الشطرين ، فعند الأذى والذل يجب البعد وهذا إذا لم يستطع دفعه ، أما عند مجرد الكراهية فتكفى العزلة ولو دون حاجة إلى رحلة بعيدة .

لَعَمْرُكَ ما فى الأرضِ ضِيقٌ على امْرِئٍ
سَرى راغِبًا أوراهِبًا وهو يَعْقِلُ (١)

وَلِى دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ
وأرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ (٢)

هُمُ الأهْلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ
لَدَيْهِم ولا الجَانِى بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ (٣)

---

(١) العمر : بفتح العين أو ضمها مع سكون الميم الحياة . سرى : مشى فى الليل . راغب : صاحب رغبة . راهب من الرهبة وهى الخوف . والبيت تأكيد لسابقه ، حيث يحلف أن الأرض واسعة ، سواء لصاحب الحاجات والآمال ، أو للخائف ، فالأول يستطيع تحقيق آماله فى الرحلة والتنقل ، والثانى يستطيع أن يجد الأمن فى الرحلة عن المكان المخوف وجملة وهو يعقل قيد دقيق ، معناه أن تحقيق الهدفين السابقين إنما يكون إذا صاحبه التفكير وحسن التدبير ، وهذه الأبيات الأربعة السابقة تمثل معنى متكاملا ، هو أنه قرر فى عزم وتصميم أن يرحل عن المجتمع ، وأن السبل ليست مغلقة فى وجهه ، بل أمامه آفاق واسعة مفتوحة .

وهذا التفكير يمثل بداية الاتجاه إلى الصعلكة وقطع الطريق ، حيث قرر هجر الناس لا لينتقل إلى أناس آخرين ، وإنما إلى الوحوش والفلوات وما سيتحدث عنه بعد ذلك .

(٢) أهلون جمع أهل والسيد بكسر السين الذئب والعملس الذئب القوى السريع ، والأرقط النمر الذى فى جلده بياض وسواد والزهلول الأملس ، والعرفاء الضبع الطويلة العرف ، وجيأل اسم للضبع تقدمت عليه صفته ، والمعنى ضبع طويلة العرف والأصل جيأل عرفاء . والمراد قد اخترت مجتمعا غيركم وغير الناس جميعاً كله من الوحوش . ودونكم يعنى غيركم .

(٣) ذائع : منتشر . وجر جريرة : جنى جناية . وخذ له إذا تخلى عن نصرته . وهو يقارن بين مجتمع الناس الذى هجره ومجتمع الوحوش الذى يعايشه =

وَكُلُّ أَبِيٌّ بَاسِلٌ غَيْرَ أَنَّنِي
إذا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ(١)

وإنْ مُدَّتْ الأَيْدِي إلى الزَّادِ لم أكُنْ
بأعْجَلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القَوْمِ أعْجَلُ(٢)

= فى الصعلكة ، فيقول عن الوحوش هم الأهل ، بأسلوب القصر ، يعنى الأهل الحقيقيين ولا أهل غيرهم ، ثم يتحدث عن فضائل مجتمع الوحوش وما يمتاز به عن الآدميين ، وأولى فضائله أنه لايذيع سراً عنده ، وثانيها أنه لا يخذل بعضه بعضا حتى فى أحرج المواقف ، ومعنى ذلك أن أولى رذائل المجتمع الآدمى عند الشنفرى عدم الأمانة كاذاعة ما يؤتمن عليه أحدهم من سر ، ثم الرذيلة التى تليها قريبة من الخيانة أيضا ، حين يخذل الصديق صديقه أو القريب قريبه ، وهذا نوع من خيانة الصلة والرابطة .

(١) الأبى : الذى يأبى الذل والظلم ، والباسل الشجاع البطل ، والطرائد جمع طريدة وهى الفريسة التى تطارد . وكل أبى يعنى الوحوش التى سبق حديثه عنها ، يصفها بالشجاعة ، ثم يقارن بين نفسه وهذه الوحوش ، فيقول إنه مع الشجاعة الفائقة لهذه الوحوش إلا أننى أبسل منها فى مطاردة الفرائس والزمخشرى يفسر الطرائد بالفرسان،على معنى أن الشنفرى يقارن بين شجاعته وشجاعة فرسان مطاردين للصيد ، وهو تفسير غير دقيق . فالواقع أن السياق يرجح المقارنة بينه وبين الوحوش وتبدو المقارنة فى مطاردة الفريسة لأنها الهدف المشترك بينه وبين الوحوش .

(٢) الجشع : النهم وشدة الحرص . وهذا البيت استطراد منه فى ذكر بعض فضائله ، فبعد أن ذكر أنه يفوق شجعان بيئته من الوحوش استطرد فى ذكر فضيلة أخرى له وهى القناعة وعدم الجشع ، ولكنه اختار هذا المعنى بالذات لأنه قال فى البيت السابق إنه أسبق فى مطاردة الفريسة من كل مطارد ، فخشى أن يظن به أحد الجشع والنهم إلى الفرائس فاحترز عن هذا بأنه قنوع ، وأنه يزاحم فى صيد الفريسة ولكنه لا يزاحم فى أكلها .

وَمَا ذَاكَ إِلاَّ بَسْطَةٌ عَنْ تَفَضُّلٍ
عَلَيْهِمْ وكانَ الأَفْضَلُ المُتَفَضِّلُ (٣)

وإنِّى كَفَانِى فَقْدَ مَنْ لَيْسَ جَازِياً
بِحُسْنَى ولا فِى قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ (٤)

ثَلاثَةُ أَصْحَابٍ فُؤادٌ مُشَيَّعٌ
وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ (٥)

---

(١) البسطة السعة ، والتفضل هو ادعاء الفضل على الغير والمراد أنه يسدى إليهم خيراً بعدم منافسته إياهم أو مزاحمتهم ، والبيت فى جملته يعنى أنه يلتزم هـذا الخلق طلبا للفضل والرفعة .

(٤) ، (٥) التعلل : التلهى ، وتعلل بالشىء اليسير اكتفى به . مشيع : شجاع كأنه فى شيعة وجماعة تنصره والأبيض السيف وإصليت صقيل أو مصلت بمعنى مسلول من غمده . والصفراء القوس وعيطل طويلة العنق . والبيتان يكمل بعضهما بعضاً فى المعنى ، حيث يقول إنى فقدت أناساً لا خـير فيهم ، فمن صفاتهم أنهم لا يقدرون المعروف ولا يجزون عليه خيراً ، وأيضا ليس فى قربهم أدنى خير يتعلل به ، ثم يقول فى البيت الثانى إن لى عزاء عن فقد هؤلاء الناس (يعنى المجتمع الذى هجره واتجه إلى الصعلكة) وعزائى عنهم فى ثلاثة ، هذه الثلاثة تغنينى عن كل هؤلاء الناس ، وهى قلب قوى شجاع كأنه فى ثباته محمى ومنصور بشيعة كبيرة من الناس ، ثم سيف أبيض صارم ، مسلول ومهيأ لكل ما يدعى إليه ، ثم قوس طويلة العنق ، جيدة الصنع ، وهو بهذين البيتين يدخل فى الحديث عن حياة الصعلكة ، مبتدئاً بأهم مقومات هذه الحياة ، التى تتمثل فى الشجاعة الفائقة التى عبر عنها بقوله (فؤاد مشيع) ثم السلاح بنوعيه المهمين عنده ، السيف للقتال ، والقوس لرمى الأهداف عن بعد ، سواء من الأعداء أو الصيد . والبيتان يمثلان انتقالا أدبيا جميلا من عنصر إلى عنصر .

هَتُوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُونِ يَزِينُهَا
رَصَائِعُ نِيطَتْ إليهــا وَمِحْمَلُ(١)

إذا زَلَّ عنها السَّهْمُ حَنَّتْ كأنَّها
مُرَزَّأَةٌ عَجْلَى تُرِنُّ وَتُعْوِلُ(٢)

وَلَسْتُ بِمِهْيافٍ يُعَشِّى سَوَامَهُ
مُجَدَّعَةً سُقْبَانُها وَهْىَ بُهَّلُ(٣)

---

(١) الهتف: الصوت المنغم أعنى صوتا مخصوصاً . والملاسة ضد الخشونة والمتن الصلب وهو الظهر والرصائع جمع رصيعة . وهى ما يرصع أى يحلى به . نيطت : علقت . والمحمل كقود ما يعلق به السيف أو القوس على الكتف . فقــــد وصف قوسه بعدة أوصاف ، منها أن لها صوتاً معيناً عند اطلاقها السهم ، ومنها أنها ملساء الصلب ليست خشنة أو ذات عقــــد تؤذى اليد فى استخدامها ، ومنها أنها مزينة ومرصعة ببعض مايحلى به ، بالإضافة إلى المحمل الذى تعلق به ، وهذا البيت والبيت التالى متابعة لوصف القوس الصفراء العيطل فى البيت السابق .

(٢) زل السهم خرج منها،والحنين صوت معين ، وحنت صوتت بهذا الصوت. ومرزأة كثيرة الرزايا والمصائب ، وعجلى مسرعة . وترن تصوت برنين وتعول ترفع صوتها بالبكاء والعويل ، والمعنى أن صوت هذه القوس عند انطلاق السهم منها يشبه الصوت المكتوم الحزين الذى ينبعث من أنثى كناقة أو امرأة ثكلى شديدة الحزن ، وهذا الحزن واضح فى رنة صوتها وعويلها ، والوصف بكثرة الرزايا وبالسرعة يشير بهما إلى حال القوس فى كثرة الرمى بها وفى سرعتها فى الرمى .

(٣) المهياف السىء التدبير أو السريع العطش والأول أنسب والسوام الماشية التى ترعى ، ومجدعة سيئة الغذاء والسقبان جمع سقب وهو ولد الناقة الصغير الذكر ، وبهل بتشديد الهاء المفتوحة جمع باهل وهى الناقة التى تترك بدون راع أو تترك =

وَلا جُبَّأٍ أَكْهَى مُربٍّ بِعِرْسِهِ
يُطالِعُها في شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ (١)

وَلا خَرِقٍ هَيْقٍ كَأَنَّ فُؤادَهُ
يَظَلُّ بِهِ المُكَّاءُ يَعْلُو وَيَسْفُلُ (٢)

= بدون صرار فى ضرعها ، والصرار يوضع لمنع ولدها من رضعها والباهل لا صرار عليها ، وفى هذا البيت يعود إلى ذكر فضائله بعد استطراده مع القوس وإنما استطرد معها لأنه شديد الشغف بالقوس بالذات لأنها مصدر حمايته من الأعداء ومصدر معيشته فى الصيد ولذلك يتحدث عنها كثيراً فى شعره كما سبق ، والبيت صدى للبيئة التى تعتمد حياتها على الرعى ، ولصفات الرعاة وتفاوتهم أهمية كبيرة فى هذه البيئة وكذلك يقول إنه ليس كالراعى الأحمق الذى لا يحسن غذاء سوامه فيعود بها مع العشاء جائعة أولادها رغم أنها غير مصرورة ، وجوع أولادها كناية عن جوعها هى لأنها من جوعها لا لبن فيها .

(١) الجبأ : الجبان . الأكهى : الأبخر . والسيء الخلق ، أو البليد ، والمرب بضم الميم وكسر الراء الملازم لامرأته . وفى الشطر الثانى يتحدث عن استشارة امرأته فى أموره نافياً ذلك . فينفى عن نفسه الجبن وسوء الخلق . وملازمة امرأته يدل على كسله وانصرافه عن الكسب والتماس الرزق ، وينفى أيضاً أن يكون منعدم الرأى والشخصية فيعتمد دائماً على توجيه امرأته ومشورتها . وعرس الرجل بكسر العين زوجه .

(٢) الخرق المضطرب ذو الدهشة من الخوف والهيق بفتح الهاء الظليم وهو ذكر النعام المعروف بشدة نفوره وهروبه من مصدر الخوف والفؤاد القلب والمكاء نوع من الطير . والمعنى لست جبانا والمخاوف لا تزعجنى ، ولست من الذين يسيطر الخوف على أحدهم فيصبح قلبه من اضطرابه كأنه معلق فى طائر يعلو به وينخفض .

وَلا خَالِفٍ دَارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ
يَرُوحُ وَيَغْدُو دَاهِناً يَتَكَحَّلُ (١)

وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ
أَلَفَّ إِذَا مَا رُعْتَهُ اهْتَاجَ أَعْزَلُ (٢)

وَلَسْتُ بِمِحْيَارِ الظَّلامِ إِذَا انْتَحَتْ
هُدَى الهَوْجَلِ العِسِّيفِ يَهْمَاءُ هَوْجَلُ (٣)

---

(١) الخالف التافه الذى لا خير فيه ، والدارى والدارية المقيم فى داره لا يبرحها والمتغزل المتفرغ لمغازلة النساء ، والرواح عكس الصباح من الظهر إلى الليل والغدو من الصباح إلى الظهر . والداهن الذى يتزين بدهن نفسه ، والمتكحل الذى يكحل عينيه . ينفى عن نفسه صفات المخنثين التى تتمثل فى هذه المظاهر من عدم مزاولة العمل ، والتفرغ لمغازلة النساء والتشبه بهن فى الادهان والتكحل ونحو ذلك .

(٢) العل بفتح العين القراد وهو حشرة صغيرة مثل البق ومن الرجال الضئيل الضعيف ، ودون خيره بمعنى أقرب من خيره ، وألف بفتح اللام الضعيف الذى لا خير فيه لشىء ، والروع الفزع واهتاج يعنى خاف وفزع والأعزل الذى لا سلاح معه . ينفى عن نفسه التفاهة والضعف والسلبية ، ويثبت لنفسه ضمناً عكس هذه الصفات .

(٣) المحيار المتحير الضال ، وانتحت اعترضت وأفسدت ، والهدى الهداية والمراد هداية الطريق فى الصحراء ، والهوجل أولا الرجل الأحمق والعسيف الضال عن الطريق ، ويهماء صحراء وهو جل الثانية مقفرة لا معالم فيها للاهتداء وهو وصف للصحراء ، ويهماء فاعل انتحت ، والمعنى لست متحيراً حتى فى الظلام ، وحتى فى الفلاة المقفرة التى تضلل سالكها الأحمق الذى لا يحسن معرفة المسالك ، وأصل التركيب لست بمحيار الظلام إذا انتحت يهماء هوجل هدى الهوجل العسيف ، وهذا البيت بداية حقيقية لوصف واقع حياته فى الصعلكة . وما يتعرض له من مخاطر ، =

إذَا الأَمْعَزُ الصَّوَّانُ لاقَى مَنَاسِمِى
تَطَايَرَ مِنْهُ قَادِحٌ وَمُفَلَّلُ (١)

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ
وأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأُذْهَلُ (٢)

= وما يلزمه لمقاومة هذه المخاطر وأول المخاطر احتمال أن يضل فى الصحراء التى لا حدود لها ولا معالم فيها وخاصة فى الظلام الذى يزاول فيه نشاطه فى قطع الطريق وغاراته على أعدائه . فيقول إنه واثق من خبرته بالصحراء وهدايته حتى فى ظلامها ، بينما يحتار آخرون فى هذه الفلوات التى لا معالم فيها . ثم يأخذ فى الأبيات التالية فى وصف حياته هذه ووصف مشاهد منها وأنواع مما يقاسيه ويعانيه ويتغلب عليه .

(١) الأمعز المكان الصلب الكثير الحصى ، والصوان الحجارة الملس ، والمنسم خف البعير ، شبه قدميه بأخفاف الإبل ، والقادح الذى تخرج من قدحه النار ، والأمعز الصوان يعنى المكان الذى فيه الصوان والمفلل المتكسر . والمعنى أننى حين أعدو تتطاير الحجارة الصغيرة من حول قدمى ويضرب بعضها فى حجارة أخرى فيتطاير منها شرر نار وتتكسر ، ويلاحظ أنه جعل قدميه لا تلاقى الصوان وإنما تلاقى المكان نفسه وهو الأمعز مبالغة فى أن سرعة جريه تجعل الأماكن لا قيمة لاتساعها فكأن قدميه تلاقى هذا الوادى مثلا هذه اللحظة ثم الوادى الآخر بعد ذلك وكأن كل خطوة فى واد . ويلاحظ أيضاً أنه لم يتحدث عن إثبات سرعته فى العدو من حيث المبدأ لأنه أمر معروف ومسلم به ، وإنما تحدث عن آثار سرعته فى العدو .

(٢) أديم من المداومة وهى الاستمرار ، والمطال بكسر الميم المماطلة وأضربت عن كذا صفحاً أعرضت عنه وذهل عن الشىء نسية . وفى هذا البيت يتحدث عن صورة أخرى من متاعب حياة الصعلكة ، وهى التعرض كثيراً للجوع الشديد ، ويبين طريقته فى مغالبة الجوع ، وهى أنه يتناساه ويتجاهله ويماطله حتى ييأس الجوع فيذهب عنه وكأنه غير جائع وبهذا يكون الجوع كأنه مات ففى الشطر الأول يتحدث عن انصراف الجوع عنه وفى الشطر الثانى يتحدث عن انتصاره هو على الجوع حتى ينساه ، ومثل هذا التصوير واضح الدلالة على الصدق والتعبير عن واقع يعانيه صاحبه .

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يَرَى لَهُ
عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ (١)

وَلَوْلا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ
يُعَاشُ بِهِ إلاَّ لَدَيَّ وَمَأْكَلُ (٢)

ولكن نَفْساً مُرَّةً لا تُقِيمُ بي
عَلَى الذَّأْمِ إلاَّ رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ (٣)

---

(١) الطول المن والمتطول النعمة التى يمن بها صاحبها على غيره ، والمعنى أنه يفضل أن يستف تراب الأرض على أن يمد أحد إليه يده بفضل أو نعمة يمن بها عليه ، وهو مرتبط بالبيت السابق حيث تحدث عن الجوع ومغالبته إياه حتى ينتصر هو على الجوع فينساه ، وكأنه يقول وعلى فرض أننى لم أستطع مقاومة الجوع واضطررت إلى أن آكل شيئاً فانى آكل من تراب الأرض ولا أقبل شيئاً فيه مذلة لى أومنة لأحد على

(٢) الذأم والذم العيب الذى يذم به ، ويلفى يوجد ، والمعنى لولا تجنبي العيب وكراهيتى له لاستطعت من طرق غير كريمة أن أحصل على كل ما يعاش به من مأكل ومشرب ، وهذا أيضاً من تكملة المعنى السابق ، فبعد أن ذكر الصور المؤلمة التى يتعرض لها فى الجوع أراد أن ينفى عن نفسه أن يظن أحد به العجز قائلا إن تعففه عن العيب هو الذى يجعله فى هذه الحال ، ولولا ذلك لكان من اليسير عليه أن يحصل على كل ما يريد .

(٣) مرة أى صعبة أبية يعنى نفسه والذأم العيب كما سبق والريث يعنى الوقت اليسير ، وهو استدراك أيضاً فبعد أن ذكر فى البيت السابق أنه يمكن بطرق غير غير كريمة أن يحصل على ما يشاء لو قبلت نفسه ذلك استدرك قائلا ولكن نفسى لا تقبل العيب قط ، وما إن تراه أو تحس به حتى تتحول عنه مسرعة .

وَأَطْوِى على الخَمْصِ الحَوَايَا كما انْطَوَتْ
خُيُوطَةُ مَارِىٍّ تُغَارُ وَتُفْتَلُ (١)

وَأَغْدُو على القُوتِ الزَّهِيدِ كما غَدَا
أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ (٢)

غَدَا طَاوِيًا يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِيًا
يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشِّعَابِ وَيَعْسِلُ (٣)

---

(١) الخمص بفتح الخاء الجوع والحوايا جمع حوية وهى الأمعاء . والخيوطة : الخيوط والهاء للتأنيث بمعنى كثرة من الخيوط وهى ما يخاط به ، ومارى قيل اسم لفاتل الحبال وقيل اسم رجل مشهور بصناعة الحبال وفتلها ، وتغار يحكم فتلها ، وحبل مغار محكم الفتل والمعنى أطوى أمعائى على الجوع وهى خاوية فتصبح هـــذه الأمعاء لخلوها من الطعام يابسة ، وينطوى بعضها على بعض كأنها حبال مفتولة بدقة وإتقان فى الفتل .

(٢) القوت : الطعام الزهيد القليل والأزلّ صفة للذئب القليل اللحم فى فخذيه وعجزه . وتهاداه تتناقله وتتداوله والتنائف جمع تنوفة وهى المفازة فى الصحراء ، يعنى كلما خرج من مفازة دخل أخرى ، والأطحل الذى لونه بين الغبرة والبياض . وكل هذا وصف لحال ذئب . يشبه الشنفرى نفسه فى سياق حديثه عن الجوع الشديد وقلة الطعام بذئب جائع لا يجد طعاما ، والجوع واضح فى نحول جسمه وخلوه من اللحم ، يظل يتنقل بين الفلوات بحثا عن طعام . ولون هذا الذئب يميل إلى الغبرة ، وليس وجه الشبه بينهما هنا شدة البحث عن الطعام ، وإنما اتفاق حالها فى ندرة الطعام وصعوبة الحصول عليه ، وأغدو أقضى فترة الغداة وهى أول النهار .

(٣) الطاوى الجائع ، يعارض الريح يستقبلها وحينئذ يكون عكس اتجاهها ، وهافيا مسرعا ، ويخوت ينقض يقال خات الصقر إذا انقض على الفريسة ، والأذناب يعنى =

فَلَمَّا لَوَاهُ القُوتُ من حَيْثُ أَمَّهُ
دَعَا فأَجَابَتْهُ نَظَائِرُ نحَّلُ (١)

مُهَلْهَلَةٌ شِيبُ الوُجُوهِ كَأَنَّها
قِدَاحٌ بِكَفَّيْ يَاسِرٍ تَتَقَلْقَلُ (٢)

= الأطراف ، والشعاب بكسر الشين جمع شعب بكسرها وهو الطريق فى الجبل ويعسل يمشى مشياً سريعاً ، والبيت كله وصف لحال الذئب الذى ذكره فى البيت السابق يقول إن هذا الذئب أصبح جائعاً فخرج مستقبلا الريح باحثاً عن فريسة، ينقض مرة على صيد ، ويسرع مرة فى مطاردة صيد وليس فى كل مرة يصطاد ، وإنما هذه حاله فى بحثه عن طعامه متنقلا بين الشعاب والوديان .

(١) لواه مطله وامتنع عليه ، أمه بفتح الهمزة قصده ، والنظائر الأشباه التى يماثل بعضها بعضاً ومفرده قياسا نظيرة ولكن الشاعر يقصد النظير بالتذكير ، ونحل جمع ناحل وهو الهزيل الضامر ، وفعله نحل بفتح الحاء أو كسرها ، وهو متابعة لوصفه الذئب الجائع الباحث عن طعامه ، يقول هنا إن هذا الذئب بعد أن تعب من البحث عن الطعام ولم يجده فى الأماكن التى توقع وجوده فيها ، لم يجد غير أن يستغيث ويصرخ ، وقد أجابته عشيرته من الذئاب ، فإذا حالها جميعاً كحاله جائعة وضامرة هزيلة من الجوع المتكرر وشبه الدائم .

(٢) مهلهلة : قليلة اللحم وهو وصف لنظائر فى البيت السابق ، وشيب جمع أشيب وشيباء . والقداح جمع قدح بكسر القاف وهو السهم قبل بريه وتركيب نصله . والقداح أداة القمار عند العرب . والياسر المقامر الذى يضرب القداح ، وتتقلقل تتحرك وتضطرب . والبيت متابعة أيضاً للمعنى السابق وهو وصف الذئاب الجائعة الباحثة عن الطعام . فيصفها هنا بالنحول من آثار الجوع وبياض شعر الوجوه وهو وصف خلقى أى أنه صورة لون من ألوان وجوه الذئاب ، ثم يصف هذه الذئاب فى عدم انتظام حركتها وفى اضطرابها بسهام المقامرة التى كانت =

أَوِ الخَشْرَمُ المبعوثُ حَثْحَثَ دَبْرَهُ
مَحَابِيضُ أَرْدَاهُنَّ سَامٍ معَسِّلُ (١)

= شائعة حينذاك فى المجتمع . والأبيات الأربعة السابقة تمثل صورة أدبية كأنها لوحة مجسمة ، تبدو فيها صورة الذئب الجائع الباحث عن طعامه فى منظر وبيئة محددة فى التصوير بشعاب معينة وحتى المناخ يبدو فى الصورة ممثلا فى رياح شديدة تفرض السكون على الأحياء ولكن شدة الجوع فرضت على هذا الذئب وعلى نظائره التى تظهر فى الصورة أيضاً أن يتحملن هذا المناخ .

(١) أو للعطف ، والعطف إما على الذئب الأزل فى البيت الذى سبق قبل ثلاثة أبيات ، والمعنى أغد وعلى القوت الزهيد كما غدا أزل أو كالخشرم المبعوث ، والخشرم رئيس النحل ، وحينئذ يصبح الحديث التالى عن النحل صورة مستقلة يشبه الشنفرى جانباً من حياته بها ، وتكون الأبيات التالية عن النحل وأسلوب حياته ، وقد اخترنا هذا المعنى فى بسطنا للصورة التالية عن النحل فى بحث سابق ، وهذا أحد احتمالى العطف ، وأما الاحتمال الثانى وقد مشى عليه الزمخشرى فهو أن الخشرم معطوف على قداح فى البيت السابق وهو غير قوى لما لعطفه معرفة على نكرة ، ويترتب على هذا المعنى أن تكون الأبيات التالية للذئاب وليس للنحل ، ولا مانع من هذا ، بل سنختار هذا المعنى هنا زيادة فى التماس ما توحى به اللامية من صور أدبية متعددة ومتنوعة والخشرم رئيس النحل وهو ما يعرف الآن بملكة النحل والمبعوث والمنبعث فى السير المسرع ، وحثحث حض وقاد ، والدبر جماعة النحل ، والمحابيض عيدان جامع العسل ، والأنسب للمعنى أن يكون المراد بها عيدان خلايا النحل التى تحوى العسل ، وأرداهن أهلكهن وحطمهن ، وسام مرتفع عال ، ومعسل بكسر السين المشددة طالب العسل وجامعه ، والمعنى على الاحتمال الثانى الذى اخترناه هنا أن الذئاب فى البيت السابق تشبه السهام فى يد المقامر أو تشبه رئيس النحل مع نحله وقد عمد أحد طالبى العسل إلى خلاياهن فحطمها فى جمعه للعسل ، فاضطرب النحل لهذا الموقف الذى يجعله بدون مأوى لأن بيوته هدمت ، وبدون طعام لأن العسل طعامه المدخر فى بعض أوقات السنة .

مُهَرَّتَةٌ فُوهٌ كَأَنَّ شُدُوقَهَا
شُقُوقُ العِصِيِّ كَالِحَاتٌ وَبُسَّلُ (١)

فَضَجَّ وَضَجَّتْ بالبَرَاحِ كَأَنَّهَا
وَإِيَّاهُ نُوحٌ فَوْقَ عَلْيَاءَ ثُكَّلُ (٢)

وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ واتَّسَى واتَّسَتْ بِهِ
مَرَامِيلُ عَزَّاهَا وَعَزَّتْهُ مُرْمِلُ (٣)

---

(١) المهرتة بفتح الراء المشددة الواسعة الأشـداق ، وفوه مفتوحة الفم وهى جمع مفرده أفوه للمذكر وفوهاء للمؤنث ، والشدوق جمع شدق وهو جانب الفم ،كالحات مكشرة فى عبوس ، وبسل كريهة المنظر ، ومنه مقاتل باسل أى يكره الأعداء لقاءه . والشاعر بهذا المعنى يعود إلى وصف الذئاب التى تجمعت حول ذلك الذئب الجائع حين دعاها، فيصفها بأنها فاتحة أفواهها ، وأن شدوقها واسعة ،كأنها الشقوق فى العصى ، رمنظر وجوه هذه الذئاب كئيب عابس كريه . ويذكر المبرد أن الشنفرى تأثر فى هذا البيت ببيت لعلقمة الفحل المعاصر لامرىء القيس ،

(٢) ضج وضجت . صاح الذئب وصاحت معـه الذئاب المتجمعة . والبراح الأرض الفضاء الواسعة . وكأنها يعنى الذئاب . والنوح النساء النوائح . والعلياء المكان العالى المرتفع . والثكل جمع للنساء اللاتى فقدن أزواجهن أو أولادهن ، والمعنى أن هذا الذئب عوى لجاوبته الذئاب من حوله بعواء مماثل فأصبح هو والذئاب كأنهن فى مأتم تنوح فيه نساء ثكل فوق مرتفع من الأرض .

(٣) الإغضاء تقريب الجفون بعضها من بعض لخفض البصر . والمراد أن الذئب كف عن العواء وكفت الذئاب أيضاً. والمراد من اتسى واتست بفتح التاء المشددة أن كلا منهما تأسى واقتدى بحال الآخر لأنهما متفقان فى الحال . ومراميل مفرده مرمل وهو الذى نفد زاده ، والمعنى أنهما أى الذئب والذئاب وجدا حالهما متفقين حيث جمعهما ألم الجوع وكآبة اليأس ، ولم يفدهما العواء والنواح شيئاً، فأخذ كلاهما يعزى الآخر ويتأسى بحاله فى التجلد على الجوع واليأس .

شَكَا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ وَارْعَوَتْ
وَلَلصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ (١)

وَفَاءَ وَفَاءَتْ بَادِرَاتٍ وَكُلُّهَا
عَلَى نَكَظٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مُجْمِلُ (٢)

وَتَشْرَبُ أَسْآرِي القَطَا الكُدْرُ بَعْدَمَا
سَرَتْ قَرَبًا أَحْنَاؤُهَا تَتَصَلْصَلُ (٣)

---

(١) شكا وشكت بمعنى أظهر كلاهما حاله من الجوع والألم وارعوى كف ورجع وبعد مبنية على الضم والمعنى بعد اليأس . والشطر الأول معناه أنهما أظهرا حالهما أولا بالعواء والألم والضجيج . ولكنهما لم يجدا من ذلك نفعا فكفا عن ذلك . ولجأ كلاهما إلى الصبر . والشطر الثانى حكمة مضمونها أن الشكوى ما دامت لا جدوى منها فالصبر خير منها وأجمل .

(٢) فاء رجع ، بادرات مسرعات وبادره بكذا أسرع به إليه . والنكظ الضيق والشدة . ويكاتم يكتم ما فى نفسه . ويجمل يصنع الجميل . والبيت يتابع وصف الذئب وجماعة الذئاب ، فيقول إنهن بعد يأسهن من الحصول على طعام واضطرارهن إلى الصبر والتحمل . رجعن جميعاً يسرعن كل إلى مأواه ، ولكنهن جميعاً يحملن المرارة والألم من الجوع والجهد واليأس ، ومع ذلك يكتم كل منهن ما يعانيه وهذا من الحكمة وحسن الصنيع . وبهذا البيت تنتهى هذه الصورة الأدبية الرائعة من واقع البيئة لمشهد الذئاب وأسلوب حياتها ، مقارنا بين نفسه وبينها .

(٣) الأسآر جمع سؤر وهو بقية الشراب والقطا نوع من الطير مشهور بالسرعة والكدر جمع مذكره أكدر ومؤنثه كدراء ، وهو وصف للون القطا ، والقرب بفتح القاف والراء السير إلى الماء وبينك وبينه مسير ليلة ،والأحناء جمع حنو وهو الجانب،وتتصاصل يصدر منها صوت معين هو صوت العطش والحاجة الشديدة =

هَمَمْتُ وَهَمَّتْ وابْتَدَرْنَا وَأَسْدَلَتْ
وَشَمَّرَ مِنِّى فَارِطٌ مُتَمَهِّلُ (١)

فَوَلَّيْتُ عنها وهى تَكْبُو لِعَقْرِهِ
يُبَاشِرُهُ منها ذُقُونٌ وَحَوْصَلُ (٢)

= إلى الماء، والمعنى أنى أسرع من القطا ، لحين يسابقنى القطا إلى الماء أسبقه إلى الماء فأشرب وأرتوى قبل وصول القطا ، حتى إنه حين يجىء لا يجد إلا بقية قليلة بعد شرابى ، هذا رغم سرعة القطا ، ورغم أن القطا من شدة العطش أحناؤه تتصلصل وهذا يدعوها إلى زيادة السرعة إلى الماء .

(١) التاء فى همت للقطا والمعنى استعد كلانا أنا والقطا للسباق إلى الماء ، وابتدرنا سابق كل منا الآخر . وأسدلت يعنى القطا . والإسدال إرخاء الثوب . والمراد إرخاء القطا أجنحتها كناية عن التعب وضعف السرعة . والفارط المتقدم . ولفظ شمر يقابل به الإسدال من القطا ، فيقول بينما ظهر التعب على القطا فأرخى أجنحته إلى أسفل ، كنت أنا فى قمة نشاطى فشمرت ثوبى إلى أعلا ، ثم يصف نفسه بأنه أصبح فارطاً أى متقدما على القطا فى التسابق ، ويزيد فى وصفه هذا أنه مع هذا التقدم لم يبذل كل جهده فى العدو بل كان يعدو متمهلا متأنياً لأنه واثق من السبق ومن أن منافسه دونه بكثير فلا يحتاج إلى بذل كل جهده .

(٢) تكبو تسقط من الضعف بعد جهد الطيران ليلة كاملة ، والعقر بفتح العين وسكون القاف مكان الساقى من الحوض ، والذقون جمع كثرة للذقن وجمع القلة أذقان وحوصل جمع حوصله ، والمعنى أنى سبقت القطا بزمن غير قصير حتى إنى شربت وانصرفت قبل وصول القطا الذى جاء مجهداً يتساقط حول الحوض ملتمسا الماء بذقونه وحواصله .

كَأَنَّ وَغَاهَا حَجْرَتَيْهِ وَحَوْلَهُ
اضَامِيمُ مِنْ سَفْرِ القَبَائِلِ نُزَّلُ (١)

تَوَافَيْنَ مِنْ شَتَّى إِلَيْهِ فَضَمَّهَا
كَمَا ضَمَّ أَذْوَادَ الأَصَارِيمِ مَنْهَلُ (٢)

---

(١) وغاها أصواتها ووغى الحرب أصواتها ، وحجرتاه بفتح الحاء ناحيتاه والضمير يعود على الماء وهو موضوع حديث السياق والأضاميم جمع إضمامة وهم القوم ينضم بعضهم إلى بعض فى السفر خاصة ، والسفر بفتح السين المسافرون جمع مثل صاحب وصحب ، ونزل جمع نازل يريد المسافر الذى يحط رحله وينزل فى مكان والمعنى أن أصوات القطا حول الماء كثيرة متزاحمة حتى كأنها جوانب للماء وحواجز له ، وهذه الجلبة التى يحدثها القطا فى تزاحمه وأصواته حول الماء كأنها جماعات من مسافرى القبائل التى ترتحل بصخبها من الماشية والرجال والنساء والأطفال فتحدث جلبة وأصواتاً مختلطة متنوعة حين تنزل فى مكان . فالتشبيه فى البيت منصب على وصف أصوات القطا .

(٢) توافين توافدن وتجمعن يعنى القطا ، من شتى من أماكن متفرقة مختلفة ، ضمها جمعها يعنى الماء والأذواد جمع ذود وهو الجماعة من الإبل بين ثلاثة وعشرة والأصاريم جمع صرمة بكسر الصاد وهى العدد من الإبل نحو الثلاثين والمنهل الماء الذى ينهل منه ، يشبه تكاثر القطا وتجمعه حول الماء بأعداد كثيرة من الإبل ضمها وجمعها منهل من الماء فتجمعت حوله وتزاحمت عليه جماعات . والبيت متابعة لصورة القطا فى الأبيات السابقة .

فَعَبَّتْ غِشَاشًا ثُمَّ مَرَّتْ كَأَنَّهَا
مَعَ الصُّبْحِ رَكْبٌ مِنْ أُحَاظَةَ مجْفِلُ (١)
وَآلَفُ وَجْهَ الأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا
بِأَهْدَأَ تُنْبِيهِ سَنَاسِنُ قُحَّلُ (٢)

---

(١) العب : شرب الماء من غير مص بدفقه فى الحلق دفقاً دون تدرج وفى الحديث الشريف مصوا الماء مصا ولا تعبوه عباً . وغشاشا أى على عجلة والركب خاص بركبان الإبل وأحاظة قبيلة من اليمن أو فرع من الأزد . والرواة غير متيقنين من المراد به ، ومجفل منزعج وعادة المنزعج الإسراع فى الهروب من مصدر الإزعاج ولذلك استعمله فى الدلالة على السرعة ، والمعنى أن هذه القطا لشدة عطشها عبت من الماء عبا فى إسراع وعجلة ثم تفرقت مسرعة أيضاً وهذا التشبيه يدعو إلى التفكير فى معنى ركب أحاظة المجفل حيث يبدو أنه ليس المراد به ركب من الناس ، وإنما جماعة من الحيوانات كما أشارت بعض الروايات إلى أن المرد به بقر أحاظة باليمن ، وهذا البقر مجفل ومنزعج لأى سبب من أسباب انزعاج الحيوان كأن يفاجأ بخطر أو حيوان مفترس كتعبير القرآن الكريم عن نفور الحير وفرارها من أسد (كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) فهو يشبه انفضاض القطا عن منهل الماء بعد الشرب واسراعه فى الطيران متفرقا بقطيع من الحيوان فاجأه خطر فأجفل وانطلق مسرعا هاربا .

(٢) آلف من الإلف والتعود ، والأهدأ الشديد الثبات مشتق من الهدوء ، تنبيه ترفعه وتبعده ونبا عه أى بعد ، والسناسن ما يظهر من فقار الظهر وهى فقار العمود الفقرى ، وقحل جافة يابسة ، يتحدث عن ظهره وأضلاعه ، والمعنى ألفت افتراش الأرض بظهر يابس العظام، حتى إن رءوس هذه العظام هى التى تستقبل وجه الأرض فتكون حائلا دون وصول الظهر والجسم إلى الأرض ويظل الجسم مرتفعاً عن الأرض بسبب هذه الفقار ، والمراد خلو جسمه من اللحم .

وَأَعْدِلُ مَنْحُوضًا كَأَنَّ فُصُوصَهُ
كِعَابٌ دَحَاهَا لَاعِبٌ فَهِيَ مُثَّلُ (١)

فَإِنْ تَبْتَئِسْ بِالشَّنْفَرَى أُمُّ قَسْطَلٍ
لَمَا اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرَى قَبْلُ أَطْوَلُ (٢)

طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ
عَقِيرَتُهُ لِأَيِّهَا حُمَّ أَوَّلُ (٣)

---

(١) أعدل أتوسد ذراعا ، أو أضع تحت رأسى ذراعا عند النوم . والمنحوض الذى ذهب لحمه وفعله نحض بالبناء للمجهول ، وفصوصه مفاصل عظامه ، يعنى عظام ذراعه ، والكعاب ما بين الأنبو بين من القصب ولكنه يريد نوعاً كان يعد للعب به ودحاها يعنى بسطها وسواها وهى الكعوب ، ومثل جمع ماثل وماثلة يعنى منتصبة . والمراد من البيت كله وصف ذراعه بأنه يابس خال من اللحم لاتبدو فيه إلا مفاصل صلبة جافة كأنها كعوب من حديد ، وهذا ينعكس على جسمه كله من حيث النحول وخلوه من اللحم،وهذا البيت والبيت السابق له وصف لحاله فى النوم ، فهو يفترش الأرض بجسم ليس فيه إلا عظام وفقار ، ويتوسد ذراعا كأنه قطع صلبة جافة من حديد يتركب بعضها فوق بعض .

(٢) تبتئس : تحزن ، والقسطل الغبار وأم قسطل اسم للحرب لأنها تثير الغبار ، واغتبطت فرحت . والمعنى إذا حزنت الحرب اليوم لفراق الشنفرى إياها فطالما فرحت قبل ذلك بمزاولته لها وإثارته إياها ، والغالب أنه يريد فترة ما قبل حياة الصعلكة ، فمن الطبيعى أنه كان يشارك فى الحروب التى تثور بين موطنه الذى يعيش فيه والقبائل الأخرى ولكن رحيله إلى حياة الصعلكة يصرفه عن هذه الحروب القبلية إلى الصراع الخاص به وبالصعاليك ، فهو يعزى الحرب برحيله عنها .

(٣) طريد : مطرود والمراد يطارده غيره والجنايات يعنى بها غاراته وأعماله العدوانية فى الصعلكة ، تياسرن اقتسمن لحمه بضرب السهام والقرعة وعقيرته =

تَنَامُ إِذَا مَا نَامَ يَقْظَى عُيُونُهَا
حِثَاثًا إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلْغَلُ(١)

وَإِلْفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ
عِيَاداً كَحُمَّى الرِّبعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ(٢)

= لحمه ، وحم نزل وتحقق ومنه حم القضاء نزل بصاحبه، والأصل حمت لأنه عائد على الجنايات ولكنه يعنى السهام التى اقترعوا بها لاقتسام لحمه فى تخيله ، فعقيرته أى لحمه لأول سهم يفوز فى الاقتراع . والمعنى أنه مطارد ومطالب بجنايات كثيرة جناها وأصحاب الجنايات يتنافسون فى الوصول إليه للانتقام منه ، فهو مقضى عليه من الذى يتمكن منه أولا .

(١) تنام يعنى الجنايات السابقة والمراد أصحاب هذه الجنايات ، وحثاثاً سراعاً وتتغلغل تتوغل وتتعمق والمعنى أصحاب الجنايات حريصون على التمكن منى ، ولذلك فهم فى غاية اليقظة والتربص بى ، حتى إنهم إذا ناموا فإن عيونهم تظل يقظى باحثة عنى ومترصدة لى ، وهى تضمر أعمق الشر وأشد الكيد مبالغة فى شدة البحث عنه وطلبه .

(٢) الإلف بكسر الهمزة التعود يعنى أنه تعود على الهموم ، وحمى الربع بكسر الراء مشددة نوع من الحمى يأخذ صاحبه يوماً ويتركه يومين . وليس المراد تحديد أيام بذاتها أعنى ليس المراد تحديد يوم أو يومين بالذات ، ولكن المراد أصل المعنى ، وهو أن الهموم معتادة عليه ، وأنها دائمة التردد والانصراف فى نظام يكاد يكون ثابتا كأنه الحمى التى تتردد على صاحبها فى نظام ثابت . وعلم النفس يؤكد صحة هذا المعنى بالنسبة للمصابين بالقلق النفسى أو الضيق المعبر عنه بالهموم ، كما سبق الحديث عن ذلك .

إذَا وَرَدَتْ اصْـــدَرْتُها ثُمَّ إنَّهـــا
تَثُوبُ فَتَأتِى مِنْ تُحَيْتٍ وَمِنْ علُ[١]

فَإمَّا تَرَيْنِى كابْنَةِ الرَّمْلِ ضَاحِيًا
عَلَى رِقَّةٍ أَحْفَى وَلا أَتَنَعَّلُ[٢]

---

(١) وردت حضرت يعنى الهموم ، وأصدرتها صرفتها وطردتها ، وتثوب ترجع ، وتحيت تصغير تحت وعل من العلو ويستعمل بفتح اللام وكسرها وضمها وكلها بمعنى من مكان عال . والمعنى اننى فى صراع دائم مع الهموم ، كلما صرفتها عادت ، ثم أصرفها فتعود وهكذا ، ولكن الألفـــاظ توحى بقرب الهموم منه وإحاطتها به ، ولذلك صغر لفظ تحت ليوحى بملاصقتها له ، وكذلك أطلق لفظ العلو ليشمل كل الأماكن المرتفعة عما تحته .

(٢) ابنة الرمل : الحية . ضاحياً بارزاً يقـــال ضحيت للشمس بفتح الحاء تعرضت لها وهو المراد . على رقة يعنى رقة الحال وهى الفقر . وأحفى من الحفاء وهو عدم لبس النعل . والمعنى يتخيل امرأة يخاطبها كعادة الشعراء وخاصة فى الشعر القديم ، ومضمون خطابه لهـا أنه يبدو عليه الفقر والحرمان من عدة وجوه صرح ببعضها تصريحاً ، ولمح بالأخرى تلميحاً ،فمن التلميح أنه يكاد يكون عارى الجسد وكأنه حية تتحرك بجلدها المكشوف دون ساتر أو شعر كأغلب الحيوان ، ومنها أنه لا يملك ما يحجب به جسمه من الشمس كما يفعل الناس بما يلتحفون من أكسية وأغطية ، ومن التصريح بفقره أنه مضطر إلى أن يمشى حافياً دون نعل ، وتكملة المعنى فى البيت التالى ، ولـكنه يواصل عرض متاعب حياته وما يقاسيه مما لا يحسه إلا من يعيش فى حياته هذه الرهيبة ، فبعد أن شبه نفسه بالذئب الجائع فى طلب الطعام ، تحدث عما يعانيه فى البحث عن المـاء مزاحماً القطا ، ثم تحدث عن نحول جسمه وبروز عظامه ، ثم عن مطاردة أصحاب الجنايات له ، ثم عن همومه التى تأبى أن تفارقه .

فَإِنِّى لَمَوْلَى الصَّبْرِ أَجْتَابُ بَزَّهُ
عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السِّمْعِ والحَزْمَ أَنْعَلُ(١)
وَأُعْدِمُ أَحْيَانًا وَأَغْنَى وَإِنَّمَا
يَنَالُ الغِنَى ذُو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلُ(٢)

---

(١) مولى الصبر صاحبه ومالكه مبالغة فى التمكن من الصبر ، أجتاب ألبس، والبز يريد الجيد من ثياب الصبر ، بمعنى أنه يملك أحسن مايتحلى به الناس من الصبر ، والسمع بكسر السين مشددة ، ولد الذئب من الضبع ، ومثل قلبه يعنى شجاعته ، والحزم التصرف فى قوة وثقة بالنفس وأنعل بمعنى أتخذه نعلا يريد الحزم وهو مفعول به مقدم ، والبيت تكملة لمعنى البيت السابق ، والمعنى إذا كان مظهرى من العرى والحفاء يوحى بالفقر والحاجة ، فإن جوهرى عامر غنى بالفضائل التى أخذ يعدد بعضاً منها ، وأولها فى هـذا البيت أنه صبور متمكن من قياد نفسه والتحكم فيها ، مع قلب كأنه قلب السمع . حتى لا يظن أحد أن الصبر ضعف ، وفوق هذا فإن تمكنه من الحزم أشد ، حتى كأنه يضع الحزم فى قدمية نعلا .

(٢) العدم بفتح العين والدال أو ضم العين وسكون الدال الفقر ، والبعدة بضم الباء وكسرها اسم للبعد بمعنى بعد الهمة ، ولكن المراد سعة الآمال وكثرة المطامع والإبعاد فى السعى وراء المال ، والمبتذل الذى لا يصون نفسه ولا يهتم بسترها ، فيلجأ إلى الإسفاف والعيب ، والمعنى أنه لا يضع همه كله فى الغنى وجمع المال ، فإنه لا يبلغ ذلك إلا من يقصر نفسه على هذه الغاية التى تبعد بصاحبها فى كل مجال والتى تدفعه إلى كل أنواع السلوك حتى المبتذل المكشوف ، أما أنا فالفقر والغنى كلاهما عندى أمر طارىء غير ذى شأن كبير .

فَلا جَــزِعٌ مِنْ خَلَّـةٍ مُتَكَشِّفٌ
وَلا مَرِحٌ تَحْتَ الغِنَى أَتَخَيَّلُ(١)

وَلا تَزْدَهِي الأَجْهَالُ حِلْمِي وَلا أُرَى
سَؤُولاً بِأَعْقَابِ الأَقَاوِيلِ أُنْمِلُ(٢)

وَلَيْلَةِ نَحْسٍ يَصْطَلِي القَوْسَ رَبُّهَا
وَأَقْطُعَهُ اللَّاتِي بِهَا يَتَنَبَّلُ(٣)

---

(١) الجزع عدم الصبر عند المكروه ، والخلة بفتح الخاء الفقر والحاجة ، والمتكشف الذى يظهر فقره وحاجته للناس ، والمرح شدة الفرح ، والتخيل من الخيلاء وهى التكبر والإعجاب بالنفس ، والمعنى أن الفقر والغنى كلاهما ليس له سلطان علىّ أو تأثير كبير فى نفسى ، فلا الفقر يجعلنى أبتئس وأظهر ضعفى ، ولا الغنى يجعلنى أفرح وأختال ، وهذا الثبات يدعو إليه القرآن الكريم ، فمن ذلك فى سورة الحديد (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) .

(٢) تزدهى تستخف والأجهال جمع جهل يريد الحمق والسفاهة ، وسؤولا ملحاً فى سؤال الناس وطالب أسرارهم . وأعقاب أواخر . وأنمل بضم الهمزة وكسر الميم أنقل الأحاديث بقصد النميمة يقال نم فلان وأنمل بمعنى كان نماما . والمعنى أنه حليم لا يستخفه الجهلاء والحمق ، وهو يتعفف عن سؤال الناس ، وليس المراد ما فى أيديهم ، وإنما المراد الأسرار والأحاديث ، فهو لا يتبع أواخر الأقاويل والأحاديث لينقلها إلى من تعنيهم بقصد النميمة وإثارة الفتن ، فهذا ليس من خلقه .

(٣) النحس من معانيه البرد وهو المراد هنا ، واصطلاء النار الاستدفاء بها ، ويصطلى القوس يعنى يوقدها ليستدفىء بنارها من شدة البرد ، وربها صاحبها . والأقطع جمع قطع بكسر القاف وهو نصل السهم ويتنبل يتخذ منها النبل للرمى . والمعنى رب ليلة شديدة البرد ، تبلغ من بردها أن يحطم صاحب القوس قوسه ونصال سهامه التى يرمى بها ويجازف بفقد أهم يحتاج إليه . وتكملة المعنى فى البيت التالى .

دَعَسْتُ عَلَى غَطْشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتِى
سُعَارٌ وَإِرْزِيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ (١)

فَأَيَّمْتُ نِسْوَانًا وَأَيْتَمْتُ إِلْدَةً
وَعُدْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلْيَلُ (٢)

وَأَصْبَحَ عَنِّى بِالْغُمَيْصَاءِ جَالِسًا
فَرِيقَانِ مَسْئُولٌ، وَآخَرُ يَسْأَلُ (٣)

---

(١) دعست : مشيت ، والغطاش الظلمة ، والبغش المطر الخفيف ، وصحبتى أصحابى . السعار بضم السين شدة الجوع وأصله حر النار فاستعير لشدة الجوع ، والارزيز البرد الشديد ، والوجر الخوف ، والأفكل الرعدة والارتعاش ، ودعست جواب رب المقدرة فى البيت السابق ، والمعنى رب ليلة برد دعست فيها مع هذه الأحوال التى ذكرتها ، من الظلام والمطر ، لا يصحبنى فيها وفى هذه الأحوال الرهيبة إلا أصحاب أشد رهبة وإيلاماً ، وهن شدة الجوع الذى يشبه النار ، والبرد الشديد ، والخوف والرعشة فى جسمى من هذه العوامل كلها .

(٢) الأيم من لا زوج لها من النساء ، وكذلك من لا زوج له من الرجال ، وأيمت المرأة جعلتها تفقد زوجها بمعنى أن يقتل زوجها ، وأيتمت جعلتهم يتامى بفقد الآباء ، وإلدة أولاد وأبدأت معناه بدأت ، وأليل شديد الظلام ، والبيت مرتبط أيضاً بما قبله ، والمعنى أننى لا يمنعنى من تنفيذ عزمى شىء ، فقد أمشى فى الليلة الشديدة الظلام والبرد على أرض موحلة من آثار المطر ، وبى جوع شديد وخوف عميق حتى إن جسمى يرتعش من هذه الأسباب كلها ، ومع ذلك لا يصدنى هذا عن الوصول إلى أهدافى وإغارتى عليهم ، فأحقق ما أريد ، فأقتل رجالا تصبح أزواجهم أيامى وأولادهم يتامى ، وأحقق ذلك كله فى وقت وجيز حتى إنى أعود وما زال الظلام دامساً .

(٣) الغميصاء مكان بنجد . والجلس بفتح الجيم اسم لبلاد نجد وجالسا ليس المراد بها القعود وإنما المراد إتيان نجد ودخولها كما يقال أتهم أتى تهامة وأشأم =

فقالوا لقد هرّت بليلٍ كلابُنا
فقلنا أذئبٌ عسّ أم عسّ فُرعُلُ (١)

فلم تكُ إلا نبأةٌ ثمّ هوّمت
فقلنا قطاةٌ ريعَ أم ريعَ أجدلُ (٢)

= أتى الشام وأنجد أتى نجداً وكذلك جلس أتى الجلس بالفتح وهو نجد ، والبيت مرتبط بالأبيات السابقة حيث يعبر فيه عن نتيجة غارته التي وصفها في الأبيات الثلاثة السابقة فيقول إن غارته كانت في جوف الليل وكانت نتيجتها أنه عند الصباح أخذ الذين أغار عليهم يسأل بعضهم بعضاً وهم بنجد عن آثار غارتي متعجبين من سرعتها الخاطفة وآثارها الرهيبة التي تمخضت عنها ، وليس في هذا دليل على أن الشنفرى كانت حياته في نجد ، فالأبيات مجرد وصف لإحدى غاراته ، وموطنه في فترة الصعلكة كان فيما بين مكة والمدينة من جبال السراة ، أما ذكر نجد في هذا البيت فيحتمل أنها غارة على أعدائه المقيمين في نجد ثم عاد إلى موطنه ، ويكون قوله (عدت والليل أليل) مبالغة في سرعة عودته ، ويحتمل أنها غارة على قافلة من باب قطع الطريق ، وكانت القافلة حينئذ في موطنه من السراة ، ثم واصلت سيرها حتى حطت رحالها في الغميصاء من نجد ، وهناك أخذ أفرادها يتداولون وصف هذه الغارة التي أغارها عليهم الشنفرى بين سائل ومسئول .

(١) هرير الكلاب صوته أضعف من النباح، يعني سمعنا صوتاً ضعيفاً من الكلاب، والعس الطواف بالليل ومنه العسس وهم حراس الأمن بالليل ، والفرعل بضم الفاء والعين ولد الضبع ، والمعنى أن الذين أغار عليهم أصبحوا يصفون هذه الغارة متعجبين يقول بعضهم لبعض إننا لم نسمع إلا صوتاً ضعيفاً من الكلاب فحسبنا أن الكلاب أحست بذئب أو فرعل فأصدرت هذا الصوت .

(٢) نبأة : صوت والمراد صوت صدر مرة واحدة ضعيفاً، هومت نامت يعني الكلاب ، والقطاة نوع من الطير ، وريع من الروع وهو الخوف مبني للمجهول =

فإنْ يَكُ مِنْ جن لَأَبْرحُ طارِقًا
وإنْ يَكُ إنْسًا مَاكَهَا الإِنْسُ تَفْعَلُ (١)

وَيَوْمٍ من الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ
أفاعيه فى رَمْضَائِهِ تَتَمَلْمَلُ (٢)

= وحقه أن يقال ريعت لأن القطاة مؤنثة وتذكيرها شاذ . والأجدل الصقر ، والبيت استدراك للبيت السابق ، فبعد أن ذكروا فى البيت السابق أن كلابهم صوتت ، استدركوا هنا — كما تخيل الشاعر — فقالوا أن صوت الكلاب لم يستمر ، وإنما كان صوتاً واحداً ضعيفاً ثم نامت الكلاب ، وحينما صوتت الكلاب حسبناه وحشا يطوف ببيوتنا ، فلما سكتت الكلاب ونامت صرفنا هذا الاحتمال وعدلنا عنه وقلنا لعلها قطاة روعت أو طائر كالصقر ، فأحست الكلاب بذلك ثم سكتت لأنه أمر غير ذى غرابة أن يصدر صوت خوف من طائر فى عشه .

(١) البرح الشدة والقوة ، وأبرح تفضيل بمعنى أشد وأعظم ، والطارق القادم بالليل ، والكاف فى كها للتشبيه أى كهذا ، والمعنى أن حديث الذين أغار عليهم انتهى إلى التعجب والحيرة ، فقد تعودوا أن الغارة يقوم بها جماعة أو عدد كبير ، أما أن تكون بهذه الصورة الخاطفة التى لا يشعر بها أحد ومع ذلك تترك هذه الآثار الخطيرة ، فهذا شىء غير مألوف ، فإن كان الذى أغار عليهم من الجن فهو أشد مغير بالليل وأبرعه ، وهذا معنى الشطر الأول ، وإن كان المغير من الإنس ، فالإنس لا تستطيع أن تفعل ذلك ، وإذن فهم فى حيرة بين أن يكون جنياً أو إنسياً ، وأصل صيغة الشطر الأول إن يكن من الجن فهو أبرح طارق بمعنى أعظم طارق .

(٢) الشعرى كوكب يطلع فى فترة الحر الشديد يعنى يوما من أيام الحر التى يطلع فيها الشعرى ، واللواب اللعاب والمراد به ما ينتشر فى الحر مشبها خيوط العنكبوت فى الفضاء وإنما يكون ذلك حينما يكون الحر مصحوباً برطوبة ، وهو أشد أنواع الحر مضايقة ، والأفعى الحية والرمض شدة وقع الشمس على الأرض =

نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَلا كِنَّ دونَهُ
ولا سِتْرَ إلاَّ الأتْحَمِيُّ المُرَعْبَلُ (١)

وَضَافٍ إذَا هَبَّتْ له الرِّيحُ طَيَّرَتْ
لَبَائِدَ عَنْ أعْطَافِهِ ما تُرَجَّلُ (٢)

بَعيدٍ بِمَسِّ الدُّهْنِ والفَلْيِ عَهْدُهُ
لَهُ عَبَسٌ عَافٍ من الغَسْلِ مُحْوِلُ (٣)

= والرمضاء مؤنث ، وأرض رمضاء أصابها الرمض وهو شدة الحر ، وتململ تتحرك وتضطرب . وبقية المعنى فى البيت التالى . ومعنى البيت أنه قد يمر بى يوم من أيام الحر الشديد الذى تنتشر آثاره حتى فى الفضاء ، والذى لا تطيقه حتى الأفاعى التى نبتت فى هذه البيئة وتعودت عليها .

(١) نصبت له وجهى : تعرضت بوجهى وأقمته فى مواجهته ، والكن بكسر الكاف الستر وجمعه أكنان ، والأتحمى نوع من الملابس كالعباءة ، والمرعبل الممزق والبيت تكملة لمعنى البيت الأول ، والمراد فى البيتين أنى فى اليوم الذى لا يطاق حره أواجه هذا الحر ولفح الشمس وليس على جسمى إلا برد ممزق لا يحجب عنه الشمس أما وجهى فلست أملك ما يستره أو يحميه من الحر والشمس ، فأواجه به هذا الحر الذى تتململ منه الأفاعى .

(٢) الضافى السابغ يعنى شعره وهو سابغ طويل لأنه لا يملك ما يقصه به ، واللبائد جمع لبيدة وهى ما تلبد من شعره والتصق بعضه فى بعض لأنه لا يغسل ولا يمشط . والأعطاف جمع عطف بكسر العين وهو الجانب ، وترجل تسرح وتمشط ، وضاف معطوف على الأتحمى ، والمعنى لا أملك إلا البرد الممزق، وشعرا طويلا ملبداً ، إذا هبت عليه الريح ظلت لبائده متماسكة لشدة اتساخها ، فالريح لا تفرقه ، وإنما تطيره لبداً لبدا .

(٣) بعيد أى منذ زمن طويل يعنى شعره، والفلى إخراج الحشرات من الشعر =

وَخَرْقٍ كَظَهْرِ التُّرْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ
بِعَامِلَتَيْنِ ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ (١)
فَأَلْحَقْتُ أُولاهُ بِأُخْرَاهُ مُوفِيا
على قُنَّةٍ أُقْعِى مِراراً وَأَمْثُلُ (٢)

= والعبس بفتح العين والباء ما يتعلق بأذناب الإبل والغنم من الروث والبعر والبول فيجف عليها ويصبح وسخاً حولها ، وعاف أى كثير وهو وصف للعبس ، ومحول أتى عليه الحول ، والأصل محول من الغسل يعنى أتى عليه الحول ولم يغسل . والبيت وصف للشعر ، يقول إن شعره منذ زمن طويل لم يعرف الدهن والفلى، ومن كثرة تراكم الأقذار عليه أصبح له عبس يشبه ما يتعلق بأذناب الإبل والغنم ، لأنه يقضى الحول ولا يغسل .

(١) الخرق بفتح الخاء الأرض الواسعة ، وكظهر الترس لأنها مستوية ، وقفر مقفرة ليس بها أحد ، والعاملتان رجلاه ، وظهره يعنى الخرق ، ليس يعمل يعنى لم يقطعه إنسان ، والمراد ليس معموراً ولا مطروقا يعنى المكان وهو الخرق ، والمعنى العام رب واد مقفر مستو ليس فيه مكان يحتمى فيه أو يلجأ إليه أقطعه على قدمى ، وهو مكان غير مطروق . وتكملة المعنى فى البيت التالى .

(٢) ألحقت أولاه بأخراه يعنى من شدة عدوى وسرعتى لم يعد هناك فارق بين أوله وآخره ، فمذ بدأت فى أوله كأنى لسرعتى أصبحت فى آخره ، موفياً مشرفا ، والقنة بضم القاف وفتح النون مشددة رأس الجبل وأعلاه، والإقعاء جلسة معينة ، هى أن يلصق الرجل مقعده بالأرض وينصب ساقيه مستنداً بظهره ، وأمثل أنتصب واقفاً ، يعنى أجلس مرة على قمة جبل وكان الصعاليك يتخذون من هذه القنن فى رءوس الجبال مراقب يراقبون منها الطريق وقد تحدث عنها الشنفرى كثيراً فى شعره ، ومرة أخرى أقف أو أسير . وفى البيتين يتحدث عن مقدرته على العدو والتنقل .

تَرُودُ الأرَاوِى الصُّحْمُ حَوْلِى كَأَنَّهَا
عَذَارَى عَلَيْهِنَّ المُلَاءُ المُذَيَّلُ(١)

وَيَرْكُدْنَ بِالآصَالِ حَوْلِى كَأَنَّنِى
مِنَ العُصْمِ أَدْفَى يَنْتَحِى الكِيحَ أَعْقَلُ(٢)

---

(١) ترود تذهب وتجىء ، الأراوى جمع أرويّة وهى أنثى الوعل ، والصحم جمع أصحم وصحماء ، وهى الوعول السود المائل لونها إلى الصفرة ، والعذارى جمع عذراء وهى البكر من الإناث ، والملاء نوع من الثياب والمذيل طويل الذيل . والمعنى أن الوعول قد ألفتنى فهى تتحرك حولى غير نافرة منى ، وهى بشعرها وذيولها الطويلة كأنها عذارى حول رجل هو أنا .

(٢) يركدن يثبتن ولا يتحركن ، والآصال جمع أصيل وهو الفترة فى آخر النهار من العصر إلى المغرب ، والعصم جمع أعصم ، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض والأدفى الوعل الذى طال قرنه جدا ، وينتحى يقصد ، والكيح عرض الجبل وجانبه ، والأعقل الممتنع فى جبل عال لا يوصل إليه ، والمعنى أن الوعول تثبت أو تظل ثابتة حين ترانى لأنها متعوده أن ترانى ، بل كأن هناك ألفة وميلا بينها وبينى . فكأنها إناث تستمتع بوقت الأصيل حول ذكر قوى منيع ، قد أوى إلى مكان يعتصم فيه من المخاطر ، فيحقق لنفسه ولإناثه من حوله الأمن والطمأنينة . وفى هذا البيت والذى قبله يتحدث عن صلته بالوحوش ، وأنها أصبحت إلفاً واطمئنانا حيث أصبح هو جزءاً من هذه البيئة ، وفرداً من وحشها وإن كان أخطر من كل الوحوش .

عرض عام

لا تعرف على وجه التحقيق الفترة التى قال فيها الشنفرى هذه اللامية من حياته وإن كان من الواضح أنه قالها فى حياة الصعلكة ، وبعد أن قضى فى الصعلكة زمناً غير قصير ، حتى ألفته الوحوش كما يقول (ترود الأراوى الصحم حولى) وحتى أصبح مطالباً مطارداً بجنايات كثيرة جناها فى حياة الصعلكة ، يقول عنها (طريد جنايات) . فأغلب الظن أنه قالها فى أخريات حياته ، حيث كان كل شىء فى شخصيته وحياته قد بلغ غاية النضج الذى يبدو واضحاً فى اللامية .

وحين نستعرض اللامية فى نظرة عامة تتجاوز التفاصيل والمعانى الفرعية إلى الهيكل العام للقصيدة نجد أنها لا تعدو أن تكون قصة حياة الشنفرى كاملة ، وقد لا يكون ذلك واضحاً كل الوضوح لمن يغرق نفسه فى تفاصيلها ومعانيها الجزئية فى الأبيات ، ولكن من يبعد قليلا ثم يلقى على القصيدة نظرة عامة من خارجها وليس من داخل تفاصيلها يجد أنها فعلا قصة حياة الشنفرى لا تكاد تخرم من الواقع شيئاً .

ولذلك نلاحظ أنها تمثل مرحلتين ، مرحلة حياته قبل الصعلكة ، ومرحلة حياة الصعلكة .

قبل الصعلكة

يتضح فى هـــذه الفترة جانبان :

١ — حالته النفسية :

ويستغرق هذا العنصر نحو تسعة أبيات من القصيدة ، وفيها نجد نفسية إنسان ساخط ليس على الحياة ، وإنما على الناس ، فهو راغب رغبة ملحة فى أن يعيش وأن يستمتع بالحياة ، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلا بين الناس ، فيسعى إلى حياة أخرى بين الفيافى والوحوش ، محاولا أن يجد هذه المتعة بالعيش أو أن يوجدها إيجاداً

فى مجتمعه ذاك الجـــديد ، فسخطه ليس على الحياة ، وإنما على أناس أحس منهم (الأذى) كما يصرح بذلك ، وأحس منهم (القلى) والكراهية له ، وأنهم يخذلونه حين يكون فى حاجة إلى المؤازرة والنصير ، ويكفى أن تكون الوحوش خيرا منهم ذمة وجواراً . هذه هى عوامل نفوذه من الذين عايشهم ، والذين ألقته الحياة بينهم ، العوامل التى ملأت نفسه ضيقا بهم ورغبة فى الفرار من بينهم والتماس أى مجتمع غيرهم ، ولو كان مجتمع الوحوش والقفار ، فانه وما هو أسوأ منه سيكون خيراً من ذلك المجتمع البغيض .

٢ — مؤهلاته للصعلكة :

ويستغرق هذا العنصر نحو ستة عشر بيتا من القصيدة ، يعرض فيها أنه يملك مؤهلات ومقومات لا تتوافر لدى كل الناس ، بل لا تتوافر لغيره ، وهو لا يقول إنها مؤهلات الصعلكة ، ولكن الواضح أن كل من يملك ولو قدراً وافراً من هذه الصفات فانه مؤهل لأن يكون صعلوكا ناجحاً ، فضلا عن أن يملك هذا القدر الهائل الذى يملكه الشنفرى من هذه الصفات . وهذا العنصر مبنى على سابقه فى ترتيب منطقى ، لحيث قرر أن هذا المجتمع لا يصلح أن يجاوره أو يعايشه ، فإذن من الطبعى أن يفكر فى هجره ، ولكن هجره يحتاج إلى دراسة المرء لإمكانيات قدرته على إيجاد مجتمع آخر ، ومدى قدرته على معايشة مجتمعه الجديد .

وقد اختار الشنفرى مجتمع الصعاليك وحياتهم بديلا لحياته الأولى ، ومن المعروف أن هذه الحياة تحتاج إلى صفات كثيرة ، وأنه ليس كل امرىء يصلح أن يكون قاطع طريق أو لصاً ، فأخذ يبين فى هذا العنصر أنه يملك من الصفات كل ما تحتاجه حياة الصعلكة ، وقد حصر الشنفرى هذه المؤهلات فيما يأتى :

(ا) السلاح : وهو أبسط ما تحتاجه حياة الصعلوك ، وخاصة نوعا معيناً من السلاح يناسب حياته التى لا تعتمد على مواجهة الأعداء ، وإنما على اصطياد العدو أو الفريسة عن بعد ، هذا النوع هو القوس . ولذلك اختارها الشنفرى فى حديثه عن السلاح ، مركزاً شاعريته على وصفها والإبداع فى إبراز خصائصها ، بينما مر على ذكر السيف مروراً عابراً .

(ب) التعود على الخشونة . وفى هـذا الجانب يصب همه على نفى الليونة والنعومة عن شخصيته وحياته ، مركزاً ضمنا على أنه إنسان خلق للصراع والحركة والتقلب فى وجوه الأرض ، فهو ليس تافها أحمق كبعض الرعيان ، وليس مرفها غزلا كبعض الذين ينقطعون للنساء ، وليس ضعيفا رقيق الفؤاد كبعض الذين تخفق أفئدتهم حينما يواجهون الخوف . فليس شىء من ذلك يناسب حياة الصعلكة أو يصلح لها .

(ج) موهبة تمييز معالم الأماكن والاهتداء إليها : فليس كل إنسان يحسن السير فى الصحراء والجبال ، وتعى ذاكرته معالمها ، وتثبت فى نفسه مسالكها ومشاهدها ، أما الشنفرى فقد بلغ من مقدرته فى هذا المجال أنه حتى فى الظلام لا يخشى أن يضل (ولست بمحيار الظلام) فضـلا عن النهار ، وعما ينبعث من ضوء فى الليل .

(د) موهبة العـدو : فالموهبة الكبرى للصعلوك أن يؤتى مقدرة على العدو يستطيع بها أن يخلص من أعدائه ، وأن ينجو من مخاطر كثيرة دائمة يتعرض لها وقد بلغ الشنفرى من هذه الموهبة حداً جعله فريداً فى مستواه حتى ضرب به المثل فى العدو الذى يصفه مبدعاً فى وصفه ، بأنه من شدة عدوه يتطاير شرر النار مما يصطدم بقدميه من الحجارة ، فضلا عن تكسر هذه الأحجار وتفتتها .

(هـ) قوة التحمل : ومن ألزم ما يلزم الصعلوك أن تكون لديه مقدرة على تحمل أشياء كثيرة ، أشدها إيلاماً ، وأكثرها تردداً الجوع . لأن غريزته البشرية تفرض عليه الحاجة الدائمة إلى الطعام ، وهو فى بيئة وحياة ليس فيها طعام إلا ما يغتصب اغتصاباً إن وجد ، وما تحفى الأقدام حتى يوصل إليه أو يعثر عليه فى أغلب الأحيان وقد أكد الشنفرى أنه يملك من قوة التحمل حداً يفوق الخيال ، وخاصة تحمل الجوع . فهو يستطيع من قوة تحمله أن يتناسى الجوع مهما اشتد ، حتى ينساه وكأنه غير جائع ، وهذه قمة المقدرة فى الصبر والتحمل ، وحتى إذا تجاوز الجوع فترة استطاعة الجسم مقاومته ، فإن الشنفرى يستطيع أن يستف التراب ويرى ذلك خيراً من وضع لا يرضاه ، ومع أن ذلك لا يتصور حدوثه ، ولكنه يدل على مدى

ثقة الشنفرى فى مقدرته على التحمل ، وعلى صوغ حياته كما يريد هو ، لا كما يريد الناس ، ولا حتى كما تريد غرائزه .

ومن أجمل ما حوته القصيدة حسن انتقاله من العنصر الأول وهو الناحية النفسية إلى العنصر الثانى وهو مؤهلات الصعلكة ، وقد تمثل هذا الانتقال فى بيتين يرتبط بعضهما ببعض ، ومع ذلك يعتبر أولهما تلخيصاً للعنصر السابق ، وثانيهما شبه تلخيص للعنصر اللاحق ، وهما قوله :

وَإِنِّى كَفَانِى فَقْدَ مَنْ لَيْسَ جَازِيًا
بِحُسْنَى وَلا فِى قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ

ثَلاثَةُ أَصْحَابٍ فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ
وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

فالبيت الأول يتحدث عن فقده أناساً لا يجزون حسناه بحسنى مثلها ، وليس فى قربهم خير ، وقد كان هذا المعنى إنهاء للعنصر الأول ، ثم انتقل منه إلى العنصر التالى وهو أنه يملك ما هو خير من هؤلاء الناس ، وما يغنيه عنهم ، ثلاثة أصحاب ، فؤاداً مشيعاً ، وسيفاً مسعفاً ، وقوسا جيدة الصنع وهذه الثلاثة هى المحور الذى تدور حوله مؤهلات الصعلكة ، وقد اتخذ منها منطلقا لتفصيل الحديث عن هذه المؤهلات ، هذا الحديث الذى تمثل فى العنصر الثانى .

وكون هذين العنصرين السابقين يمثلان فى خيال الشنفرى حياته قبل الصعلكة أمر لا غموض فيه ، فهو فى العنصر الأول يقارن بين الذين هجرهم ومجتمع الوحوش بعد أن عدد الأسباب التى دفعته إلى الهجرة من ذلك المجتمع إلى حياته ومجتمعه الجديد ، وفى العنصر الثانى يتحدث عن حياة وأنواع من السلوك لا يعرفها مجتمع الصعاليك ، ولا يتصور وجودها فى المجاهل والقفار ، فليس فى مجتمع الصعاليك (متغزل يروح ويغدو داهنا يتكحل) وليس فيهم (مرب بعرسه) .

ويمكن أن نتصور الشنفرى وقد خلا بنفسه فى فترة من فترات حياته ، فأخذ

يستعرض حياته منذ ماوعاه منها ، مستعرضاً ما احتمله من الناس ، وكيف اتجه إلى الصعلكة ، وكيف راز نفسه واختبر مقدرتها على التصعلك قبل أن يندفع إلى هذه الحياة ، ثم صاغ ذلك كله فى هذه اللامية ، وكأنه شخص عن له أن يدون أطوار حياته وأحداثها وما عاناه فيها فى مذكرات مما أصبح يعرف اليوم بالمذكرات الشخصية ، فكانت هذه المذكرات الشخصية ، هى هذه اللامية ، التى صاغ فيها أطوار حياته ومراحلها ، مهتما أشد الاهتمام بابراز نفسيته ومشاعره فى كل طور من هذه الأطوار ، ومهما تعددت أطوار حياته ، فإنها تنحصر فى هذين الطورين الأساسيين ، ما قبل الصعلكة وما بعدها .

بعد الصعلكة

وحياة الصعلكة ليس فيها أطوار ذات أهمية ، وإن كانت حافلة بالأحداث والآلام والمتاعب ، ولذلك نجده لا يعرض علينا أطواراً ولا مراحل ، اللهم إلا مرحلة فى أخريات حياته وأخريات اللامية أيضاً يجد نفسه فيها وقد اشتد الإلف فيها بينه وبين الوحوش ، وبين حياة الصعلكة بصفة عامة ، ولكنها ليست مرحلة بالمعنى الحقيقى ، وإنما هى نتيجة طبيعية لكل شىء يسرى عليه الإلف والتعود.

وإذن فليس فى هذه الفترة أطوار حقيقية ، وإنما هى صور وألوان من المتاعب والمصاعب والآلام . ولذلك نجد الشنفرى يعرض علينا أوضح ما يعانيه وما يتعرض له من هذه المتاعب فيما يلى :

١ — متاعب البحث عن الطعام :

فالطعام حاجة أساسية ودائمة لكل حى ، وبيئة الصعاليك ليس فيها طعام كما يألف الناس فى حياتهم العادية . ولا يكاد الصعلوك يختلف فى بحثه عن طعامه عن أى حيوان أو وحش من وحوش الصحراء ، فالصعلوك لن يرعى حشائش ، ولن يأكل نباتاً ، وليس فى الصحراء غير هذا على ندرة شديدة ، وإذن فليس أمام الصعلوك إلا أن يبحث عن حيوان مما يأكل الناس لحمه فيصطاده طعاماً له ، وهو ما تفعله وحوش الصحراء ، ولا تفعل شيئاً غيره ، وحينئذ نستطيع أن نتصور

مدى ما يتعرض له الصعلوك من جهد ومشقة تتكرر فى كل يوم ، أو فى أغلب الأحيان والأيام إذا تصورنا أنه يستطيع أن يحصل فى بعض غاراته على شىء من طعام . وحينئذ نفهم بوضوح أن الشنفرى حين يشبه نفسه بذئب جائع باحث عن الطعام ، لم يكن متخيلا ولا متكلفاً ولا مبعداً عن الحقيقة ، وأنه حين يستغرق فى وصف هذا الذئب وبحثه عن الطعام ، وتردده مع الذئاب من حوله بين الأمل واليأس ، والشكوى والتجمل بالصبر ، والحزن فى كل الأحوال ، حين يستغرق فى وصف هـــذا عشرة أبيات كاملة من القصيدة لم يكن مسرفاً ولا مستطرداً فى الحديث . . وقد بدأ هذا المعنى بقوله (وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أزل ...)

٢ — صعوبة الحصول على الماء :

والمستقرون فى حياتهم ومقامهم قد لا يحسنون تصور ما يعانيه إنسان متنقل فى الصحراء من عنت ومشقة فى طلبه للماء ، ولو كان هذا الإنسان مستقراً فى مكان محدد لتصورناه يأوى إلى مورد من موارد الماء مهما كان قليلا أو شحيحاً ، فيقيم عنده أو قريباً منه ، ثم لا يفارقه إلا إلى مورد آخر ، ولكن الصعلوك لا يستطيع أن يستقر ، ولا يستطيع أن يحدد لنفسه مقاماً معيناً ، لأنه دائماً بين أمرين ، إما طالب للعيش أو للثأر من عدو ، وهذا يدعوه إلى التنقل لتحقيق ما يريد ، وإما مطلوب من أعداء كثيرين ، وهذا يفرض عليه ألا يجعل لنفسه مكاناً محدداً ، ولا مستقراً معروفاً ، فإن معرفة مكانه حينئذ تحمل له خطراً جسيما من قبل طالبيه .

وإذن فهو فى كل الأحوال متنقل ، وفى أغلب هذه الأحوال باحث عن قافلة يسطو عليها ، أو ركب يقتطع منه ما يستطيع ، أو عادياً وراء صيد عدواً قد يدفعه إلى أن يبعد وراءه إلى أمد غير يسير . فمن أين له بالماء حينئذ ، وإن الراكب ليقطع الأيام والليالى فى بعض المناطق قبل أن يصل إلى عين ماء ؟

ومن هنا أيضاً نستطيع أن ندرك أن الشنفرى لم يكن متخيلا ، ولا شاغلا نفسه وشعره بصغائر الأمور حين يهتم اهتماماً واضحاً ومركزاً بالحديث عن طلب الماء ، وبمنافسته للقطا عليه ، وحين يشغل بهذا المعنى ستة أبيات من اللامية ، تبدأ بقوله (وتشرب أسآرى القطا . . .) .

٣ — الهموم والأحزان :

ولئن كانت المتاعب السابقة نابعة أساساً من الطبع وحاجة الغريزة إلى الطعام والماء ، فإن هناك متاعب تلدها حياة الصعلكة مباشرة ، وأقساها وأدومها مايعانيه الصعلوك من قلق وهم وحزن ، وخاصة حينما يكون وحيداً فى أغلب أحيانه وحياته كالشنفرى ، وقد حدد الشنفرى جانبين من جوانب متاعبه النفسية ، وهما :

(أ) الشعور بالمطاردة : فما أقسى شعور الإنسان بأنه مطارد ، وأن نتيجة هذه المطاردة قد تكون حياته وليس شيئاً دون ذلك، وهذا إذا استطاع أعداؤه أن يتمكنوا منه ، وأعداؤه كثيرون ، فهو (طريد جنايات) كثيرة ، وليست جناية واحدة ، وأعداؤه إذن كثيرون وليسوا عدواً واحداً يستطيع أن يتحاشاه أو يبعد عنه ، وأعداؤه لا يحملون له بغضا عادياً ، وإنما يحملون حقداً مدمراً وبغضاً عارماً ، ولنا أن نتصور حقد قبيلة يقتل منها الشنفرى عشرات ، حتى يبلغ قتلاه منهم تسعة وتسعين كما تذكر الروايات ، وهم بنو سلامان بن مفرج ، ومع ذلك فهم على كثرتهم ، وعلى ما تحمله نفوسهم من بغض عارم ، بعض أعدائه ، وجبهة واحدة من جبهات صراعه .

وليس هناك شعور أقسى على النفس ، وأكثر إقلاقاً وإرهاقاً لها من شعور المرء بأنه مطارد ، وأنه مطارد لجناية جناها ، فقد يكون المطارد ظلماً أو التباساً أو نحو ذلك ، أخف قلقاً من الجانى ، لأن الجانى مطارد من الناس ومن ضميره معاً ، فهو مطارد من داخل نفسه وخارجها ، وحينئذ تمتلىء نفسه همًا وحزناً وكآبة وانقباضا ، ولكن شيئاً آخر شديد الأهمية يضاف إلى ذلك ، وهو توقعه المكروه من كل وجه ، وريبته بكل شىء ، وخوفه من كل حركة ، وما أدق تصوير القرآن الكريم لهذا المعنى فى قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) .

ونلاحظ فى تعبير الشنفرى معنى دقيقاً يؤكد أن المجرم لا يشعر بالخوف من مطارديه وحدهم ، وإنما يشعر بالخوف من أعماقه وضميره أيضاً ، وكأن الجناية نفسها قد تحولت إلى قوة تطارد الجانى وتتعقبه ، ولا تغفل عينها عن مطاردته كما يوضح الشنفرى ذلك فيقول وكل حديثه عن الجنايات نفسها وليس عن المطاردين :

طَرِيدُ جِنايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ
عَقِيرَتُهُ لأَيِّهَا حُمَّ أَوَّلُ

تَنَامُ إذا ما نامَ يَقْظَى عُيُونُها
حِثَاثًا إلى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلْغَلُ

فالتى تطارده الجنات نفسها ، وقد يقال إنه يقصد بهذا أعداءه ومطارديه ، والجواب أن هذا بدهى لا نزاع فيه ، ولكنه مع ذلك يوحى بأن الشبح المخيف ، والمطارد له ، والماثل فى شعوره أولا هو الجناية وليس المجنى عليه ، ولذلك كانت أسبق وأسرع إلى مخيلته ولسانه ، فصاغ المعنى واللفظ عليها وليس على المطاردين حقيقة وواقعا .

(ب) الكآبة والحزن : ونتيجة لما يعانيه من العامل السابق ، ومن جوانب حياة الصعلكة فى مختلف وجوهها وصورها ، لابد أن يجد فى نفسه قلقاوهما وكآبة تملأ نفسه ، ولا تكاد تتخلى عن حياته ونفسيته. ولذلك نجد الحديث عن الهموم بعمق وتركيز واضحاً فى شعر كل الصعاليك ، لأن الهموم نتيجة وأثر طبعى لهذه الحياة التى لاتحوى شيئاً يسر أو يريح ، ولا تحمل أملا باسماً أو باعثاً على بشر أو رضا ، وأى شىء فى هذه الحياة يسر ، وكل ما فيها مرعب رهيب ؟ وأى أمل مشرق فيها ينتظر ، وكل ما يؤمله الصعلوك وينتظره ، إما جناية يجنيها ، وإما خطر يحيط به ؟ فلا الواقع إذن يبعث على الرضا ، ولا المستقبل يحمل شيئاً من طمأنينة أو راحة نفس .

فلم يكن غريباً والحال هذا أن نجد هموم الشنفرى محيطة به (من تحيت ومن عل) وأنها حريصة على ألا تفارقه إلا ريثما تعود ، وكأنها حمى تتردد على صاحبها فى مواعيد لا تكاد تخطىء أو تخلف .

ولكننا نلاحظ كأن الشنفرى أحس بشيء من هوان فيما كشفه لنا من أعماق نفسه ومخاوفها ، فأراد أن يمحو هذا أو يجعل عليه ستاراً يغطيه ، وقد كان هذا الستار مدحا فى نفســه ، وفخراً بصفات يرى فيها تغطية لما تحدث به من الخوف من مطارديه ، ومن ضيقه بالهموم ، فساق خمسة أبيات من الفخر ، عقب حديثه عن مطاردة الجنايات والهموم إياه .

٤ — قسوة البيئة :

ومما يعانيه الشنفرى من متاعب الصعلكة طبيعة البيئة ، فهذه المنطقة من الصحراء تتميز كما هو معروف فى المناخ الصحراوى أو القارى بشدة البرودة فى الشــتاء ، وشدة الحرارة فى الصيف ، ومما يزيد فى إيلام هذه العوامل الجوية لمثل الشنفرى أنه لا يملك وســيلة لوقاية نفسه منها أو مقاومتها ، فليس لديه غطاء يحميه من برد الشتاء ، وليس لديه ثياب أو ملابس تقيه لفح الشمس وحرارة الصيف ، وليس فى جسمه غذاء يبعث فيه حرارة تقاوم هــذه العوامل الجوية العنيفة القاسية ، وإنما يعيش مثله أساسا على قوة تركيبه الجثمانى ، ثم ما يقتات به للحفاظ على قوة هذا التركيب ، وقد حدد الشنفرى أهم ما يقاسيه من طبيعة البيئة فيما يأتى :

(أ) البرد الشــديد : وقد وصفه الشنفرى فى قوله (وليلة نحس) بأنه يبلغ من قسوته أن يضطر المرء إلى التفريط فى أهم ما يملك من سلاح للدفاع عن حياته وهى القوس فيعمد صاحبها إلى تحطيمها ، وتحطيم نصال سهامه ، ليوقدها ويستدفىء على نارها ، وهذا أقصى ما يتصور من وصف لشدة البرد ، وحقاً إن الشنفرى لم يقل إنه هو حطم قوسه ، وإنما يقول إن صاحب القوس يهون عليه أن يحطمها حينئذ ليستدفىء بها ، ولن يفعل ذلك إلا إذا كان البرد يهدد حياته نفسها ، ولكنه يدفع خطراً عاجلا بما يحميه من خطر غير عاجل .

(ب) الحر الشــديد : وقد وصف الشنفرى هــذا الحر البالغ الصعوبة والقسوة ومضايقة الأنفاس حين تخالطه الرطوبة ، ووصف ما ينتشر فى الفضاء من آثار اجتماع الحرارة الشديدة والرطوبة الشديدة بأنه لعاب الحر ، يعنى به ما ينتشر

فى الفضاء مشبها خيوط العنكبوت ، وحينئذ يكون الحر قد بلغ أقصى درجات المضايقة لما يشوبه من آثار الرطوبة ، ومن آثار هذا الحر أن الأفاعى وهى وليدة البيئة ويفترض تعودها عليها وخاصة فى الصيف لم تحتمل بعض هذا الحر الذى يصفه الشنفرى ، فكيف به هو ؟ خاصة وأنه لا يملك من الثياب ما يرحمه من هذا القيظ الشـديد .

(ج) الحرمان : وبعد هـذا يصف لنا الشنفرى بعض آثار ما يعانيه من حرمان فى هذه البيئة ، فيختار من ذلك منظراً يملأ النفس ألما ورحمة بإنسان تضطره الظروف إلى أن يكون بهذا المنظر البشع الكريه ، حين يطول شعره حتى يتدلى على (أعطافه) وأكتافه لا يجد من يقصه له ، وحتى يتسخ هذا الشعر ويتراكم عليه الوسخ فيتلبد بعضه فى بعض لأنه لا يجد ما يدفعه إلى غسله أو ترجيله أو تنظيفه مما قد يعلق به من حشرات ولا أدوات ذلك ، وقد يمضى عليه الحول لا يمسه الماء (لهُ عبسٌ عافٍ من الغسْل مُحْوِلُ) .

ومع ذلك فهذا المنظر ليس إلا مثالا ودليلا على ما يعانيه من شظف وحرمان وبؤس .

وكما واسى نفسه فى الموضع السابق بفخر يعيد الطمأنينة إلى نفسه والثقة بها حينما أحس شيئاً من غضاضة قد لحقت بها ، كذلك فعل هنا ، فقد ساق عقب حديثه عن الحرمان ، ومرآه هـذا الكريه صفة من صفات الفخر ، وهى موهبة العدو ، وهى وإن لم تكن من نوع يقابل موضع الألم ، إلا أنها تحيط ذاته كلها بهالة من الإعجاب حيث ينفرد بشىء لم يرق إلى مستواه فيه أحد .

ويختم الشنفرى قصيدته بمعنى لا يشتد فى التركيز عليه ، وهو أنه أصبح أليف الوحش وخاصة الوعول التى تذهب وتجىء من حوله ، وكأنه الذكر وهن الإناث محتميات ومؤتنسات به .

وقد يكون عدم تركيزه لأنه أصبح أمراً مألوفاً عادياً لا يحتاجَ إلى تكلف فى إثباته والتدليل عليه ، وقد يكون ذلك لأنه ليس فى حاجة إلى هذه الألفة بينه وبين

هذه الوحوش أو لأنها ألفة غير طبيعية فلا يعنيه الحرص على إثباتها .

وسواء كان هذا أو ذلك ، فقد أصبح أمراً واقعاً أن تألفه الوعول من حوله ، وأن تأنس إليه كلما وفد الأصيل ، حينما تكون قد هدأت حركتها من جهد السعي وراء العيش ، وأخذت تهيء نفسها للراحة والركود .

منهج المذكرات الشخصية

سبقت الإشارة إلى أن شعر الصعاليك يتميز بأنه يسلك منهج (المذكرات الشخصية) وهذه حقيقة يلمسها بوضوح كل دارس لشعر الصعاليك ، وهذا المنهج يقوم على دعامة أساسية ، هي أن يجعل الصعلوك من شخصه محوراً لكل ما يدور حوله الحديث ، فلا يعنيه شيء لذاته ، وإنما يعنيه ارتباط هذا الشيء به ، ويتبع ذلك أن نشعر دائماً أن شخصية الصعلوك واضحة المعالم ، بارزة الجوانب في كل معنى يطرقه الشعر .

ومثال ذلك أن الشعراء من غير الصعاليك يألفون دائماً أن يتناولوا موضوعات وأهدافاً لذاتها ، دون ارتباط مباشر بينهم وبينها ، فقد يمدح الشاعر شخصاً بقصيدة طويلة متنوعة المعاني والعناصر ، فتنصب كلها على غرض أو أغراض بعيدة عن شخص الشاعر نفسه ، فقد نعلم الكثير المستفيض عن هذا الممدوح ، ولكننا لا نعلم عن شخصية الشاعر شيئاً ، وقد يتحدث عن وصف شيء ، أو يذكر أحداثاً أو غير ذلك ، ولكنه يظل هو بعيداً عن ذلك كله ، لا نشعر به إلا متحدثاً فحسب ، ولكن شعر الصعاليك ليس كذلك ، إن الصعلوك دائماً مدار الحديث ، ومرجع الأحداث وملتقى المتفرقات .

وتوضيح ذلك أن الصعلوك قد انفصل نفسياً عن المجتمع ، فهو لا يحس برابطة مباشرة أو مؤثرة بينه وبين المجتمع أو بينه وبين غيره ، إلا ما يرتبط بحياته في الصعلكة ، فلا يهتم بحديث بعيد عن شخصه وحياته ، ولا يعنيه كثيراً أمر لا يرتبط به ، فكل ما يتحدث عنه مرتبط بشخصه .

ويترتب على ذلك أمر ذو أهمية بالنسبة لشعر الصعاليك ، وهو أن الصعلوك يستطيع أن يجمع فى قصيدة واحدة بين أمور متفرقة أو متباعدة أو حتى أحياناً متضاربة ، ومع ذلك تبدو مترابطة بسبب هذا المنهج الذى يتميز به شعر الصعاليك وهو ما يصح أن نسميه (منهج المذكرات الشخصية) أعنى أنه يشبه طريقة كتابة المذكرات الشخصية التى يدون فيها صاحبها أحداثاً أو مواقف أو فترات من حياته متقاربة أو متباعدة ، متفقة أو مختلفة ، ومع ذلك لا نرى فى ذلك غرابة أو تناقضاً ما دامت مرتبطة بشخص صاحب المذكرات . فقد يكتب هذا الشخص مثلا أنه فى يوم كذا ركب الطائرة ، وأكل طعاماً من نوع معين ، وصادف شخصاً لم يلتق به منذ أمد بعيد وشاهد مدينة صفتها كذا ، وضاعت حقيبته فى ذلك اليوم ، ثم اشترى ثوبا جديداً بثمن زهيد لم يكن يتوقعه ، لأن البلدة التى نزل فيها رخيصة الأسعار ، وهطل عليه المطر فجأة فأوى إلى مكان صفته كذا . وهكذا يجمع بين أحداث لا ترابط ولا توافق بينها لذاتها ، ولكن لكونها مرتبطة بشخصه لا نرى فى ذلك غرابة أو تناقضا ، وكأن شخصيته هى الخيط الذى تنتظم فيه هذه الأحداث ، فتصبح متقاربة مترابطة ، وهذا ما نعنيه من منهج المذكرات الشخصية الذى يتميز به شعر الصعاليك .

ولامية الشنفرى مثال واضح لهذا المنهج من جانبيه اللذين أشرنا إليهما فى بدء هذا الحديث ، وهما :

١ — دوران الأحداث والمشاهد حول شخصية الشنفرى :

فكل شىء تحدثت عنه اللامية مرتبط بشخص الشنفرى ، ولا يوجد شىء قط تحدثت عنه إلا وهو مرتبط به . ومع أن هناك مشاهد تصلح أن توصف لذاتها دون ارتباط بشخص أو شىء ، ويمكن لأى شاعر أن يتناولها كذلك ، إلا أن الشنفرى يجعل كل شىء مشدوداً إليه ومرتبطا به ، فهو مثلا يصف القوس وصفا دقيقا مفصلا ، ويمكن لأى شاعر أن يتخذ من ذلك غرضا مستقلا ولا بأس عليه ، ولكن الشنفرى لا يصف القوس لذاتها ، وإنما لكونها إحدى (ثلاثة أصحاب) له كفوه فقده للناس وصحبتهم . وهو يصف الذئب وصحبه وصفا مستفيضا مفصــــلا ، ولكن ذلك لا يعنيه لذاته ، وإنما لكونه شبيها له فى حاله من الجوع والبحث عن

الطعام . وكذلك يصف القطا متفنناً فى وصفه وتتبع حركاته ، ولا يعنيه من ذلك إلا أنه كان يسابق هذا القطا إلى الماء وينافسه عليه ، وأيضاً يصف البرد الشديد المهلك لا لذاته ، وإنما لأن هـذا البرد لم يمنعه من الوصول إلى هدفه ، فوصل وحقق ما أراد ، فأيم نسوانا وأيتم إلدة ، ووصف الحر أيضاً ، لا لذاته ، وإنما لأنه يستطيع مقاومة هذا الحر القاتل بدون واق أو ساتر ، فيقول : (نصبت له وجهى ولا كِنّ دونه) ، وهكذا نجد كل ما تحدثت عنه اللامية أساساً أو عرضاً إنما يدور حول شخصية الشنفرى ، بحيث يصبح هو المحور لكل شىء ، سـواء تقاربت هذه الأشياء أو تباعدت لذاتها ، ولكنها حين ترتبط به تصبح جميعاً وفى كل أحوالها متقاربة مترابطة ، لأن هناك خيطاً يربطها ويجمعها . هو شخصية الشاعر .

٢ — وضوح شخصية الشاعر :

قلنا إن منهج المذكرات الشخصية يترتب عليه أن تكون شخصية الشاعر واضحة دائماً من خلال الأحداث والمشاهد ، لأن الأحداث والمشاهد كلها مرتبطة بشخصه . وهذا واضح فى اللامية ، بحيث نشعر بشخصية الشنفرى واضحة تطل علينا من كل ركن فى اللامية ، وليس من المبالغة أن يقال إن الروايات جميعاً لا توضح لنا شخصية الشنفرى من زواياها العديدة كما يوضحها لنا شعره وخاصة اللامية أو أن هذه الروايات التاريخية لا تضيف جديداً إلى ما يبرزه شعره عن شخصيته ، ولعل هذا مما دعا بعض الناقدين والباحثين إلى القول بأن كل الأخبار عن الصعاليك مأخوذة من شعرهم وما ورد فيه من أحداث وأخبار . وليس هـذا مما يعنينا لذاته هنا ، وإنما يعنينا أن منهج اللامية يبرز لنا شخصية الشنفرى من عدة نواح أهمها فى إيجاز .

(ا) مظهره وتكوينه الجسمى :

فأما عن تكوينه الجسمى فنجده جسداً ناحلا شديد النحول ، فهو مجرد هيكل من العظام ، تبدو فقار ظهره وعظام ضلوعه ، فتحول بين جسمه والأرض حين ينام وزراعة مجرد قطع صلبة من العظام يتركب بعضها فى بعض ، ليس فى جسمه شىء من لحم . والنحول صفة مشتركة بين العدائين من الصعاليك ، فان العدو يحتاج إلى خفة الجسم ، ويؤكد ذلك البيتان (٤٢ ، ٤٣) وأما مظهره فيسيطر عليه البؤس

وظهور الفاقة والحرمان ، فهو حافى القدمين (أحْفَى ولا أتنعَّل) ويكاد يكون عارى الجسد أيضاً إلا من برد ممزق لا يمنع الشمس وحرها أن يصلا إلى جسده ، وهـذا البرد هو (الأتحمىُّ المرعْبلُ) الذى ذكره ، ومن مظهره أيضاً شعره المتدلى على كتفيه وجانبيه ، بمنظره القذر ، وقد تلبد بعضه فى بعض ، (بعيدٌ بمسٍّ الدهن والفلى عهدُهُ) .

وماذا نريد أن نعرف عن مظهر شخص أكثر من أنه جسد ناحل يابس ، نراه من رأسه وشعره المتلبد إلى برده الممزق إلى قدميه الحافيتين ؟

(ب) خلقه ومميزاته :

وإذا كانت نفوسنا قد انطبعت فيها صورة واضحة عن مظهره وتكوينه الجسمى من خلال اللامية ، فان اللامية تظهرنا على ما تحوى هذه الشخصية فى أعماقها من خلق ومزايا ، والشىء الوحيد الذى لن نجده فيها عن الشنفرى واضحاً أو صريحاً وأن لحناه لحناً هو مساوىء الشنفرى ، لأنها ليست رواية تاريخية أو شهادة محايدة ، وإنما هى لسان صاحبها ، ويكفى صاحبها اعتدالا أنه لم يأنف أن يسوق عن نفسه فى أحوالها المختلفة ، وفى بعض ما اكتسبته ما يهون قليلا أو كثيراً من قدرها ، فانه اعتدال ينبىء عن قوة الثقة بالنفس ، وينبىء أيضا عن أن مثل هذه القوة والجرأة كان يمكن أن تدفع صاحبها إلى ذكر مساوئه لو كان يعلم أن له مساوىء ، ومايدرينا فلعل الشنفرى كان يعتقد أنه خال من المساوىء ، بل لعله كان يعتقد أنه نموذج ينبغى أن يحتذى ، أو على الأقل لا ينبغى أن يوجه إليه لوم أو نكير ، لأنه ليس فى خلقه مايدعو إلى لوم أو إنكار فيما يرى ويعتقد .

ونعود فنقول : أما خلقه من خلال اللامية ، فهو غنى بالفضائل المتعددة الجوانب ومن هذه الفضائل الإباء الذى دفعه إلى هجرة الناس وإيثار أقسى ألوان الحياة فى الصعلكة على عيش ذليل بين الناس كما يقول :

وَلَوْلا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ
يُعَاشُ به إلاَّ لَدَىَّ وَمَأْكَلُ

فليست هجرته عن الناس طلباً للعيش ، فلو صرف همه إلى ذلك وحده لتيسر له العيش الناعم الرخى فى كل مكان يحل به ، ولكنه يهجر كل شىء حفاظاً على مروءته وعزته، وصوناً لنفسه من الهوان . وهذا العنصر مطابق لواقع حياته وخاصة بين بنى سلامان كما سبق . فيقول :

وفى الأَرْضِ منأى للكريم عن الأذى
وفيها لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ

هذا بالاضافة إلى البسالة والشجاعة التى تردد حديثه عنها كثيراً ، إما تصريحاً وإما فى جانب من الحديث ، حيث لا يجعل حديثه هذا منصباً على وصف شجاعته مباشرة ، وإنما فى المقارنة بينه وبين الوحوش فى أغلب الأحيان ، ولكنه دائماً سابق متفوق ، فى كل ميدان للشجاعة والبسالة . ومن خلقه التعفف وعدم الجشع ، فهو يستحي أن يزاحم الناس على شىء يمكن أن يصبر عنه ، ويستحي أن تكون مزاحمته فى شىء ليس من معالى الأمور ، وخاصة إذا كانت هذه المزاحمة تنبئ عن جشع ، حيث يقول .

وإن مُدَّت الأيدى إلى الزَّادِ لم أكن
بأَعْجَلِهم إذْ أَجْشَعُ القوم أَعْجَلُ

ومن خلقه الصبر الذى لا حدود له ، والذى تفنن فى وصفه وفى التعبير عنه بصور عديدة متنوعة ، فهو مرة يطوى على الخمص الحشايا ، ومرة هو مولى الصبر ، ومرة فى حال آخر من الصبر وهكذا .

ومن خلقه ثبات الشخصية ، ومقاومتها لكل الظروف ، حيث إنها أقوى من كل الظروف ، وهو مقياس دقيق لاختبار قوة الشخصية ، والمفاضلة بينها وبين الظروف المحيطة بها من حيث القوة ، فالنفس قد تبلغ أحياناً من القوة درجة تصغر عندها الملابسات والأحوال المحيطة بها أو الموجهة إليها ، فليست الأحوال حينئذ هى التى تدفع النفس وتؤثر فيها ، ولكن النفس هى التى تخضع هذه الظروف وتحدد

كيانها ، ويضرب لنا الشنفرى مثالا من قوة شخصيته إزاء ما يحيط بها من أحوال فيقول عن نفسه :

فلا جَزِعٌ من خَلَّةٍ مُتَكَشِّفٌ
ولا مَرِحٌ تحت الغِنَى أتَخَيَّلُ

فنفسه لا تضعف أمام الفقر ، ولا تضعف أيضاً أمام الغنى .

وهذه مجرد أمثلة لدلالة اللامية على خلق الشنفرى من الزاوية التى ينظر منها صاحبها إلى نفسه .

(ح) مواهبه :

ومما تبديه لنا اللامية من شخصية الشنفرى مواهبه ، وهى مواهب متعددة من حيث العدد والكم ، وذات شأن وتأثير من حيث الجوهر والقيمة وليس من شك فى أن أقصى ما ينتظر من بلوغ شخص فى موهبة أن يضرب به المثل فيها ، وقد ضرب بالشنفرى المثل فى أكثر من موهبة كما سبق .

ومما ضرب به المثل من مواهب الشنفرى العدو ، والعداءون لم يكونوا قلة حينذاك ، وعلى الأخص فى مجتمع الصعاليك ، فقد عرفوا بكثرة العدائين فيهم ، ولكن الشنفرى كان قمة متميزة فى سرعة العدو ، ومع أن هناك بضعة نفر منهم اشتهروا بأنهم لم تلحقهم الخيل قط ، وأشهرهم الشنفرى وتأبط شراً وعمرو ابن براق والسليك بن السلكة ، إلا أن الشنفرى هو الذى بلغ من انفراده بالتفوق فى سرعة العدو أن ضرب به المثل فيه ، وبعض الروايات تذكر أن السليك ابن السلكة ضرب به المثل أيضاً ، ولكن الرواة يتصدون لهذا منكرين أن يكون أحد قد شارك الشنفرى فى ضرب المثل به فى سرعة العدو ، وهذا التصدى يدل على أن تفوق الشنفرى لم يكن عادياً ، وليست المشاركة فيه شيئاً عاديا أو مقبولا ، وإنما كان انفراده شيئا معروفا ومتميزاً لا يسمح بمشاركة أحد إياه فيه . والمثل المشهور فى ذلك (أعدى من الشنفرى) .

والشنفرى يحدثنا فى اللامية عن موهبته هـــذه بأكثر من أسلوب وتصوير ، فأحياناً يصور سرعة عدوه بأنه يجعل الحجارة حين يضرب بعضها فى بعض تتحطم ويتطاير منها شرر النار (تطاير منه قادح وَمُفَـلَّـلُ)

وأحياناً يصور ذلك فى صورة مسابقة بينه وبين القطا على المـاء ، حيث يسبق الطير بعدوه ليلة كاملة ، إلى الماء ويفرغ من شرابه وينصرف قبل وصول القطا .

وأحياناً يتحدث عن قطعه لواد مقفر لم يقطعه أحد قبله ، أو ليس مطروقا من الناس ، لصعوبته وإقفاره ، أما هو فيقطعه برجليه ملحقاً (أولاه بأخراه) وكأن رجليه تمحوان المسافات والآماد ، فيصبح الآخر أولا والبعيد قريباً .

ومما ضرب به المثل من مواهب الشنفرى الحذق ، فقالوا (أحذق من الشنفرى) ويعنون بالحذق الذكاء ، وسرعة البديهة ، وقوة الملاحظة ، وكل ما يتعلق بالمقدرة العقلية فى مختلف صورها وآثارها .

واللامية تحدثنا عن بعض حذق الشنفرى فى صور تدل على مدى تمتع الشنفرى بدقة الملاحظة ونحو ذلك ، وخاصة فيما يتعلق بحياته فى الصعلكة ، فما تحتاجه حياة الصعلوك احتياجا أساسيا أن يكون متمكنا من مقدرته على تمييز معالم الأماكن والمسالك والجهات ، حتى لا يضل ، وضلاله فى صحراء شاسعة ليس سهلا ، إنه يعنى هلاكا محققا بالنسبة للشخص العادى . وما لم يكن الصعلوك واثقا من مقدرته هذه فلن يستطيع الحركة أو مزاولة هذه المهنة ، أما الشنفرى فإنه يبلغ من هذه المقدرة أو الموهبة أنه لا يخشى الصحراء مهما اتسعت أو تعددت مسالكها ، أو انبهمت معالمها ، بل إنه حتى فى الظلام يستطيع أن يحدد المعالم ، فلا تستولى عليه حيرة الضال أو الباحث عن الطريق (ولست بمحيار الظلام) .

ومن آثار حذق الشنفرى ودقة ملاحظته ، أنه يستفيد بغريزة حيوان الصحراء فى حياته ومعاشه ، فحيوان الصحراء يهتدى بغريزته إلى وسائل حياته ، كما يهتدى الذئب إلى طعامه مثلا ، فالشنفرى يستفيد بهذه الغريزة ، فيتتبع الذئب ويراقب حركاته حتى يرى الصيد الذى يتجه إليه الذئب ، وحينئذ يستطيع الشنفرى أن يسبق هذا الذئب ، وأن يغلبه على هذه الفريسة بأكثر من وسيلة ، فهو أسرع من الذئب

فى العدو ، إن أراد أن يصل إلى الفريسة قبله ، وهو يملك قوسا محكمة الصنع دقيقة التصويب إن أراد أن يحول بين الذئب وفريسته . والشنفرى يشير إلى استفادته من غريزة الذئب فى البحث عن الطعام فى أبيات طويلة ، رغم أن نتيجة هذه الأبيات أن الذئاب لم تجد طعاما فى نهاية المطاف .

ومن دقة ملاحظته أنه يستفيد من القطا فى حصوله على الماء ، فهو بخبرته ودقة ملاحظته يعرف أسلوب القطا فى بحثه عن الماء ، فيتبعه ، وحين يعرف وجهته وهدفه ، يستطيع أن يحدد موقع الماء ، وحينئذ يسرع فيكون أسبق من القطا ، ويذكر الشنفرى ذلك مشيراً إلى استفادته من غريزة القطا فى البحث عن الماء ، وقد تبدو مسابقته للقطا فى سرعه الوصول إلى الماء ضربا من المبالغة خاصة وأنه يقول إن هذه المسابقة استمرت أكثر من ليلة كاملة ، ولكن التأمل بعض الشىء ينبئنا أن المبالغة هنا غير مغرقة فى الإسراف لسببين ، أحدهما أن الشنفرى عداء خارق للعادة فى عدوه ، والآخر أن القطا والطير عامة لا يطير فى الليل ، فإذا بدأت المسابقة فى آخر النهار مثلا ، فإن القطا سيأتى عليه الليل فيهجع ، أما الشنفرى فيستطيع أن يعدو شطراً طويلا من الليل يسبق به القطا سبقاً واسعاً يحقق ما وصفه لنا .

ومن دقة ملاحظة الشنفرى أنه يحسن التأمل حتى فى عوامله النفسية ، فيرصد ما ينتابه من نوبات الضيق والهم ، لا لمجرد الإحساس ، فذلك أمر بدهى ، وإنما لرصد الأوقات والملابسات والأعراض ، وحديثه عن الهموم التى ألفها ، والمواعيد التى تردد عليه فيها كالحمى ذات المواعيد المحددة ، ثم وسائل معالجته للهموم ، ثم طريقة اجتياح الهموم له ، كل ذلك ينبىء عن أنه لا يصف بمجرد وصف ، وإنما يتحدث بدقة شديدة عن ملاحظات دقيقة حددها وحدد موقفه منها . ومن الغريب أن أحدث ما انتهى إليه علماء النفس فى بحوثهم فى هذا المجال يكاد يؤيد الشنفرى تأييداً حرفيا .

ولست أعنى بدقة الملاحظة ما هو شائع أو معروف من هذا التعبير ، فذلك قدر قد يتحقق لدى كثير من الأذكياء وذوى القدرات الخاصة ، ولكننا نعنى بدقة ملاحظة الشنفرى درجة من التفوق فى الملاحظة المقترنة بعوامل من الخبرة والذكاء ليست متاحة إلا لقمة متميزة كالشنفرى ، بلغ منها حداً أصبح يضرب به المثل فيه .

ومن مواهب الشنفرى التى تميز بها فى صورة التفوق البارز المحدد الجرأة والإقدام ، وهى صفة قد يشترك فيها أيضاً غير قليل من الناس ، ولكن درجة الشنفرى منها تجعله فى وضع لا يكاد يطاوله فيه أحد . وحياة الشنفرى شاهد على ذلك دون حاجة إلى دليل ، وقد كان الشنفرى من القلة النادرة الذين عرفوا من بين الصعاليك وقطاع الطريق بأنهم يغيرون بمفردهم ، فكان الشنفرى قوة مستقلة ، رغم اشتراكه فترات طويلة فى عصابة تأبط شراً ، وعمرو بن براق ، ولكنه فى سائر حياته يعتبر بصفة عامة منفرداً فى غاراته ، سواء على القوافل وغيرها بقصد الغنيمة ، أو على أعدائه للقتل منهم كما كان يفعل بأعدائه بنى سلامان الذين قتل منهم تسعة وتسعين رجلا فى غاراته كما تجمع على ذلك كل الروايات .

فحياة الشنفرى وما فيها من أحداث دليل لذاتها على ما كان يتمتع به من جرأة غير مألوفة حتى بين الشجعان . ويصف الشنفرى فى إيجاز بالغ الجمال مصدر جرأته ، بأنه صاحب (فؤاد مُشَيَّع) يعنى أن قلبه فى شجاعته وإقدامه كأنه فى شيعة وجماعة توازره وتنصره . وأما عن آثار هذه الجرأة التى يحملها قلبه فقد تحدث عنها فى اللامية كثيراً ، ومن أبدع هذا الحديث وصفه لليلة البرد الشديد ذات المطر ، التى مشى فيها على الوحل وفى الظلام الشديد ، وليس له من صحب إلا الجوع الشديد ، والبرد الشديد ، والخوف الشديد ، والرعشة الشديدة أيضاً حيث يقول :

وليلةِ نَحْسٍ يَصْطَلِى القَوْسَ رَبُّهَا
وَأَقْطُعَهُ اللاتى بها يَتَنَبَّلُ

دَعَسْتُ على غَطْشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتِى
سُعَارٌ وإرْزِيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ

فَأَيَّمْتُ نِسْوانًا وَأَيْتَمْتُ إِلْدَةً
وَعُدْتُ كما أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلْيَلُ

ففى كل هذه الملابسات والأحوال من البرد القاتل والظلام والمطر والوحل والجوع والخوف يخرج الشنفرى وحيداً مصمماً على إنفاذ عزمه ، فينفذه ،

وإذا هو يعود لا بهدف واحد ، وإنما بأهداف تجعل غارته هذه مصدر حيرة وعجب من الناس ، ومع ذلك فليست مرة واحدة ، وإنما هى مثال لحياته كلها فى الصعلكة ، وإذن فشخص حياته بهذه الصورة ليس فى حاجة إلى التدليل على مدى ما يحمل قلبه من جزأة وإقدام وبأس شديد ، ومن دقته فى ذكر الظلام إشارته إلى آثار المطر ، ومعنى ذلك أن هناك سُحباً تحجب ضوء الكواكب .

(د) نفسيته :

وأول ما تطالعنا به اللامية عن نفسية الشنفرى أنه امرؤ شديد الثقة بنفسه فى غير غرور ولا تطرف ، فهو دائماً واثق من مقدوته على تنفيذ ما يصمم عليه ، سواء بالنسبة لنفسه من مغالبة للجوع حتى ينساه ، أو مصارعة للهموم حتى يتغلب عليها ، ونحو ذلك ، أو بالنسبة لغيره سواء أيضا من الناس فى إملاء إرادته عليهم أو هجرهم إن أعجزه ذلك ، أو من الحيوان والطير فى منافسته له على وسائل العيش ، كمنافسته للقطا على الشراب ، وبصفة عامة فإن ثقة الشنفرى فى نفسه وفى مقدرته واضحة فى كل حديث اللامية . ومما تطالعنا به اللامية من نفسية الشنفرى سخطه الشديد على الناس وعلى أخلاقهم ، فهو هاجر لهم لا هجرة الآسف أو المتنقل ، وإنما هجرة القالى المبغض لكل ما رآه منهم ، وأيسر ما ينكره من خلق الذين عرفهم أن يصف الواحد منهم بأنه (ليس جازيا بحُسْنَى ولا فى قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ) . ومن أدلة سخطه على الناس وإنكاره لخلقهم وصلاتهم الكاذبة الخادعة إيثاره لأى حيوان عرفه فى الصحراء على خلق هؤلاء البشر ، وهى نزعة واضحة فى شعر الصعاليك عامة ، فيقول الشنفرى مقارنا ومفضلا لخلق الوحوش على خلق الناس .

هُم الأَهْلُ لا مُسْتَودعُ السِّرِّ ذائِعٌ
لَدَيْهِم ولا الجانى بما جَرَّ يخْذَلُ

ويعنى بالأهل الوحوش . ولعله ليس من المصادفة أنه بدأ اللامية بحديث هجرته عن الناس ، بينما ختمها بحديثه عن الألفة الشديدة بينه وبين الوحوش .

ومما تطالعنا به اللامية من نفسية الشنفرى أننا لا نشعر بكراهية الشنفرى لحياة الصعلكة على ما فيها من قسوة ورهبة شديدين ، وقد يكون الشنفرى مصرحا فى بداية اتجاهه إلى الصعلكة أنه إنما اتجه إليها نفوراً من أذى الناس وضيقاً بخلقهم ، ولكنه بعد أن أوغل فيها لم نشعر بأنه نادم على اتجاهه إليها ، ولا أنه ساخط عليها ، ولا أن نفسه تنازعه إلى تركها ، بل على العكس من ذلك ، نجده يتحدث عن حياة الصعلكة وكأنه عاشق لها مولع بها ولعاً بينا يكاد يسيطر على كل حديث يتعلق بهذه الحياة ، فى صورة أنه مغرم بما يلاقى من متاعب ، مستمتع بمغالبته لهذه المصاعب وانتصاره عليها .

(ه) معيشته :

وأما معيشة الشنفرى وأسلوب حياته فقد كان ذلك واضحاً فى اللامية أشد الوضوح ، ومن إمارات صدق شاعرية الشنفرى أنه يعرض علينا حياته بما يكاد يشبه الخفايا والأسرار من أسلوب المعيشة دون أن يرى فى ذلك غضاضة أو بأسا ، وبينما يشيع فى شعر الشعراء الفخر ، وبينما يجنح معظمهم إلى أن ينسب إلى نفسه ما لم تفعل ، بغية التفاخر والتظاهر فإن الشنفرى ينتهج عكس ذلك ، فيحدثنا عن نفسه بما يكاد غيره أن يخجل منه ، فيحدثنا عن جوعه المهلك حديثا عميقا مستفيضا لا عارضا ، ويحدثنا عن فقره وعن أنه (يحفى ولا ينتعل) وعن خوفه أيضا وخاصة فى غاراته ، وعن عُرْيِهِ واتساخ شعره وجسده ، وعن حرمانه من كل لين فى العيش ، أو راحة فى النوم ، أو ساتر فى اللباس .

وليس هذا حديثا جانبيا أو خاطفا ، وإنما تحفل اللامية بهذا الحديث عن معيشة الشنفرى فى كل صور حياته وتقلب وجوهها ، حتى نكاد نرى حياته ببؤسها وحرمانها ومعاناتها للقسوة الشديدة فى كل شىء ماثلة أمامنا لا خفاء فيها ولاغموض.

وماذا نريد أن نعلم عن معيشة شخص أكثر من أنه يأتى عليه البرد الشديد الذى يدفع صاحب القوس إلى تحطيمها ليستدفىء بها فلا يملك صاحبنا هذا ما يقى جسمه هذا البرد ، وليس له حينئذ ما يستر به جسده ليقيه لفح هذه الشمس ، ولهيب هذا الهجير ، وليس له إلا كما يقول (نصبت له وجهى ولا كِنَّ دونه ولا سِتْرَ .)

وأنه فى خلال هذا كله لا يملك طعاما ، وإنما تقوم حياته أساسا على الجوع الدائم المهلك الذى يتخلله شىء طارىء من الطعام فى بعض الأحيان ، أما فى أكثرها فيظل يديم (مطال الجوع) ويظل أيضا يطوى (على الخمص الحوايا) وأحسن حالاته وأسعدها أن يجد قوتا زهيداً كما يقول (وأغدو على القوت الزهيد) .

وأما نومه فليس أكثر من افتراش الأرض ، حتى ألفها ولم يعد يتطلع إلى فراش دونها (وآلَف وَجْهَ الأرض عِنْدَ افتراشها) ، وأما الوسادة فهى ذراع جاف صلب ليس فيه إلا العظم والمفاصل حيث يقول (وأعْدَلُ مَنْحُوضًا) ، ومن هذا يتضح لنا صورة واضحة حتى وهو نائم ، فتصوير اللامية يبرز لنا صورة جسد نحيل جاف بارز العظام يفترش الأرض ، ويتوسد ذراعه ، بصفة دائمة مألوفة .

ومن وسائل عيشه الضرورى الماء ، وفى اللامية نرى صعوبة حصوله على الماء حتى يضطر إلى تتبع القطا ومنافسته على الماء .

وفى كل الأحوال نجده عيشا قاسيا معدما محروما ، ولكن الذى يعنينا أن اللامية تصور لنا معيشة الشنفرى من كل جوانبها حتى كأننا نرى هذا العيش ماثلا واضحا .

وليست الجوانب التى تحدثنا عنها ، من مظهر الشنفرى أو خلقه أو نفسيته أو معيشته كل ما يوضحه منهج اللامية عن الشنفرى وحياته ، فالواقع أن اللامية التزمت كما قلنا منهج المذكرات الشخصية إلتزاما كاملا ، فلم تسق شيئا لا يرتبط بالشنفرى ، ولم تتحدث عن شىء لا علاقة له به ، بل كل ما تحدثت عنه إنما سيق لارتباطه بالشنفرى ، وليس فيها وصف أو معنى طرق لذاته كما يؤلف فى كثير من الشعر الذى يصف لذات الوصف ، أو يمدح لذات المدح أو نحو ذلك .

ولذلك كان من أهم المزايا التى تكاد تنفرد بها اللامية ولا يزاحمها فيها شعر آخر فى القديم أو الحديث أنها توضح لنا شخصية صاحبها فى شكله وفى جوهره ، وتوضح لنا حياته وأسلوب معيشته ، وفى كل ما يرتبط ارتباطاً مباشراً به ، بل إنها لا توضح ذلك فى فترة من فترات حياته أو طور من أطوارها فحسب ، وإنما توضح لنا حياته التى يعتبرها هو حياة حقيقية توضيحاً كاملا .

التصوير الأدبى

من المعروف أن تجسيد الشىء الماثل فى النفس أو الخيال هو التعبير الفنى فى أى ميدان من ميادين الفن : فالمعنى أو الخيال أو الصور الماثلة فى النفس يمكن ابرازها بالتعبير الفنى فى عدة أساليب ، منها الرسم ، حيث ينقل الرسام الخيال الماثل فى نفسه بريشته فيصبح رسما مجسداً محسوساً ، ومنها التجسيد كصناعة التماثيل ، حيث ينقل المثال أيضا خياله الماثل فى نفسه فيحوله إلى تمثال أو لوحة مجسدة بارزة ، ومنها التصوير الأدبى ، حيث ينقل الشاعر أو الأديب خياله الماثل فى نفسه فيحوله إلى صورة أدبية تعبر عنها كلمات معينة مقصودة .

فالمنزع فى هذه الصور الفنية وغيرها واحد ، ولكن الأساليب هى التى تختلف من أسلوب الرسم ، إلى أسلوب النحت ، إلى أسلوب الأدب ، إلى غير ذلك . وكما أن الرسام أو النحات كلما كان أدق فى إبراز الصورة المتخيلة وتجسيدها . كان أبرع فى مهنته ، وكانت براعته هـــذه دليلا على أصالة ملكته وذوقه الفنى فى مهنته ، فكذلك الأديب كلما كان أقدر على إبراز ما فى نفسه وتجسيده للسامع أو القارىء كان أدل على أصالة ملكته وذوقه الفنى والأدبى .

فأهم الفوارق بين الأسلوب الأدبى وغيره من الأساليب المقدرة على هذا التجسيد وقد يكون كل ما ينتظر من الأسلوب العلمى أو الإخبارى أو غيرهما هو نقل المعنى من مكان إلى مكان ، سواء كان من نفس المتحدث إلى لسانه أو قلمه ، أو كان من المتحدث إلى غيره من الناس ، أما الأسلوب الأدبى فأهم ما ينتظر منه ليس مجرد نقل المعنى ، وإنما نقله مجسدا ومحسوسا أو كأنه محسوس ، بحيث يتاح لنفس السامع أو القارىء وذوقه أن يتأملا هذه الصورة المجسدة ، وأن يحسا فيها ما يحسه المتأمل فى لوحة من الرسم ، أو لوحة من النحت من متعة فنية من جهة ، ومن تتبع مقدرة صاحب هذه الصورة على رسمها وتجسيدها .

وهـذا المعنى بالنسبة للأدب لم يكن موضوع نزاع ســـواء فى القـديم والحديث ، أعنى سواء لدى علماء النقد الأدبى القديم أو لدى علماء البلاغة الذين

حاولوا أن يصوغوا قواعـــد النقد الأدبى فى مسائل وقواعد سموها علم البلاغة ، أو لدى علماء النقد الأدبى الحديث ، فكلهم يتفق على أن أهم المقاييس التى يفاضل بها بين الأدباء هو المقدرة على التصوير والتجسيد ، هذا رغم اختلافهم فى التعبير عن هذا المعنى ، وقد كان تعبير علماء البلاغة مثلا أن الاستعارة هى أرق أساليب البلاغة ، وأن أضعفها هو التعبير بالمعنى المجرد ، والاستعارة ليست إلا تصوير المعنى وتجسيده .

وحين ننظر إلى لامية الشنفرى نجد أنها قد بلغت القمة من المقدرة على التصوير والتجسيد ، وقد يكفى للقصيدة أو الموضوع الأدبى أن يشتمل على بعض الصور الأدبية ولو كانت متفرقة أو متباعدة فيعد هـــذا من الأدب الجيد الذى يلفت الأنظار .

ولكن اللامية لم تكن كذلك فحسب ، وإنما كان منهجها التصوير الدائم لكل ما تعرض له من معنى تقريبا ، وبينما نحاول فى غيرها من القصائد أن نتلمس مواضع التصوير الأدبى ، وهذه حقيقة لا تلتوى على أى متذوق للأدب ، فضلا عن الدارس والباحث .

ويمكن أن نقسم الصور الأدبية فى اللامية إلى قسمين ، قسم مألوف وهو الصور المركبة وقسم غير مألوف وهو الصور المفردة . ونستطيع أن نلم بالقسمين فى إيجاز كما يلى :

الصور المركبة :

ونعنى به الصور الأدبية المركبة التكوين ، وهى التى توجد لها مواد تكونها ، وعناصر يمكن التأليف بينها فتتكون منها الصورة ، وهذا النوع من المألوف أن يتنافس الأدباء والشعراء فى مثله ، مهما تفاوتت مقدرتهم وإجادتهم فى تكوين هذه الصور بخلاف الصور التى تتكون من شىء مفرد ، أو من معنى واحد ، فهذه يصعب تكوين صورة أدبية منها كما سيأتى :

أما هذا النوع المركب أو المتعدد العناصر والمناظر ، فن السهل على ذى الملكة

الأدبية أن يكون منه الصورة الأدبية ، وحينئذ يكون هذا موضع تنافس بين الأدباء على تفاوت فى مقدرتهم ، كما يتفاوت الرسامون والنحاتون فى شىء متاح لهم أن يتباروا فيه .

والصور الأدبية المركبة عديدة فى اللامية . ومنها على سبيل المثال .

(أ) صورة الذئب الجائع الباحث عن طعامه ، وحوله عدد من الذئاب فى مثل حاله وبحثه عن الطعام . وهى لوحة فى غاية الإبداع الفنى ، لا تسوق معانى مجردة أو نحو ذلك ، وإنما تجسم كل ما اشتملت عليه حتى من التفاصيل العادية فى المعانى ، حتى تجعلنا كأننا نرى هذا المنظر بكل محتوياته وتفاصيله وأجزائه ماثلا مجسما أمامنا ، حيث نرى ذئباً وصف لنا الشنفرى شكله وحجمه ولونه حتى كأنه واقف أمامنا ، ثم وصف البيئة التى خرج يبحث فيها عن الطعام بما فيها من (تنائف وشعاب) كأننا واقفون فى هذه البيئة نرى شعابها بين الجبال ، ووديانها المقفرة الشاسعة ، وقممها المرتفعة المتعددة ، بل نشاهد فى هذه اللوحة حتى المناخ فنجد الريح العاتية التى تعارض الذئب وهو يصارعها متجها إلى هدفه الذى يبحث عنه ، ثم نرى فى اللوحة الذئاب التى دعاها هذا الذئب حين اشتد عليه الجوع وأحس باليأس من الحصول على الطعام ، فنرى هذه الذئاب وكأنها ماثلة أمامنا ، فهى (نحل الأجسام ، وهى (شيب الوجوه) لما يغلب على وجوهها ورءوسها من بياض الشعر ، ونرى أشداقها الواسعة كأنها (شقوق العصى) ، بل نرى ما تعانيه فى أعماقها من بؤس وجوع ويأس منعكساً على وجوهها ، فهى (كالحات وبُسّل) حيث كسا الحزن واليأس وجوهها كلوحاً وكآبة ، ونرى من أبدع ما حوته هذه الصورة منظر التواسى والتعاطف الجماعى بين الذئاب حين وحّدَ بينها الألم والجوع واليأس ، فأقن ما يشبه مأتماً حقيقياً تصدر فيه أصوات الحزن والألم كما تصدر أصوات الثكل من النساء .

وهكذا فى كثير من التفاصيل الواضحة التى اشتملت عليها هذه الصورة فى مختلف جوانبها بحيث لم تترك شيئا غامضا لا يتمثله السامع أو القارىء فى خياله ، ولو أراد رسام ماهر أن يرسم مثل هذه اللوحة فلن يحتاج إلى إعمال خياله ، ولن يحتاج إلى إضافة من عنده ، وإنما حسبه أن ينقل لنا هذه الصورة نقلا حرفياً بأشخاصها

ومناظر أرضها ومناخها وتفاصيلها لتكون لوحة من أبدع ما تنتجه المواهب ، وليس كل رسام يستطيع أن ينقل مثل هذه اللوحة الفنية كما هى ، بل تحتاج إلى رسام تكافىء أو تقارب موهبته فى الرسم اليدوى موهبة الشنفرى فى الرسم الأدبى ليستطيع أن ينقل هذه اللمحات البالغة الدقة كالانفعالات النفسية التى ترتسم على وجوه الذئاب . وقد استغرقت هذه اللوحة الفنية عشرة أبيات كاملة من اللامية .

(ب) ومن هذه الصور المركبة من عدة مناظر وتفاصيل ، صورة سرب القطا فى طلبه للماء ومسابقة الشنفرى إياه ، وهـذا التسابق جزء أساسى فى الصورة التى حفلت بالتفاصيل . فهو أولا يصف القطا فى شكلها من حيث شدة تأثير العطش فيها ، فنرى أحناءها وهى الجوانب والأحشاء ضامرة يبلغ بها العطش أن تصدر منها أصوات تدل على ذلك ، ثم المنظر البالغ الجمال فى الصورة منظر الشنفرى على الأرض يسابق القطا فى السماء ، والشنفرى يزداد فى عدوه حماساً وقوة وسرعة بينما يبلغ الإعياء من القطا أن يرخى أجنحته ليهم بالنزول إلتماساً للراحة والتقاط الأنفاس ، ثم منظر القطا حين وصل إلى الماء مجهداً مرهقا يتطاول برأسه وحواصله إلى حواجز الحوض ، وهو فى تزاحمه على الحوض كأنه قافلة تتزاحم على ماء عثرت عليه فجأة بعد أن أعياها الحصول على ماء ، ثم منظر شربها من الماء عباً سريعا لتتفرق مسرعة فى تفرقها وكأنها قطيع من البقر فاجأه وحش مفترس ، وتفاصيل أخرى فى الصورة أيضا ، وكل ذلك تتكون منه صورة مجسمة فى خيال السامع ، وكأنه لا يسمع شعراً وكلاما ، وإنما ينظر إلى صورة ماثلة أمامه مصوغه فى ستة أبيات .

(ج) ومن هذه الصور المركبة أيضا ، صورة غارة من غارات الشنفرى فى ليلة شديدة البرد ، وفى هذه الصورة كعادة الشنفرى فى تصويره الشعرى نرى كل شىء فى الصورة مجسما واضحا . وأول ما يلفت النظر فى الصورة الشنفرى نفسه . حيث يصف لنا حاله ونفسيته حينئذ ، فنراه جائعا خائفا مرتعشا ، ونجد المناخ من حوله برداً بالغ الشدة والقسوة ، ونرى آثار مطر بلل الأرض حتى صارت وحلا ، والليل ظلام شديد ، والشنفرى مع ذلك ماض فى طريقه . متجه إلى هدفه وهو الغارة ، لا يثنيه ولا يخفف من عزمه شىء من هذه الظروف القاسية المصاحبة له ، والمحيطة به .

والمنظر الثانى من الصورة ، منظر الذين أغار عليهم الشنفرى حين أصبحوا وقد تجمعوا يتبادلون الرأى فى هذه الغارة ، ويواسى بعضهم بعضاً فيما أصابهم من آثارها ، ويهمهم قبل كل شىء أن يعرفوا مصدر هـــذه الغارة ليتقوا شر هذا المصدر ، أو يحددوا موقفهم منه فيما يستقبلون ، وقد صور الشنفرى ما تخيله من هذا المنظر الذى لم يره بطبيعة الأمر ، فاذا هم جماعة يتحاورون فى حدة ، يحاول بعضهم أن يفترض أكثر من احتمال لتحديد شخص المغير ، أهو ذئب أم هو ضبع ؟ وإذا لم يكن هذا أو ذاك ، أفلا يكون جنا من الأشباح والشياطين التى تحفل بها أساطير الصحراء ؟

وإذا لم يكن جنا ولا شيئاً مما سبق ، فكيف يكون إنسياً وليس فى مقدور الإنس ولا فى مقدور الجنى العادى أن يفعل ذلك ؟ ويحاول فريق آخر أن يرد على هذا الفريق فروضه واحتمالاته بشىء من التحاور السابق أو نحوه ، ولكنهم جميعاً — وهذا ما يريد الشنفرى إثباته — يتفقون على أنها ليست ككل الغارات فى أسلوبها وطريقة حدوثها . ولكن الشنفرى قد استطاع أن يجعلنا كأننا نرى هـذه الغارة ، ثم نرى هؤلاء القوم ونجالسهم ونستمع إلى حوارهم .

٢ — الصور المفردة :

وأما الصورة المفردة فنعنى بها المعانى المجردة التى تكون عادة معنى واحداً ، غير مركب من عناصر أو أجزاء أو أحداث ، وهذا النوع يصعب تصويره وتجسيمه ولذلك كان من غير المألوف أن يكون مجالا للتصوير والتجسيم ، وهو لهذا الاعتبار من أدق المقاييس لقدرة الأديب على التصوير الأدبى ، فان الصور الأدبية المركبة التى أشرنا إلى أمثلتها آنفا فيها من السعة والتنويع ما يتيح للأديب الموهوب والعادى معاً أن يجدا فيها ما يعينهما على تركيب صورة أدبية ، أما المعنى المفرد فلا يتاح خلق الصورة الأدبية منه إلا لذى الموهبة والمقدرة الواضحتين .

ولكن الشنفرى أستطاع أن يجعل اللامية تحفل بهذه الصور المفردة ، وكأنه لا يريد أن يسوق لنا معنى مجرداً ، وإنما يصر على أن يلبسه ثوباً أدبياً ، وأن يبرزه فى صورة فنية ، ومعنى هذا أنه واثق وقادر ، وأنه مهيأ لتحقيق ذلك . فقد

بدأ بهذا التصـــوير منذ أول كلمة فى اللامية ، حيث أراد أن يقول للمخاطبين : استعدوا للرحيل ، ولـكنه يأبى أن يسوق لنا هـذا المعنى المجرد ، ويصر على أن يصوغه فى صورة مجسمة فيقول (أقيموا . . صدور مطيكم) فنرى أمامنا صورة إبل برزت صدورها وانتصبت أعناقها حين هيأها أصحابها للرحيل . ثم فى البيت التالى له أراد أن يبين السبب فى الاستعداد للرحيل ، وهو أنه أمر دبر بروية وهدوء فى الليل ، ولـكنه يرفض أيضاً أن يسوقه لنا فى هذا التجريد من المادة والتجسيم ، ويصر على أن يكون صورة محددة فيقول (فقد حُمّت الحاجات والليل مقمر) ومعنى حمت قدرت ودبرت . وهكذا يمضى الشنفرى على هذه الوتيرة ، فى تجسيد المعانى وإلباسها ثوباً أو صورة أدبية تجسمها فى خيال السامع ووجدانه ، ويندر أن نجد فى اللامية كلها على طولها معنى مجرداً يخلو كل الخلو من هذا التصوير والتسجيد ، وحتى المعانى أو الصفات الواضحة التى يألف الناس فهمها بمجرد وصفها أو ذكرها يأبى هو إلا أن يجسدها فى صورة مرئية فى الخيال ، كوصفه لشخص جبان ، فقد يكفى السامع هذا الوصف مع تعزيزه بوصف آخر يبين درجة هذا الجبن ليفهم السامع ما يريد الشاعر ، ولـكن الشنفرى يجعلك كأنك ترى قلب هـــذا الجبان وهو فى رعبه واضطرابه كأنه معلق فى طائر يعلو به ويسفل ، حيث يقول (كأن فؤاده يظل به المكاء يعلو ويسفل) والمكاء طائر . وكذلك سرعة العدو معنى واضح يمكن أن يفهمه السامع ، ويفهم درجة العداء فيه بمجرد وصف آخر يعزز المعنى ويحدده ، ولـكن الشنفرى بالإضافة إلى قصده تحديد درجة معينة لسرعته ، فانه يحتفظ دائماً بطابعه فى التصوير والتجسيد ، بحيث يلبس كل المعانى ثوبه الأدبى الذى يميزه ، فلا يكتفى بذكر سرعته فى العدو ، ولا يوصف هذه السرعة بأى معنى مجرد مهما بلغ من القوة أو المبالغة ، فقد كان يمكن مثلا أن يقول إن سرعته لا مثيل لها ، أو أنه يتحدى بها كل ذى رجل أو حتى جناح ، أو غير ذلك من الحقائق أو المبالغات ، ولـكنه يلتزم منهجه فى التصوير . لكل شىء ، فيصور لنا أنه حين يعدو فكأنه يطير فى الهواء ولا يمس الأرض ، فاذا مست رجلاه الأرض تطايرت الحجارة وقد حطم بعضها بعضا وتطاير من حطامها ومن اصطدامها شرر النار ، حيث يقول :

إذا الأمعزُ الصَّوانُ لاقى مَناسِمي
تطايَرَ منهُ قادحٌ ومُفَلَّلُ

والأمعز المكان الصلب ، ويعنى بالمناسم رجليه ، والقادح ما يقدح النار ، والمفلل المتكسر ، والذى يدعونا إلى تصوره كأنه يطير فى الهواء قوله (إذا الأمعز لاقى منا سمى) فكأن الأصل أن الأرض لا تلاق قدميه ، فاذا لا قتهما حدث هذا المنظر الهائل المروع بما تصنعه الحجارة حول رجليه ، وهكذا يخلق الشنفرى من مثل هذا المعنى المجرد المألوف صورة أدبية بالغة الطرافة والإثارة .

وهناك جانب من مقدرة الشنفرى على تصوير المعانى المفردة المجردة يبلغ به قة التفوق فى هذا الميدان ، بل يوشك أن يكون قة التفرد فيه ، وهو تصوير الغرائز والانفعالات المألوفة ، كالجوع والعطش والحزن والكآبة ونحو ذلك ، وتصوير العوامل الجوية المألوفة والدائمة فى حياة الناس كالحر والبرد ونحوهما . فمثل هذه المعانى والعوامل من شدة وضوحها وإلف الناس لها ، نجد الأدباء لا يتجهون إلى وصفها مباشرة ، وإنما يصفون آثارها ، وعادة آثارها غير المباشرة ، كالجوع فانهم لا يتجهون إلى وصفه هو ، وإنما إلى وصف هزال الجسم بسببه مثلا ، وهو أثر من آثار الجوع غير المباشرة ، فان هزال الجسم بمعنى نحوله لا يتحقق بمجرد وجود الجوع ، ولا حتى بمجرد تكرره مرات معدودة ، وإنما يكون ذلك بعد أمد غير قصير من تكرر الجوع واستمراره ، وكالهموم فقد تحدث عنها الشعراء والأدباء كثيراً ، ولكنهم لشدة إلفها ووضوحها لا يتحدثون عنها لذاتها ، وإنما يوصف آثارها كالسهد والمرض وتقرح الجفون وغير ذلك .

أما الشنفرى فيبلغ من مقــدرته على التصوير الأدبى أنه مع وصفه لآثار هذه المعانى والعوامل ، فإنه يركز دائما على وصف المعنى أو العامل نفسه ، أو على الأقل وصف الأثر المباشر والملاصق له ، وكأنه يصف المعنى نفسه حينئذ .

فنراه يتعامل مع الجوع مباشرة ، وكأن الجوع شخص مادى يصارعه ويخاصمه وأول صور خصامه للجوع المماطلة ، حيث يصور الشنفرى هذا الجوع وكأنه شخص

يقتضى منه دينا أو حقاً ، والشنفرى يماطل ويراوغ ، حتى ييأس الجوع من المطالبة والاقتضاء كما يمل الدائن حين يجد أن ما يوفره من جهد المطالبة خير من الدين نفسه فينصرف تاركا دينه ، وكذلك يفعل الشنفرى ويزيد على ذلك أنه لا يمل المماطلة ، وأنه لا يكتفى بمجرد انصراف الجوع ، وإنما يصمم على قتل الجوع ومحوه من حياته فيقول (أديم مطال الجوع حتى أميته) ولفظا (أديم وأميته) يوحيان بالملاحظة السابقة ، وأما الأثر القريب أو المباشر للجوع فيصفه الشنفرى مصوراً لنا أمعاءه وقد اكتفى عن كل ما يتحدث به عن الجوع وعن آثاره بأن صور لنا أمعاءه وقد أصبحت من خلوها ومن جفافها كأنها حبل واحد يتكون من عدة خيوط التف على بعض فى أقصى ما يستطاع من قوة الشد والفتل . حيث يقول :

وأَطْوِى على الخَمْصِ الحوايا كما انطوت
خُيُوطَةُ مَارِىٍّ تُغَارُ وَتُفْتَلُ

والخمص بالفتح الجوع ، والحوايا الأمعاء ، والخيوطة الخيوط التى تفتل ، وتغار تحكم فى الفتل .

وكذلك الهموم لا يتحدث الشنفرى عن آثارها كعادة الأدباء من وصف السهد وذبول الأجسام وطول الليل ونحو ذلك . وإنما يتعامل مع الهموم بذاتها وأشخاصها وكأنها أشخاص مادية مألوفة ، فيصور صراعاً رهيباً بينه وبين الهموم ، نرى فيه الهموم ملقية بكل ثقلها وإلحاحها وتشبثها به ، ونرى فيه الشنفرى يكافح كفاحاً رهيبا فى مجالين ، أحدهما صرف الهموم وإبعادها ، والآخر انتظار عودتها وتهيء نفسه لهذه المواعيد التى أصبحت ثابتة فى زيارة الهموم له فيقول :

وَإِلْفُ هُمُومٍ ما تَزَالُ تَعُودُهُ
عِيادًا كَحُمَّى الرِّبْعِ أَوْهِىَ أَثْقَلُ

إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتها ثم إنها
تَثُوبُ فتأتى من تُحيتٍ ومن عَلُ

وما أجمل هذا الجانب من التصوير فى قوله (فتأتى من تحيث ومن عل) فبالإضافة إلى ما يفيده تصغير (تحيت) من قرب الهموم والتصاقها به ، وما يفيده إطلاق لفظ (عل) من أنها تملأ الفضاء الذى يعلوه إلى غير حدود فى العلو ، وبالإضافة إلى ما يفيده التعبير كله من أن الهموم حاصرته وأطبقت عليه من كل وجه ، بالإضافة إلى ذلك نجد إشارة دقيقة يوحيها التعبير ، وهى أن الهموم لم تأت من جهة واحدة ثم انتشرت من حوله ، وإنما جاءت من كل الجهات التى تعلوه أو تسفله .

ومن هذه المعانى المفردة المجردة ، حرص أعداء الشنفرى على التمكن منه للانتقام مما جناه عليهم ، فالمعنى الأصلى لا يتجاوز نحواً من هذا التعبير ، ولكن شاعرية الشنفرى تأبى إلا التصوير والإبداع ، فإذا هو يتناسى أعداءه وكأنهم لا يعنونه أو كأنه لا يخشاهم ، ويتحدث عن جناياته التى جناها هو ، لجناياته وحدها هى مصدر خوفه وقلقه ، ثم يأخذ الشنفرى فى تصوير هذه الجنايات وفى مطاردتها له ، وأنها من شدة حرصها على بلوغه وعلى النيل منه اختصمت أيها يكون أسبق إليه وأولى به ، وحين اشتد الخصام بينها اتفقت على أن تقترع على لحمه وأن تلقى كل جناية سهمها . والسهم الفائز تكون صاحبته أولى بعقيرة الشنفرى وجثته (تياسرن لحمه) . وكأن الجنايات لشدة استعجالها وحرصها على هلاكه اختصمت مرة أخرى ، وانتهت خصومتها إلى أن تتسابق إلى الشنفرى ، فأيها وصل أولا فالشنفرى لها (لأيها حم أول) ، ولم يستطع شىء من ذلك أن يهدىء من الجنايات أو يخفف من عجلتها ولهفتها على التمكن من الشنفرى ، وكأنها آلت على نفسها ألا تغفل أو تنام حتى تناله ، بل العجيب أنه وهو الخائف المطلوب والمطارد ينام ، وتستطيع عينه أن تغفل ، أما الجنايات فحتى إذا نامت فإن عينها تظل يقظى باحثة عنه متطلعة إليه ، (تنام إذا ما نام يقظى عيونها) . هذه الصورة الماثلة فى خيال الشنفرى يبرزها لنا فى هذا التعبير .

طريد جنايات تَيَاسَرْنَ لحمه
عَقِيرَتُه لِأَيِّها حُمَّ أَوَّلُ (١)

(١) تياسرن اقتسمن بالاقتراع . عقيرته لحمه . وحم بالبناء للمجهول نزل .

تنام إذا ما نام يقظى عيونها
حثاثاً إلى مكروهه تتغلغلُ

ومن حيث الموضوع قد نتساءل : فما موقف الشنفرى من هذه المطاردات التى تتعقبه فى غل ونهم إلى النيل منه ؟ ويجيبنا الشنفرى ضمناً بأن ذلك كله لا يفزعه ولا يقلقه ، ولا يحول بينه وبين النوم ، ولذلك لم يحدثنا فى هذه الصورة عن خوف من جانبه ، وإنما حدثنا أنه مع ذلك كله ينام ، وكأنه مطمئن هادىء النفس ، لا يخيفه ولا يزعجه شىء قط .

ومن الأشياء التى يصعب على غير الشنفرى أن يتخذ منها مباشرة موضوعاً للتصوير الأدبى ، الحر ، فقد يتحدث كثير من الناس عن الحر فيصفونه بالمعانى المجردة كوصفه بالشدة ، أو المبالغة التى تخرجه عن الواقع كوصفه بالالتهاب ،أو يصفون آثاره على الأرض وعلى الأشياء أو نحو ذلك . ولكن الشنفرى مع وصفه لآثار الحر ، يعمد إلى الحر نفسه فيما يمكن لإنسان أن يحسه منه فيرسم لنا منه صورة أدبية تكاد تتحاشى المعانى المجردة تحاشياً كاملا ، فلا يصف الحر بأنه شديد أو قاس أو نحو ذلك وإنما يجعلنا كأننا نخترق هذا الحر الذى بلغ من عنفه مع عوامل جوية أخرى أن ملأ الفضاء بهذا اللواب الذى يشبه خيوط العنكبوت الدقيقة ، وكأن وجوهنا تصطدم بهذا اللعاب الذى يسيل من الحر ، وكأن الحر قسا على نفسه أو قسا عليه شىء آخر يكاد يخنقه حتى يسيل منه هذا اللعاب المعين ، هذا عن الحر نفسه ، أما عن آثاره فيكفى أن نرى الأفاعى التى لا تتحرك ولا تنشط إلا فى الصيف والحر ، بينما يشل البرد حركتها ويحبسها طوال الشتاء ، نرى الأفاعى تضيق بهذا اليوم المفرط فى حره بالذات . ويكتمل جمال الصورة حينما نرى الشنفرى فى هذا الحر مقاوماً له مستهيناً به ، يزاول فيه شئونه العادية ، وليس بين وجهه وهذا الحر حجاب أو كن ، وليس دون جسمه ساتر إلا ثوبه الممزق ، يقول الشنفرى عن ذلك :

ويومٍ من الشِّعرى يَذُوب لُوابُه
أفاعيه فى رَمْضائه تتململُ[1]

---

(١) الشعرى يعنى بها كوكبا يطلع فى الصيف واللواب اللعاب .

نَصَبْتُ له وجهى ولا كِنَّ دونه
ولا سِتْر إلا الأتحمىُّ المُرعْبَلُ(١)

ولكن تعبيراً معيناً يلفت النظر فى هذه الصورة ، وهو (نصبت له وجهى) حيث يوحى بأن هذ الحر الذى يفترض فيه أن يضعف حركة كل شىء ويشل حيويته ونشاطه ، فإن الشنفرى لا يؤثر فيه شى من ذلك ، وإنما يظل شامخاً مرتفع الهامة (منتصب الوجه) دليل على أن هذا الحر لم يكن له لديه تأثير ، ومما يثير العجب أن الصورة كلها مع ذلك تعبير حقيقى صادق ، لا مبالغة فيه ولا تكلف . وكذلك تعبير الشنفرى عن إلف الوحوش له ، وأنها أصبحت تأنس به ولا تنفر منه ، فثل هذا التعبير يمكن أن يؤدى المعنى ، ويمكن أن يصاغ أيضاً فى نوع آخر من الأسلوب الأدبى ، ولكننا نجد الشنفرى يتحاشى التعبير بالمعنى المجرد وما يؤديه من الألفاظ ، عامداً إلى التشخيص والتجسيد ، فيصور إناث الوعول وقد انبثت من من حوله مطمئنة إليه آنسة به ، ويبدو من خلال الصورة شىء قد يكون حرمانا جنسياً يعانيه من يعيش فى مثل ظروفه ، وليس فى واقعه ما يشبع هذا الحرمان ، فلا بأس من أن يحاول إشباعه من خلال نفسيته وخياله ، ولذلك نراه يختار فى وصفه من الوعول الأناث مطيفات به آنسات إليه ، بل يوغل فى متابعة الإصرار على اختيار جانب الإناث وإبرازه فى الصورة ، فإذا هن عذارى أو يشبهن العذارى من الآدميات ، وليس ذلك فحسب ، بل عليهن ثياب ذات ذيول كأنهن ثياب العرائس ، أو المسرفات فى التزين , ويتابع المعنى نفسه فاذا هو فى الصورة الذكر الوحيد بين هؤلاء الإناث العذارى ، وليس ذكراً مثل كل الذكور ، إنه فحل بالغ القوة والمنعة ، وفى متابعة للمعنى أيضاً يؤثر للمرة الأولى والوحيدة فى القصيدة أن ينسلخ من رجولته الآدمية ، ليتقمص شخص ذكر من فصيلة الوعول ، وليكون ذكراً حقيقياً يناسب هذه الإناث من الوعول ، فاذا هو فى الصورة وعل رهيب ، له كل مظاهر القوة والمنعة ، فيقول عن هذه الصورة :

---

(٢) الكن بكسر الكاف الستر والأتحمى نوع من الثياب والمرعبل الممزق .

تَرُودُ الأَرَاوِى الصُّحْمُ حَولى كأنها
عَذَارى عليهن المُلاءُ المذَيَّلُ (١)

ويَرْكُدن بالآصال حولى كأننى
من العُصْم أَدْفى ينتحى الكِيحَ أَعْقَلُ (٢)

وهكذا نرى الصورة تكاد تخلو من المعانى المجردة ، لتصبح لوحة فنية كاملة ما أبدعها لو استطاع رسام ماهر أن يسجلها كما هى بريشته لتكون مصدر كل الإمتاع والإعجاب ، لكل ذى ذوق فنى .

وهذا التصوير الجزئى ، أو تصوير المعانى المفردة يمكن أن نلتمسه أيضاً داخل الصور الكبرى فى اللامية ، فالصور المركبة التى أشرنا إلى أهمها فى النوع الأول من التصوير تحوى كل منها عدداً من المناظر المفردة أو الجزئية ، يصلح كل منها أن يكون لوحة جزئية كهذا النوع الذى نتحدث عنه، فهذه الصور المركبة إنما تتركب فى صور اللامية من صور ولوحات صغيرة ، لو انفصلت هذه اللوحات الصغيرة لأصبح كثير منها صورة مستقلة ذات إبداع وجمال فنى واضحين .

الصدق الأدبى

ويراد بالصدق الأدبى أو الفنى أن يكون الأديب صادقا فيما يقول ، ومن مظاهر الصدق الأدبى ومقاييسه أيضاً أن يشعر الأديب فيما بينه وبين نفسه بأنه صادق فيما يقول ، وليس المراد بالصدق فى الأدب التزام الحقيقة بحرفيتها وحجمها ، وإنما يراد التزام أصل الحقيقة ، ثم يتجاوز للأديب بعد ذلك أن يتصرف فى حجم الحقيقة

---

(١) ترود تذهب وتجىء . والأراوى إناث الوعول واحدتها أروية والصحم التى لونها بين السواد والصفرة والملاء نوع من ملابس النساء والمذيل ما له ذيل .

(٢) يركدن يثبتن الآصال أواخر النهار . والأدفى ذكر الوعل الذى طال قرنه وينتحى يختار ويقصد والكيح جانب الجبل ، والأعقل الممتنع .

أو مظهرها ، ومثال ذلك أن يمدح شاعر شخصا بالجود أو الشجاعة ، فكل ما نطلب من الشاعر حينئذ أن يكون هذا الوصف حقيقة يسلم له الناس بها ، فيسلمون بأن هذا الممدوح جواد أو شجاع ، فإن كان معروفا بالبخل أو الجبن هنا يكون الشاعر كاذبا ولا يتقبل منه قوله ، أما حين يسلمون له بأصل الحقيقة وهى أن ممدوحه هذا شجاع أو جواد حقاً ، فإن له بعد ذلك أن يكسو هذه الحقيقة ثوباً من عنده وهو قالبه الأدبى ، ويمكن لهذا الثوب أن يزيد فى حسن الحقيقة إن كانت حسنة وفى قبحها إن كانت قبحاً ، كما فى حالتى المدح والهجاء ، حيث يباح للأديب حينئذ أن يبالغ فى الحقيقة تحسيناً أو تقبيحاً ، ولن يضيره أن تزيد هذه المبالغة أو تنقص من شكل الحقيقة أو حجمها ، بل المفروض أن يكون للأديب ثوب أدبى يلبسه الحقيقة ، فيعطيها الحجم والشكل اللذين يريدهما الأديب ، أما إيراد الحقيقة بحرفيتها وبحجمها كما هى فليس ذلك منهج الأدب ، وإنما هو أسلوب العلم ، والفرق كبير بل مختلف بين الأسلوبين ، فكلما كان للأديب ثوب أدبى يميز أدبه وهو ما نسميه الصياغة والأسلوب كان أثبت قدماً وأعمق أصالة فى الأدب ، ومن أهم عوامل هذا التميز هو التأثير فى حجم الحقيقة أو شكلها بما يسمى فى أغلب أحواله المبالغة ، ومن هذا القبيل أصدر النقاد القدامى حكمهم فى قولهم « أعذب الشعر أكذبه » فهم لا يريدون إذن من الكذب مخالفة أصل الحقيقة ، وإنما يريدون إلباس الحقيقة ثوباً من الأدب والخيال قد يزيد أو ينقص فى حجمها ، وقد يزيد فى حسنها أو قبحها حسب الحال والسياق ، ولكنه فى كل الأحوال لابد أن يحدث فى أصل الحقيقة تغييرا أى تغيير ، وفى هذا التغيير يكون التنافس بين الشعراء والأدباء ، وهذا التغيير هو الذى وصفه النقاد القدامى بأنه الكذب المستعذب فى الشعر .

وليس هذا الحديث استطرادا ، وإنما هو أساس لمحاولة تحديد مفهوم الصدق الأدبى حتى نعرض عليه اللامية لنرى حظها من هذا الصدق الفنى الذى لا يعفى أديب من المؤاخذة به والمحاسبة عليه ، فمن المتفق عليه سواء فى النقد القديم أو الحديث أن من أهم مقاييس النقد التجربة والصدق ، بمعنى أن يكون الموضوع الأدبى نابعا من حياة الأديب أو تجاربه الشخصية والعامة ، أو على الأقل أن يكون الأديب قادرا على تمثله فى نفسه تمثلا واضحا قوياً إذا كان الموضوع فى محيط الخيال ، أو ليس متصلا

بحياة الأديب اتصالا مباشرا . وليس هذا موضــوع التفصيل والإفاضة فى هذا الحديث ، وإنما يعنينا منه قدر ضرورى متفق عليه ولو من حيث الأصل بين جميع النقاد ، وهو أنه لابد أن تتحقق فى اللامية أو غيرها من أى شعر أو أدب التجربة والصــدق . والنقطة المحددة التى نريد أن نصل إليها هى أنه لابد أن نتساءل بعد اطلاعنا على اللامية ومضمونها ، أى الرجلين يمكن أن تتحقق بالنسبة له التجربة والصدق ، الشنفرى الصعلوك ، أم خلف الأحمر العالم الوادع المطمئن فى ربوع المدينة وأحضان الحضارة ؟ وهل يمكن لخلف الأحمر أو غيره مهما يكن إلا إذا كان صعلوكا أن يصف ما وصفته اللامية من حياة الصعاليك عامة ، وحياة صاحبها خاصة ؟

وما أحسب الإجابة بعيدة أو ملتوية ، فإن شعر الصعاليك عامة ينبىء عن نفسه وعن قائله ، وخاصة اللامية ، والنقاد والقدامى يعرفون ذلك ،كما فعلوا فى أربعة أبيات أدخلت فى قصيدة لامرىء القيس منها :

وقربة أقوام جعلت عصامها

على كاهل منى ذلول مُرَحَّل

حيث قالوا إنه أشبه بكلام الصعلوك لا كلام طالبى الملك ، وقد تبينوا حقاً أنها من شعر تأبط شراً الصعلوك ، وليست من شعر امرىء القيس .

واللامية على وجه الخصوص بما رأينا فيها من أدق وأعمق ما فى حياة الصعاليك لا يمكن أن تكون لغير صعلوك ، وهذا المستوى الرفيع المتميز الذى تمثله سواء من حيث النسج الأدبى ، أو التصوير الواقعى ينبىء أن صاحبها يتميز فى شخصيته ومواهبه ومقدرته ، وإذن فهو الشنفرى .

وحين نقول إن الشنفرى هو صاحب اللامية فلن نحتاج إلى تدليل على تحقق التجربة والصدق بالنسبة لصاحبها ، لأنها ستكون هى الصدى الواقعى لواقع حياته .

ولكن ما هو أبعد من ذلك فى تحقق الصدق الأدبى فى اللامية أن كثيراً من الصور الأدبية فى اللامية تبدو للقارىء مبالغة ، وأحيانا شــديدة الإغراق

فى المبالغة ، كقوله إنه حين يعدو تتكسر الحجارة الصلدة من حول قدميه ويتطاير منها الشرر(١) ، وهذه الغرابة إنما تنبع من كون هذه الصورة مخالفة للواقع والمألوف ، وهذا حق ولكن هذه الغرابة تذهب حينما نعلم أن سرعة الشنفرى فى العَدْو كانت خارقة للعادة ، فليس غريباً أن تكون آثارها خارقة للعادة أيضاً ، وتكون الصورة الأدبية حينئذ ليست نوعا من المبالغة ، وإنما هى مجرد تصوير فنى مطابق للواقع ، ويكون الجمال إذن ليس فى أن الصورة تحمل مبالغة ، وإنما فى كونها دقيقة التصوير للواقع ، وآية ذلك أن الروايات تتفق على أن الشنفرى كان أسرع من الخيل ، والقرآن الكريم يصف الخيل المسرعة فى عدوها بأنها تجعل الحجارة تقدح شرراً من حول أرجلها ، وذلك فى قوله تعالى من سورة العاديات : ﴿فالموريات قدحا﴾(٢) والمراد بالعاديات : الخيل التى تعدو . وإذا كانت الخيل فى عدوها تورى النار من حول أرجلها ، فأولى أن يوريها من هو أسرع منها باتفاق الروايات وهو الشنفرى . وإذن فليس فى هذه الصورة من اللامية شىء من تكلف أو مبالغة ، وإنما هى مجرد صياغة أدبية لصورة من صميم الواقع فى حياة صاحبها .

ومع ذلك فليس هذا المعنى إلا مثالا لغيره من معانى اللامية ، فلو ذهبنا نستقصى كل ما فى اللامية من معان وصور ، لوجدناها كذلك ، تبدو فى ظاهرها والذين لا يعرفون جوهر حياة الصعاليك غريبة أو موغلة فى المبالغة ، ولكننا حين نتمثل حياة الصعاليك على حقيقتها نجد أنها ليست إلا تصويراً واقعيا لهذه الحياة ، وأن نصيب اللامية فى جملتها من المبالغة قد يكون أقل الأنصبة على الإطلاق إذا قيست بغيرها من القصائد .

ومن الغريب أن هذا الحكم لا يشذ عنه معنى فى اللامية ، وهو أن المعانى والصور تبدو فى ظاهرها بعيدة عن الواقع ، أو أنها شديدة المبالغة ، فإذا أحسنا تذكر حياة الصعاليك وجدنا أنها ليست إلا تصويراً عادياً لواقع حياتهم ، ومصدر هذه الغرابة أو ما يبدو كأنه تناقض ، أن حياة الصعاليك نفسها غريبة وبعيدة

---

(١) فى قوله (إذا الأمعز الصوان ... الخ .

(٢) أورى النار أشعلها والقدح منه قدح الحجارة لإخراج شرر النار منها .

عن الواقع المألوف من حيث مخالفتها له ، وإذا كانت الحياة نفسها مخالفة للمألوف فصورتها ستكون إذن مخالفة للمألوف ، واللامية ليست إلا صورة ومرآة لهذه الحياة .

ومن الصور التى تبدو مبعدة فى المبالغة وصف الشنفرى لمسابقته القطا وأنه كان السابق للقطا بأمد طويل ، فقد يبدو ذلك اشتطاطا ومبالغة شديدة أن نتصور رجلا يسبق الطير ، ولكننا حينما نحسن التأمل فى أن هذا الرجل هو الشنفرى الذى لم تلحقه خيل قط ، يذهب عنا على الأقل جانب كبير من الإحساس بالغرابة ، ويذهب الباقى من هذا الإحساس حين نعلم أن الشنفرى بلغ من دقته فى التعبير والصدق معا أنه حدد لنا أنه سبق القطا بعد ليلة من التسابق ، حيث يقول عن القطا (بعد ما سرت قَـرَبا) والقرب بفتح القاف والراء ، يحدد علماء اللغة مدلوله بأنه السير إلى الماء وبينك وبينه مسيرة ليلة ، ومن المعروف أن من طبيعة الطير ألا يطير فى الليل ، ومعنى ذلك أن الشنفرى لديه فرصة يعدو فيها والطير نائم فيسبقه ، وهذا لا يذهب عن الشنفرى غرابة سرعته فى العَـدْو ، فيكفيه مجرد أنه يسابق الطير .

ومن الصور التى تبدو عن بعد غريبة ، ولكن التأمل يذهب عنها ما تثيره من غرابة حديث الشنفرى عن إلف الوحوش له ، وأنها أصبحت تطيف به وتتحرك من حوله وكأنه واحد منها(١) فقد يبدو ذلك أيضا شيئا غريبا لا تتقبله العقول بيسر ، ولكننا حينما نتأمل حياة إنسان أصبح فعلا جزءا من هذه البيئة وما فيها ، فهو معايش حقيقة لكل ما فيها ومصاحب له ، على أن الشنفرى يبلغ من دقته أيضا أنه لا يقول لنا إن هذه الوحوش التى ألفته كانت سباعا من الأسود أو الذئاب أو نحو ذلك ، وإنما كانت من نوع غير مفترس وهو : الوعول التى خصها حينئذ بالذكر ، وهى غير مفترسة ، بل من فصائل قابلة للإلف والاستئناس كالبقر .

وأيسر من هذا إثارة للغرابة تلك الأمور الشخصية التى كان يعانيها ويصارعها

---

(١) فى قوله (ترود الأراوى الصحم حولى . . .) آخر اللامية .

من الجوع والهموم ومطاردة الأعداء ، فإن ما صوره من هذه الأمور ، ومن وسائل مغالبته ومصارعته لها ، وإن لم يكن يبدو فى نظرنا شديد الغرابة إلا أنه يبدو فى ثوب من المبالغة يكبر أو يصغر كيفما نظرنا إليه ، ومع ذلك حينما نتأمل موقف الشنفرى وحياته كما هى نجد أنه لا موضع للغرابة ولا للمبالغة . وفوق ذلك نجد أن أى شخص مكان الشنفرى لابد أن يمر و يعانى قدراً كبيراً أو صغيراً مما عاناه الشنفرى ، وإلا لما صلح أن يكون صعلوكا ، ولما استطاع أن يعيش أصلا فى هذه الحياة ، ولا أن يزاول هذه المهنة ، فالجوع والعطش ، والحر والبرد ، والخوف والقلق ، هى المحور الأساسى الذى تدور كل معانى اللامية حول تصويره والتعبير عنه بطريق مباشر أو غير مباشر ، وهذه الأمور كلها لابد لكل صعلوك أن يعانيها ، وكل ما يحدث أن يتفاوت الصعاليك فى نصيبهم منها ، وفى وسائلهم لمقاومتها . ولم يزد الشنفرى على أن صور لنا نصيبه من هذه الأمور ، ووسائله لمقاومتها .

ونخلص من هذا كله إلى أن اللامية تمثل أقصى ما يطلب فى الأدب من تحقق التجربة والصدق، حيث إنها لا تعدو أن تكون مرآة صادقة نرى فيها حياة صعلوك من طراز معين ، وكونه طرازاً معيناً هو كل ما يميزه عن الصعاليك ، كما يتفوق أى شخص فى مزاولة مهنته ، وفى تمكنه من أدائها على أكمل وجه يريده هو ، لا كما يريده الناس .

ولذلك كانت اللامية أيضاً قطعة من شعر الصعاليك ، وكل ما يميزها أنها طراز معين من شعر الصعاليك ، يتحقق فيه اكتمال النضج الفنى من مختلف الزوايا ، وعلى أكمل وجه ينتظر من الشعر ، وبهذا تكون اللامية مطابقة لصاحبها وحياته كل المطابقة ، سواء من حيث المستوى أو التصوير .

دقة الملاحظة

من مزايا اللامية أننا نلاحظ فيها إرهاف الحس ، وآثار دقة الملاحظة واضحين بصورة لا تتاح لشعر آخر بهذه الدرجة ، فقد استطاع الشنفرى أن يسجل أشياء بالغة الدقة ، ولا يكاد أحد أن يقف عندها أو يوليها اهتمامه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الحديث عن مزايا الشنفرى نفسه .

وليس من شك فى أن البيئة ذات تأثير كبير فى تكوين أبنائها من مختلف نواحيهم النفسية والجسدية والعقلية وغير ذلك . وإذا تأملنا قليلا فى البيئة التى كان الشنفرى يعيش فيها وهى الصحراء القاحلة المقفرة نفهم مدى ما تتيحه هذه البيئة له من التركيز على حواسه والاستفادة منها إلى أبعد حد ، فمثلا حاسة السمع وحاسة البصر ، كلتاهما عند ساكنى المدن والحضر تفقد جانباً كبيراً من مقدرتها واستيعابها ، ولا يكاد صاحبهما يستفيد بهما إلا فى القدر الضرورى الذى تسير به حياته اليومية ، وذلك من كثرة ما يتوارد عليها ، فالعين دائمة التطلع إلى مرئيات مختلفة لا تمد ولا يكاد ذلك يتوقف ، فلا يسترعى انتباهها إلا ما يتعمد صاحبها أن يوجهها إليه ، أو أن يجذبها منظر غير مألوف يفرض عليها النظر ، وقلما يكون ذلك ، أما فيما عدا هذا فالعين تكاد تمل من كثرة ما يعرض أمامها من أشياء متنوعة لا تكاد تعد ولا تحصى وكذلك الأذن فى حياة المدينة والحاضرة ، تعيش فى صخب دائم لا تنقطع أصواته المتنوعة المتعددة ، حتى إن أحب ما تستمتع به هو الهروب ولو فترة محدودة من هذا الصخب المصم إلى هدوء لا تسمع فيه شيئاً من هذا الضجيج .

أما حياة الشنفرى فقد كانت فى صحراء لا تقع العين فيها على شىء جديد أو متغير إلا بين الحين والحين . فحينما يبدو أمامها شىء ولو كان صغيراً أو غير ذى شان فإنها تنهمك فى تأمله وملاحظته ، لأنها محرومة من رؤية الجديد من جهة ، ومتفرغة لرؤية هذا الشىء لا تزاحمه رؤية شىء آخر من جهة ثانية ، فتنكب حينئذ على متابعته وملاحظة كل ما يتعلق به من شكل أو حركة أو غير ذلك حتى يتوارى عنها ، فإذا ظهر أمام الشنفرى حيوان مهما صغر شأنه كالنحلة أو النملة ، أو طائر مهما كان شكله عادياً مألوفاً ، فإن لديه من الفراغ والتركيز ما يدعوه إلى التفرغ لملاحظته ورصد حركاته بكل ما فيها من دقة و تفاصيل ، بخلاف ساكن المدينة أو الحضر الذى سرعان ما تجذب عينه مرئيات أخرى كثيرة متلاحقة ، فلا يجد لديه وقتاً ، ولا يجد ما يدعوه إلى التفرغ لملاحقة هذا الشىء الذى لا يعنيه . وكذلك الأذن ، فالشنفرى حينما يسمع صوتاً مهما كان عادياً بالنسبة إلينا ، فإنه بالنسبة إليه شىء غريب نادر . لأنه قلما يسمع صوتاً فى هذا السكون المطبق الدائم الإطباق ، وإذا سمع فلابد أن يكون متيقظاً لتبينه ، فكل صوت يدعوه إلى التفكير واليقظة فهو إما صوت عدو أو خطر .

وإما صوت فريسة يتطلع إليها . وإما صوت شيء يستفيد من تبينه أي فائدة . وهو حينئذ صوت فريد وحيد . لا يزاحمه ولا تطغى عليه أصوات أخرى . فحين يسمعه تجد أذنه من الاهتمام به والتفرغ له ما يدعوها إلى ملاحظة كل خصائصه . وتبين كل نغماته لتمييزه عن غيره ولتحديد طبيعته .

ونتيجة لهذا كله وبالإضافة إلى استعداد الشنفرى وتكوينه في الذكاء ودقة الملاحظة والقدرة على الوصف والتعبير ، نتيجة لذلك كانت هذه الدقة البالغة التي نجدها في شعر الشنفرى عامة . وفي اللامية على وجه الخصوص . من وصف أشياء دقيقة لا تكاد تلفت نظر شاعر غير الشنفرى ، ولا يكاد أمرؤ غيره يقف عندها ، وهذه الميزة ليست في موضع واحد أو مواضع محدودة من اللامية ، إنها منبثة في اللامية كلها . ولا يلتوي على القارئ تلمسها أو الإحساس بها .

ومن أمثلة ذلك وصفه لصوت انطلاق السهم من القوس . فإن صوت القوس حين ينطلق منها السهم مألوف لأصحاب القسي ، يسمعونه كلما انطلق سهم من القوس ، ولكونه شيئاً مألوفاً لم يحاول أحدهم أن يجعله موضوعاً ذا أهمية في وصفه إياه ، ولكن الشنفرى يقف عنده طويلاً ، بل ويتكرر وقوفه واصفاً متفنناً في وصفه . ومن ذلك في اللامية :

إذا زَلَّ عنهــا السهم حَنَّت كأنها
مُرَزَّأةٌ عَجْلى تَرِنُّ وتُعْوِلُ

وكذلك فيما رصده من دقة الأصوات تشاكي الذئاب حين خيم عليها اليأس بعد طول الجهد في بحثها عن الطعام . ومنها أصوات القطا ســواء ما كان تعبيراً عن العطش الذي تحول إلى صلصلة في أحنائها (أحناؤها تتصلصل) أو أصوات تزاحمها على الماء ، هذه الأصوات التي أصبحت من كثرتها وتداخلها وتزاحمها حول حوض الماء كأنها حواجز للحوض . فقد أصبحت أصوات القطا من وضوحها في أذن الشنفرى تصلح أن تكون في تخيله حواجز للحوض وللماء . وهكذا فيما رصده الشنفرى بدقة مما يتعلق بالسمع . مع أنها مسموعات لا تكاد تلفت نظراً أو تستوقف عابراً .

وأما فيما يتعلق بالمرئيات فقد أفاض الشنفرى فى رصد كل ما وقعت عليه عيناه وأراد الحديث عنه ، فما تحدث عن شىء إلا وكانت له دقة بالغة فى ملاحظة أشياء منه لا تكاد تسترعى انتباه أحد أو تجذب بصره ، فهذا الذئب الجائع الباحث هو وذئابه عن طعامهن يجعلنا الشنفرى من وصفه لكل شىء فيها حتى الشيب والشدوق وحجم الجسم وعبوس الوجه وغير ذلك كأننا نراها ماثلة أمامنا واضحة المثول .

وكذلك القطا ، وكذلك الأراوى وجلودها المخططة كأنها الملاء المذيل ، وغير ذلك مما يتجاوز مرحلة الوصف المألوف ، إلى ما يوصف بأنه من دقة الملاحظة التى تستطيع أن تلتقط أشياء قد لا تلفت نظر الكثيرين ، وقدلا يأبه لها أحد فى إدراكها ، فضلا عن اتخاذها موضوعاً للوصف والتصوير الأدبى .

الألفاظ

يمتاز الأسلوب الأدبى عامة بأنه يحمل فى ألفاظه إشارات وصوراً يزيد بها عن غيره من الأساليب غير الأدبية ، وقد يكفينا حينئذ من ألفاظ الأسلوب الأدبى أن نشعر بأنها ألفاظ غير عادية ، وأننا حين نتأملها ونتذوقها نجد أنها تحمل فوق معناها اللغوى شيئاً زائداً ، أياكان هذا الشىء ، من إشارة أو لمحة أو تصوير أو تشبيه أو أى شىء يشعرنا بأنها أسلوب أدبى ، وليست كلاماً عادياً .

ولكن الأساليب الرفيعة الممتازة فى الأدب ، نجدها تحمل ألفاظاً تعلو على هذا المستوى أيضاً ، فيكون اللفظ من هذا الطراز الممتاز فى تخيره مصدراً للاشعاع على ما حوله ، بحيث نشعر أن هذا اللفظ هو محور التعبير ، وهو الذى يشد إليه سمعنا ، ويلفت نظرنا ، وقد قلنا فى غير هذا البحث إن هـــذا النوع من الألفاظ نادر فى الأساليب الأدبية ندرة الجواهر الثمينة ، وأنه تكفى منه بضعة ألفاظ موزعة فى أنحاء القصيدة أو الموضوع الأدبى لتشع بريقها الأدبى على الموضوع كله .

ولكن اللامية تحفل بهذه الألفاظ الممتازة الثمينة من حيث إشعاعها وإيحاؤها الأدبى ، حتى لا يكاد يخلوا عنصر أو معنى من بعض هذه الألفاظ ، بل إذا راعينا أن هذه الألفاظ ليست فى درجة واحدة فلسنا نبعد إذا قلنا إنه لا يكاد يخلو بيت

أو بيتان متجاوران من شيء من هـــذه الألفاظ .

وقد يلتمس بعض العذر لمن يصعب عليه التذوق الكامل لهذا المستوى من الألفاظ ، فإن التذوق الكامل لهذه الألفاظ لابد له من الإدراك الواسع ليس لمجرد مدلول اللفظ فحسب ، وإنما لاشتقاقاته اللغوية فى كثير من الأحيان ، والأدب الجاهلى عامة ومنه اللامية أصبح مجرد فهم ألفاظه فضلا عن استيعاب اشتقاقاته يحمل شيئاً غير يسير من الصعوبة بعد أن استعجمت ألسنة العرب . ولولا هذه العجمة لوجد القارىء العربى فى كل ألفاظ اللامية أو معظمها فيضاً زاخراً من الإيحاء والإشعاع الأدبى ، هو هذا الذى وجده فيها السامع العربى القديم ، حتى أولوها ما أولوها من اهتمام وتقدير وإعجاب .

ومع ذلك حين نتجاوز ما يشق على القارىء العادى من ألفاظ تحتاج إلى شيء من جهد فى متابعة الاشتقاق ، ونذهب إلى الألفاظ الواضحة التى لا تحتاج إلى عناء سواء فى فهمها أو فى إدراك اشتقاقها ، نجد أنها حافلة أيضاً بهذا الإشعاع الأدبى ، مع أن هذه الألفاظ الواضحة كانت فى أذن السامع العربى وذوقه أيسر ما تحمله اللامية من جمال اللفظ وإيحائه ، ولذلك لم يقف عندها الشراح القدامى كثيراً ولا طويلا ، ولكنهم أكثروا الوقوف وأطالوه عند تلك الألفاظ التى تشق اليوم بعض المشقة على القارىء العادى ، والتى نؤثر من أجل ذلك ألا نكثر الوقوف عندها ولا نطيله ، وبذلك نكون قد عكسنا موقف الشارحين القدامى ، وقد يكون فى هذا العكس بعض الخير ، من حيث إن المنهجين يكمل بعضهما الآخر .

ومن هذه الألفاظ الواضحة لفظ (مُشَيَّع) فى وصفه لقلبه بالجرأة ، وأنه لا يهاب المخاوف والمخاطر ، كأن من حوله عشيرة وشيعة تؤازره وتنصره ، فهو (فؤاد مشيع) . ولو وضعنا مكانه أى وصف للفؤاد بالشجاعة أو الإقدام أو غير ذلك لما كان له هذا التصوير الذى يجعل قلبه ليس قوة واحدة ، بل قوى عديدة متآزرة متناصرة .

ومن هذه الألفاظ كلمة (وأستف) من قوله إنه يستف تراب الأرض حتى لا يضطر إلى تلقى نعمة من شخص يمنها عليه ، أو يستذله بها ، وأنه يجد استفاف التراب

خيراً من المن والإذلال ، ولو كان اللفظ (آكل تراب الأرض) لما دعانا إلى الوقوف عنده ، فإن الآكل يعنى أنه يسير على شيء مألوف معتاد فى تناول المأكول ولكن التعبير بالسف يفهم منه أنه أكل غير عادى ، قد يوحى بالسرعة أو النهم أو الإكثار أو نحو ذلك ، وكل هذا وغيره مقبول لدى الشنفرى مادام يجنبه الذل والهوان ، ولكن الشنفرى يضيف إلى اللفظ حرفاً يملأه إثارة للمشاعر والعواطف ، وهو تاء الافتعال فى (وأستف) فهذه التاء تملأ الموقف شعوراً بما يفعله الشنفرى ومايعانيه فى أكل التراب ولو تخيلا ، وأنه مستعد ليس لمجرد أكل التراب أكلا عادياً رفيقاً متأنياً فحسب ، وإنما ليسفة سفاً ، بل ليستفه استفافاً ، فكل ذلك ، وماهو أقسى وأشق من ذلك أيسر عنده من الهوان ، بل مما هو أيسر من الهوان وهو مجرد المن والطول عليه .

وأسْتَفُّ تُرب الأرض كيلا يَرَى له
عليَّ من الطَّوْل امرؤ مُتَطَوِّلُ

ومن هذه الالفاظ الواضحة (آلف) من قوله (وآلف وجـــه الأرض عند افتراشها) فالمعنى الأصلى أنه يفترش الأرض ، وليس له فراش دونها ، ولكنه يتجاوز هـــذا المعنى بمرحلة أخرى ، وهى أنه قد اعتاد افتراش الأرض وألفه ، ولو كان شخص حديث عهد بافتراش الأرض لكان إيلاماً له ، ولكن الشنفرى قد ألف هذا ، ولذلك لا يجعل افتراش الأرض مصدر الشكوى ، وإنما الشكوى فى البيت من أن عظامه وفقار ظهره البارزة من النحول والجوع ترفع جسمه عن الأرض وتحول بينه وبين الاستقرار فى النوم . وكل هذا لا يقلل من إيحاء لفظ (آلف) الذى يجعلنا نشعر بمدى ما يعانيه الشنفرى حتى فى نومه .

ومن هذه الألفاظ ، كلمتا (تحيت وعل) . من وصفه للهموم التى يصارعها حيث يقول :

إذَا وَرَدَتْ اصْــدَرْتُها ثُمَّ إنَّهـــا
تَـثُوبُ فـتَـأتِى مِنْ تُحَيْتٍ وَمِن علُ

فلفظ (تحيت) بالإضافة إلى دقته فى مراعاة أن المسافة التى تحته صغيرة تدعو إلى التصغير وخاصة إذا قيست بالفضاء الواسع من فوقه والذى سيذكره ، تقول بالاضافة إلى هذه الدقة فإن هذا التصغير يبرز معنى آخر ، هو ملاصقة الهموم للشنفرى وقربها منه ، وكأنها فراشه الذى يضطر إلى اللجوء إليه ، وأما لفظ (عل) فإن حذف الحرف الأخير منه يفيد إطلاقا يجعله وكأنه لا حدود له ، ولو قال (أعلى أو العلو) لكانت له فى الذهن حدود ولو تقريباً ، أما هذا الإطلاق فإنه يوحى بأن الهموم تأتيه من كل وجه ، حتى إنه لا يعرف كيف يحدد مصدر هذه الوجوه أو حدودها .

ومن هذه الألفاظ أيضاً (نصبت) فى وصفه للحر الشديد الذى يذوب لوابه ، والذى يجعل الأفاعى تتململ فى رمضائه ، حث يقول إن هذا الحر الشديد الرهيب لا يمنعه من الحركة والنشاط ، بل يزاول فيه حياته ونشاطه العادى دون أن يتأثر به ، فيقول عن هذا الحر (نصبت له وجهى ولا كن دونه) والكن بكسر الكاف الستر ، ولو قال إنه واجه هذا الحر بدون ساتر أو نحو ذلك ، لم يكن ليدعونا إلى الوقوف عنده ، مع أنه هو عين المعنى العام ، ولكن قوله (نصبت له وجهى) يرسم لنا صورة من الشموخ والعزة وقوة المقاومة فى أقسى الظروف ، وهذا مالا يؤديه لفظ واجهته أو أقمت له وجهى أو نحو ذلك .

وليست تلك كل مزايا اللامية ، ولا كل مزايا شعر الصعاليك ، ولكن هذا البحث كما قلت فى التقديم له ، فيه ما يشبه التوفية لبحث سابق كتبته عن شعر الصعاليك وإذا كانت فى هذا البحث بسطة بعض الشيء عن شخصية الشنفرى وحياته ، وبسطة بعض الشيء أيضاً عن لاميته فى عرض أبرز معانيها وخصائصها ، فإن هذه البسطة لم يكن سياق البحث السابق ولا موضوعه يسمحان بها ، ومع ذلك فإن هذه البسطة لا تقتصر فى فائدتها على الشنفرى وشعره فحسب ، ولكن الحديث عن شخصية الشنفرى يتضمن نموذجاً لسائر أشخاص الصعاليك ، كما أن الحديث عن لامية الشنفرى يتضمن نموذجاً لسائر شعر الصعاليك ، فليس الشنفرى إلا واحداً من الصعاليك ، وليس شعره إلا جزءاً من شعر الصعاليك ، غاية الأمر أنهما مثالان ممتازان متفوقان .

ولهذا لم نجد ما يدعو إلى تكرار كثير مما سبق فى البحث الآخر .

التطبيق الواقعى

ومن الخطأ الكبير أن تنظر إلى مثل الشنفرى على أنه مجرد طيف من أطياف التاريخ ، لم تعد للحياة حاجة إلى مثله ، وليست بين مثله وواقع الحياة صلة ، حقاً إن الحياة لا ينبغى أن تكون فى حاجة إلى سلوكه فى الصعلكة ، ولا ينبغى أن يوجد هذا السلوك فى واقع الناس أبداً ، أما شخصيته نفسها فلا يسرى عليها هذا الحكم .

ذلك أنه من الواضح أن الشنفرى شخصية موهوبة فذة ، غاية الأمر أنها ضلت الطريق ، وضلال الطريق هو ما يجب أن نتحاشاه ، ولكن من الخطأ أن نطلق هذا التحاشى على الشخصية نفسها .

والذى نريد أن ننتهى إليه من هذا أن واقع الحياة اليوم ، وفى أى يوم ، محتاج إلى الاستفادة بكثير من مقومات هذه الشخصية ومنهجها فى مصارعة المتاعب على وجه الخصوص ، وليس هذا من التكلف أو المغالاة فى شيء .

فمن الواقع المعروف أن فى كل المجتمعات مجالات وأنواعا من الأنشطة تحتاج إلى التربية الفردية ، التى يكون الهدف منها إعداد الفرد ليعتمد على نفسه فى مواجهة متاعب وصعاب تعترضه فى سبيل تحقيق هدف معين ، وأبرز ما يتضح ذلك فى الجيوش ، حيث يلزم لكل جيش فريق يتدرب أفراده تدريباً عنيفاً شاقاً ، بالغ العنف والمشقة على تحمل المتاعب ، ومواجهة الصعاب ، ومقاومة مختلف العوامل الجوية والمعيشية القاسية التى يحتمل أن يتعرض لها خلال أدائه لبعض المهام التى توكل إلى أفراد معينين ، وليس إلى جماعات منظمة ، وحتى هؤلاء الأفراد ينبغى أن يعد كل منهم نفسه للاعتماد على شخصه فى أداء العمل ، وتحقيق المهمة ، وذلك إذا حالت الظروف بينه وبين رفاقه ، وأبرز هذه الفرق من يسمون رجال (الصاعقة) أو (الكوماندوز) وهى فرق أساسية فى كل جيوش العالم ، ويدربون تدريبات خاصة تتسم بالشدة والعنف ، على ألوان الحياة التى قد يضطرون إلى العيش فيها أثناء تأدية العمل ، فقد يضطرون إلى العيش أوقاتاً طويلة أو قصيرة بدون طعام ، بل وبدون ماء ، معرضين للبرد أو الحر بدون ساتر ، مصحوبين فى كل ذلك

بألوان من المشقة والخوف والقلق ، ونحو ذلك . وهى فى جملتها حياة لا تكاد تختلف عن حياة الشنفرى . وهنا يبدو مجال التطبيق الواقعى لمنهج الشنفرى فى مصارعة الحياة ، أو بمعنى أصح مصارعة متاعب الحياة ، فما أحوج جندى (الصاعقة) الذى يجد نفسه فى أحوال كثيرة يعيش فى مثل بيئة الشنفرى وظروفه ، حين يوكل إليه أن يؤدى مهمة ضد العدو ، أو حتى يدرب على أدائها ، وحيداً فى صحراء أو فى غابة ، أو فى مكان شبيه بأحدهما ، وحينئذ قد يجد نفسه مرغما على مثل هذه الصورة التى يحكيها الشنفرى فيقول :

دَعَسْتُ عَلَى غَطْشٍ وَبغْشٍ وَصُحْبَتِى
سُعَارٌ وَإِرْزِيزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ (١)

فهو مضطر إلى أداء مهمته رغم الظلام والمطر ، وكل ما يصحبه الجوع والبرد والخوف والرعدة ، وحينئذ يتمنى هذا الجندى أن يهتدى بأى ثمن إلى الوسائل التى جملت الشنفرى يحيا هذه الحياة ، ويقاوم متاعبها ، وينتصر على قسوتها .

وليست هذه الفرق المنبثة فى الجيوش هى كل مجالات التطبيق الواقعى لمثل حياة الشنفرى ، بل هناك مجالات كثيرة ، منها مجال إعداد رجال المقاومة ، أو من يسمون (الفدائيين) الذى يتصدون لمقاومة جور أو طغيان أو احتلال ، فمن الواضح أنهم فى حاجة إلى التدريب على مواجهة مشقات كثيرة متعددة متنوعة ، فقد يضطرون أيضاً إلى أن يحيوا حياة الشنفرى ، وأن يعانوا حينئذ كثيراً مما عاناه . وحينئذ أيضاً يتمنون أن يعلموا كيف كان الشنفرى يقاوم هذه المتاعب ، وينتصر على هذه الظروف ؟ ومن هذه المجالات أيضاً . مجال شباب الاستطلاع (الكشافة) الذين يدربون . وإن كان تدريباً هيناً على مواجهة الصعاب . إلا أنه نوع من التدريب على تنمية القدرة على مقاومة المتاعب والحياة الشاقة .

---

(١) الدعس : المشى بمشقة . والغطش : الظلام والبغش : الوحل من آثار المطر . والسعار : الجوع الشديد . والإرزيز : البرد . والوجر : الخوف . والأفكل : الرعشة .

وهكذا فى مجال من المجالات التى يراد فيها إعداد الفرد للاعتماد على نفسه ، فى تحقيق أهدافه وسط ظروف قاسية أو محفوفة بالمخاطر .

وفى كل هذه الأحوال لسنا نحتاج إلى الشنفرى بوصفه صعلوكا ، وإنما نحتاج إلى منهجه فى مقاومة الصعاب ، هذا المنهج الذى استقاه من الواقع ، ونسجه من الخبرة والمعاناة ، حتى جعل منه درعا صلبة شديدة الصلابة . لأنه نسجها من واقعه وخبرته حلقة حلقة . وفى أناة وتؤدة . وهذا المنهج نجده مبثوثاً فى شعر الشنفرى وشعر الصعاليك عامة . ولكن لامية العرب قد جمعت هذا المتفرق . حتى تكاد تكون شاملة ومستقصية لأسس هذا المنهج كله . منهج الشنفرى والصعاليك فى مواجهة الصعاب على اختلاف أنواعها .

ومن أمثلة ذلك أن اللامية تشير إلى أهم ما يحتاج إليه من يضطر إلى العيش فى مثل هذه البيئة . ومن ذلك إجادة الرمى . ودقة التصويب . ولذلك كانت القوس أهم ما تغنى به الشنفرى من الأسلحة . لأنها أهم الأسلحة وألزمها لمن يعيش فى هذه الظروف . وقد كانت القوس الأداة الوحيدة للرمى والتصويب حينذاك .

ومن أهم احتياجات هـــذه البيئة معرفة مسالكها . والدراية الدقيقة بشعابها وجهاتها . وبدون هذه الخبرة لا يستطيع أمرؤ أن يتحرك فى هذه الأرض التى تتشابه فى كل صورها ومناظـــرها . إلا عند العين الخبيرة المدربة . ولذلك يعتز الشنفرى بأنه يعرف هذه البيئة ومسالكها فلا يحتار حتى فى الظلام . فضلا عن النهار . فيقول : (ولست بمحيار الظلام) .

ومن أهم الاحتياجات النفسية لهـذه البيئة القدرة على التكيف معها . بحيث لا يشعر مرتاد هذه البيئة بالنفور من حيوانها ، فضلا عن الفزع منه . وخاصة إذا لم يكن مفترساً . ويعبر الشنفرى عن هـذا التكيف الاجتماعى النسبى مع الوعول فيقول : (ترود الأراوى الصحم حولى . . .) .

وأما صراعه مع وسائل العيش . وعوامل البيئة . فقد حفلت به اللاميـة حتى أوشكت أن تستقصى كل هـذه الوسائل والعوامل . ومن ذلك وسيلته فى مقاومة

الجوع وهى مماطلته حتى يميته (أديم مطال الجوع حتى أميته) . ووسيلته فى البحث عن الماء . وهى مراقبة الطير ، وتحديد اتجاه جماعاته . فهو بخبرته يعرف أن هذه الجماعات متجهة إلى الماء . وذلك فى حديثه الطويل عن القطا ومنافسته إياه على الماء . ومن ذلك حديثه عن مقاومته للبرد والحر بالحركة والنشاط . فإن الخمول والركود يضاعف الشعور بهما . حيث وصف ليلة النحس(١) وما بذله فيها من حركة وعمل . ويوم الشعرى(٢) الذى بلغ فيه الحر أقصاه . ولكن وسيلة الشنفرى كانت التحدى . حيث نصب له وجهه متحركا نشيطاً . وكأنه يوم عادى . ومن هذه الألوان صراعه مع الخوف الذى تبعثه مطاردة جرائمه وجناياته فهو (طريد جنايات) ووسيلته فى ذلك الثبات والاطمئنان . وتجاهل الخوف . حتى إنه يستطيع أن ينام مع تيقنه من أن هناك عيوناً يقظى . حثاثاً إلى مكروهه) . ومنها صراعه مع الهموم ووسيلته معها التركيز الدائم على صرفها . وعدم اليأس أو الاستسلام . بل محاولة طردها كلما عادت . مهما تكرر ذلك . (إذا وردت أصدرتها ..)

ولكن السلاح الأساسى فى كل المواقف هو العزم القوى . والإرادة الماضية . والإقدام المستبصر . وهذا السلاح وإن كان موهبة فى تكوين المرء إلا أن جانباً غير يسير منه يمكن أن يكتسب بالرياضة والتدريب .

وأخيراً نستطيع أن نقول : إننا بهذا لا ندعو إلى الصعلكة . ولكننا ندعو الناس إلى أن يتعلموا بعض أساليب الصعاليك فى مقاومة المتاعب وما أكثر المتاعب ، سواء فى حياة الصعاليك ، وغير الصعاليك .

---

(١) المراد به البرد الشديد .

(٢) الشعرى كوكب يظهر فى الصيف والمراد شدة الحر .

أهم المراجع

١ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .
٢ ـ الأمالى لأبى على القالى .
٣ ـ الكامل للمبرد .
٤ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة .
٥ ـ كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى .
٦ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز .
٧ ـ جمهرة اللغة لأبى بكر بن دريد .
٨ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى .
٩ ـ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى .
١٠ ـ خزانة الأدب للبغدادى .
١١ ـ مجمع الأمثال للميدانى .
١٢ ـ القاموس المحيط للفيروز أبادى .
١٣ ـ أساس البلاغة للزمخشرى .
١٤ ـ أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى .
١٥ ـ ديوان الحماسة لأبى تمام .
١٦ ـ شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزى .
١٧ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة .
١٨ ـ تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان .
١٩ ـ تاريخ الأدب العربى د . شوقى ضيف .
٢٠ ـ تاريخ الآداب العربية كارل نالينو .
٢١ ـ الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د . يوسف خليف .

٢٢– شعر الصعاليك ، منهجه وخصائصه للمؤلف .
٢٣– شرح المبرد للامية العرب (هامش أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ)
٢٤– ديوان المفضليات للضبى (تحقيق كارلوس يعقوب لايل)
٢٥– الطرائف الأدبية تحقيق عبد العزيز الميمنى .
٢٦– مذاهب التفسير الإسلامى جولد زيهر .
٢٧– لب اللباب فى تحرير الأنساب جلال الدين السيوطى .
٢٨– معجم قبائل العرب القديمة والحديثة عمر رضا كحالة .
٢٩– دائرة معارف البستانى .
٣٠– الموسوعة العربية الميسرة (إشراف محمد شفيق غربال م . دار القلم) .
٣١– نشر العلم فى شرح لامية العجم جمال الدين الحضرمى .
٣٢– أبو نواس : الحسن بن هانىء عباس محمود العقاد .
٣٣– المبرد (أعلام العرب العدد ٩٤) أحمد حسنين وعبد الحفيظ فرغلى

فهرس

استدراك مطبعي لبعض الأخطاء

ص	س	الخطأ	الصواب
١١	٣	أشارت	تحدثت
١٣	٢٠	العواء	العراء
١٤	١٢	بين	من بين
١٦	٢	يعزرك	يغررك
١٦	٣	فالسرد	فالسرد (١)
٢٥	٢٢	ظلب	ظلت
٥١	١٥	بأو	بأن
٥٤	١٧	كل المجتمع	المجتمع
٥٦	٢	يجمل	يحمل
٥٦	١٧	(٢)	(١)
٦٩	١٣	الناس	الشعر
٦٩	١٤	الشعر	الناس
٧٣	٤	حوار	حوارا
٧٧	١٨	وقتها	دقتها
٧٩	١٤	أين	أنين
٧٩	١٧	العدد	العدو
٧٩	١٩	سلاحا	سلاح
٨٠	١	وليس	ليس
٨٠	١٧	يضطرع	يصطرع

رقم الإيداع ١٦٣٩ / ١٩٧٦

يناير ١٩٧٦